

بين الضفتين

روايــــه

فرج محمود

تقديم
د . يسرى العزب

مطبوعات الفجـر
تصدر عن جماعة الفجر الأدبية بالقاهرة

المشرف على التحرير
دكتور يسري العزب

المراسلات باسم: المشرف على التحرير
الجيزة - أرض اللواء - فيصل
١١ ش محمد منصور
تليفاكس ٥٧٠٢٢٤٢

لوحة الغلاف والرسوم الداخلية
للفنانة منى عوض

الاهـداء

عالم أسواره السحر ..
حوله تدور الفوارس..
فتغيب عقولهم
لرؤية نوافذه وأبوابه ..
أما الروح فقد عششت ..
في الفضـاء ..

انـه الشاعر الاستاذ/ الدكتور يسري العزب

إهـداء ثـان

هـذا صوتك..
ولحنـه ..
وقلب إن طار ..
فلعشك
ولعصافير الجنة..
ترفرف علينا.

بين الضفتين .. جدة وإجادة

تقديم دكتور يسري العزب

(١)

هذا هو الأديب الشاب فرج محمود يتقدم بخطى واثقة إلى منطقة متميزة في خريطة القص الجميل.. يقطع في سبيلها رحلة شاقة بين ضفتي بحر متلاطم الأمواج.. ولقد صدق الكاتب نبوءتي له بهذا الوصول الحميد حين لمحت - في قصصه القصيرة التي نشر بعضها - منذ عامين في مجموعته الأولى (ليلة دافئة) - نفسا فنيا يعطيه قدرة على البوح لمدى أبعد من المدى الذي تحتاجه القصة القصيرة.. طلبت منه أن يكتب عملا روائيا يجمع خيوطه من بذور فنية انتشرت في قصصه وكنت واثقا أنه قادر على الفعل.. فاندفع مخلصا لتحقيق هذا الفعل.. فكانت روايته (بين الضفتين) عملا يناهز (الملحمة) في بنائه.. تجتمع فيه حضارة الشرق والغرب في صراع درامي يلعب

الحوار فيه دوراً هاماً.. يرصد فرج محمود كلا العالمين بكاميرا روائية دقيقة يقرب عدستها أحيانا فنرى صورة الواقع - هنا أو هناك - واضحة الملامح في بعض أجزاء الرواية، ثم يبعد هذه العدسة قليلا فنرى الصورة الروائية حاملة كما أكبر من الشخصيات والأحداث تمنح الدلالة الروائية عمقاً يدفع إلى مزيد من الرغبة في الإبحار (بين الضفتين).

(٢)

في الضفة الأولى تبدأ الرواية في إحدى قرى الدلتا حيث مسقط رأس الشخصية الرئيسة (إسلام) نجد الواقع حياً نابضاً في الجزأين الأول والثاني (أيام أم إسلام - أيام هارون) ثم نجد واقع القرية أكثر نبضاً وحيوية في الجزء الخامس - الأخير (أيام العائلة).. ونجد واقع الضفة الأخرى حياً ونابضاً في الجزأين الثالث والرابع (أيام إسلام - أيام بين الضفتين). حيث تبدأ بذرة التلاقي بين إسلام وكريستينا على صفحة النيل

ثم تنمو وتضطـرد وتتعقد علـى نحـو جميل بـاحت بـه المذكرات في الجزء الرابع.

وفي الواقع الجديد يظل الحـدث الروائـي حبيسـا بين الضفتين وهما هنـا ضفتـا نـهر النيل حيـث يرتحـل السـائحون إلـى الجنـوب للتعـرف علـى آثـار مصرنـا المجيـدة فـي الأقصـر وأسـوان ومـا وراءهمـا.. تـدور الأحـداث الروائيـة فـوق المـاء هـادئة أحيانـا وعاصفـة أحيانـا.. حاملـة معـها (إسـلام) الـذي تتـأرجح أفكـاره وعواطفه سابحة - هـي الأخـرى - بيـن الضفـة التـي خرج منها (القرية / الوطن / التاريخ/ العادات والتقاليد والقيم / الأصل) والضفة التي ينجذب إليها مبهوراً حيث الجمال والتقدم و(كريستينا).

(٣)

وتتجسد الحيرة الوجودية التي يعيشـها (إسـلام)/ الواقع المصـري المعـاصر فـي حيرتـه بيـن (كريسـتينا وأمـل) بنـت القريـة المحبـة وفـي الخـلاص مـن هـذه

الحيرة.. بالتوحد الذي يجب أن يجتمع عليه المصريـون جميعـا.. والـذي دعـا إليـه - فـي المـاضي البعيـد - إخناتون العظيم..

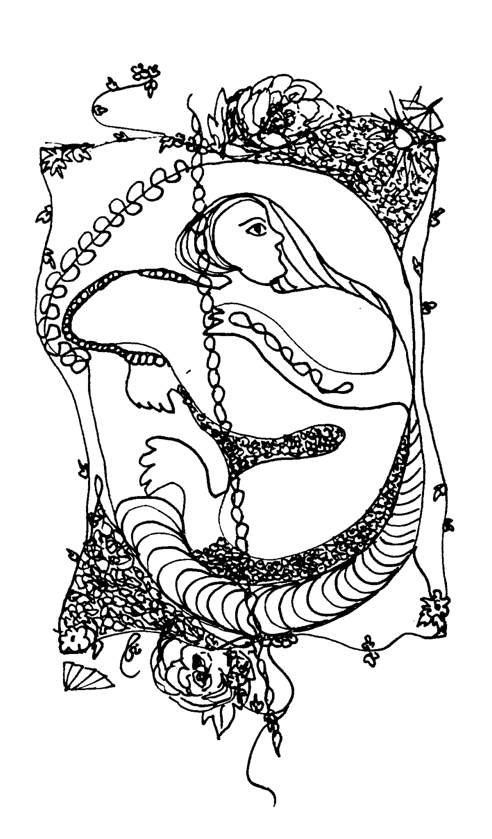
(٤)

إن هذه الرواية إنجاز فني يحققـه صاحبـه وهـو مـا زال فـي بداياتـه الجـادة.. يؤكـد بـها قدرتـه علـى الاستمرار متجدداً ليضيف إلـى إبداعنـا القصصـي المزيد والمزيد من الأعمال المتميزة إجادة وجدة.

دكتور يسري العزب
٢٠٠٥/٤/٧




أيام أم إسلام



أيام أم إسلام

- ١ -

حين سمعت الدقات على الباب انتفضت، لم تعرف أن الليل انتصف، اهتز الكرسي تحتها؛ فردت ذراعيها مدفوعة بغريزة تحميها من السقوط، ارتطم الكف بالجدار البارد خلف البوابة الحديدية.. سقطت بطانية كانت تلف جسدها البدين منذ أن انسلتت من جوار زوجها. فتحت الباب. روح أمك، قلبك حجر.. تعال.. هنا حضنك! أغلق إسلام البوابة بركلة من كعب حذائه.!

* * * *

قبل أسبوع من هذه الليلة..

دخلت حنان مكروبة ملهوفة، من دبيب خطواتها الخافت علمت الأم أنها ابنتها، الحادية عشر.. وسحبت الأم أسورة الكم فوق الساعة مغمغمة لنفسها "ساعتان على ميعاد الشيخ.." إلى أن تخترق حنان الطرقة الطويلة، وإلى أن تغلق

الباب الصغير - باب الشقة - حاولت الأم استخراج سبب لقدوم ابنتها. لم تتوقف عن القراءة في مصحفها الكبير.. وحيث لم تخلع حنان النقاب فقد جاءت لتمضي، تطلعت الأم إليها وقد جلست، طويلة في قامة أبيها، ملابسها الفضفاضة تستر نحافة الجسد.. سألت الابنة:

- ألم يأت أبي؟
- أذن الظهر..
- لا
- في الخلاط أناناس.. ادخلي المطبخ.
- ألم تفتحي الراديو؟ ألم تسمعي شيئا؟
- سمعت نشرة التاسعة. حروب وحجارة.
- لا. العاشرة.
- كم الساعة؟
- الحادية عشر.
- كيف حال زوجك والولد حازم؟

جلست حنان، لا تعرف هل تعود وتترك المسئولية لأبيها أم تقول.. لكن الأب لن يعود إلا بعد الظهر وتخشى أن يأتي أحد من القرية ويفاجئها بالخبر.

في التاسعة والنصف ضربوا..

- كل يوم ضرب

- سيّاح..

اكتشفت الأم أن جسدها ثقيل فقالت:

- ساعديني أن أقف.

أكملت حنان في هدوء ودون أدنى انفعال.

- ومات أكثر من ثلاثين سائحا.

- سأقف. أين؟

- في الأقصر.

- أجلس يا حنان..

سمعت الابنة صوت أقدام تزحف فوق بلاط الصالة وفجأة رأت شفة أمها السفلي ترتخي وتأخذ زاوية منفرجة ولمحت عينيها اليسرى تتصلب وتضيق وتكاد تنغلق. تذكرت ما فعلت بهذه الأم وتمنت أن يكون القادم أبوها. حين دخل الشيخ هارون عليها كانت الأم قد سكنت وفقدت الرغبة في نطق كلمة واحدة. جلست حنان بجانب أمها تقرأ في المصحف. انطلق الشيخ ليبحث عن طبيب.

- ٢ -

توقف الشيخ عن التنقل بعينيه بين الوجوه، حدّق في كفيه المفتوحين مثل جناحي طائر ميت. سأل نفسه مرات: أحقا مرّ يومان؟! بصوت مسموع تنحرف الثرثرة، ترتطم بهيكله

المتكيء على مسند الكنبة الخضـراء، ويـهمس لنفسـه: "قـل لـن يصيبنـا إلا مـا كتب الله لنـا.." .. تـراءت لــه الـرؤوس دوائـر هلامية تهتز خارجة من ظلال رمادية، تذكـر أنـه لـم يـأكل منـذ الصباح، نكس رأسه، فكرفي هؤلاء المدخنين، أفكاره تراوغـه. يخرج وجهها من أسفل دخان السجائر.. ينهض هو، رأوه واقفاً، بجـانب بـاب غرفـة الجلـوس، يـرون جبهتـه البـارزة، تذكـر أن امرأة المتر معها وبجانبها حنان، لم يحدد حين مسح وجهه بكفه مـاذا عليـه أن يفعل، سمـع صـوتاً أجش، أحـس أن الصــوت ملتصق بأصوات أخرى، انتظر أن يفهم..

- اهدأ..

صوت آخر :

- إن شاء الله يرجع ولدك..

صوت ثالث خفيض..

- وتشفي الست أم إسلام..

عـاد ليجلس، اكتشـف وجـود ابـن الربيعـي، لـم يفـهم الجالسون سر الهمهمة، زفرات ملضومـة فـي خيـط، كـل واحـد منهم التفت، فكر بعضهم أن يسـأل الشـيخ عـن أي شـيء، ليـس مـهماً أن يخـرج سـؤال مـن أحشـاء رأس ملمـوم علـى الدهشـة، وغاب بعيداً عن لحظتهم، عيناه علـى الشـاعر وثبتـت النظـرات دون فهم.. "هل اسأل إن كـان يعـرف شـيئاً، الأصدقـاء يدفنـون

أسرارهم في مكان لا يعرفه غيرهم.. "لم تكن النظرات في نهر وجودهم أكثر من موجة صغيرة، تتلاشى كأن لم تكن، كأنما تذكر الشيخ شيئاً. وقف هذه المرة وهم في مرمى آخر. كان الرجل في حاجة أن يتمهل.. للحظات، إلى أن يعودوا إلى حالة الورع وفقدان ذواتهم لحساب الرجل. لحقت نظرة من أحدهم بالجسد الطويل الذي بدا عاقاً لملابسه، متهدلة العباءة السوداء، ومع كل هذا تريثت النظرة وكأنما خشي الرجل أن يتعرض لسؤال يكومه مكانه فقال:

- لا تنزعجوا.. سأعود حالاً..

حين وقف على الضفة الفاصلة ما بين الحجرة والصالة رأوه ساكناً، الوجه المدور مشحون بيومين مضيا وخلفا بقعاً حمراء، والعينان الزرقاوان، فيهما مويجات تشبه زخرفة باهتة تنطلق من مكامنها. لم يحولوا الوجه ولم يتدخلوا في المسار، ونسوا وانطلقوا موغلين في الثرثرة، التي يسمعها الشيخ، ترقب وظل ساكنا ممسكاً المظروف أو تاركه معلقاً فوق صدره كتميمة. خطوات. جوار ابن الربيعي جلس وترك وجهه يعبر الظل واقفاً في فضاء الصخب..

- اسمعوا..

محسن لم يستسلم للامتعاضة، فكر في تدخل يبعثر الكرات المربوطة بالأفواه، واغتاظ لإحساسه أن الحاضرين

يتبادلون هذه الكرات من فم إلى فم، تتسلت غارقة في اللعاب، إنها ذروة الزهـو، دخول هؤلاء في معية الحشد. قال رجل أبيض الرأس واللحية ترف عيناه من خلف جلد في لون البن الفاتح ومجعد.. ينادونه بالريس (لأنه مدير المدرسة الثانوي).

- هذا أمر جلل. ضاع عملنا هباءً

رد صوت يأتي من جوار النافذة المقابلة "الريس"..

- الأسرة..
- تقصد الدولة..؟

صوت مخنوق ويجاهد الخروج من مأزق التراخي..

- يا إخوان، فلسطين ورغيف العيش..

الريس ..

- هذا أمر جلل.. نحن لا نسمع جيداً..

صوت حاد النبرة..

- وماذا نسمع؟
- تعلمنا أن نغلق آذاننا. تركنا أولادنا يخرجون عن الصف. هذا تمرد..

تحدث مدرس الفلسفة:

- في كل بيت عصا. ويصغر حجم العصا ويكبر حسب البيت. يجب أن يتم التفتيش عن العصي وتكسيرها، هناك

عصا لن نقدر على كسرها. يجب أن نهجم عليها بيد واحدة..

- ماذا تقول..؟

جاء الصوت من ناحية النافذة.

- الطفل يولد ليصرخ، ثم يتكلم، يجب أن نتركهم يرفسون..

- فلسفة فارغة..!

- اسمعوا أرجوكم..!

نظر محسن حيث يقف الشيخ، فكر أن يصرخ ليكفوا. الغرفة تحولت إلى حفرة عامرة بالضباب، الشيخ هو الجسد المغروس في تلافيف العتمة، تمعن محسن في الأكواب الفارغة، تحدثه نفسه: لم يأت غروب ولم يقترب الأفق الأسود من القرية، سأختنق لو بقيت وسط هذا الدخان، لمح السيقان، ساكنة، متجاورة، أقدام في جوارب حاقدة، غص بالقرف، ما يزال صوت الشيخ يبحث عن نسمة هواء تحمله حيث النهاية..

- أرجوكم تأملوا جيدا، كيف يقف؟ كيف يرفع يديه؟ ألا ترون أنه يشير إلى هؤلاء..

كهل يزحف ملفوفا في وهنة تراءى لمحسن، وبدأوا يتشممون رائحة غريبة تنز بها الصور، كان الشيخ واقفا قبالة محسن، أحس الشاب أن إصرار عمه هارون سينجح، لم يقدر أن الرجل عائد بهذه الصور الفوتوغرافية. ترك الأساتذة

يتناوبون الرؤية، وتحلقوا حول الشيخ، ظهرت الفراغات خلف الكراسي وبدت الحوائط الأربعة، وأطفأوا سجائرهم، أحس الرجل أن عيونهم تشهق فوق الكروت الملساء، بدأت أناملهم تنسل من جيوبهم، ورأى الشيخ أطراف الأصابع تنغرس في العري والألوان واللحم، محسن تابع من الخلف، فرح لصفاء ذهنه وراح يبني من المنظر لحظة جد حقيقية، كيف يظهر العرض شجيا، وكيف واتت الشيخ هذه الفكرة الرائعة، ولمّ ياقة السويتر الكحلي حول رقبته، يستعيذون، يستغفرون، ولا تتراجع أصابعهم إلى أغمادها. رآهم حواة، بعد قليل عادوا إلى الكراسي يطرزون أطراف القصة بحكاية النسيان واللامبالاة.. الشيخ يقف في وسط الساحة بنفسه.

- كما ترون، عليه واجب، كل حجر، كل كلمة، وأكثر يعرفه!

رد الرئيس..

- نساء كثيرات يا شيخ..

- تعرفون أكثر مني كيف كان يدرّس، لكن الشباب ليسوا..

لم يرغب أستاذ الفلسفة في بتر حديثه.. إنما تصور أن الشيخ منفعل ويكاد يبكي..

- لم يكن ممكنا أن يظل يدرس إنجليزي ودرس الألمانية.. ابنك رائع..

توهج الوجه الأبيض وسكنت الزرقة في عيني الرجل..

- ما رأيك في العري يا فيلسوف؟
- يا ريس.. لا تعجبني لهجة التهكم. لماذا جئتم..؟

لا حقا ارتاح أستاذ الفلسفة للسؤال العفوي، حيث انطفأت الذوات داخلهم، وغاص كل أستاذ وأستاذ أول وحتى الريس، غاص ليخرج دون نطق كلمة، شرع الشيخ في فرد يديه ووضع الصور فوق بعضها، أعاد المظروف إلى صدره، وشرد أمام صمت الجميع، حين عرف بقدومهم كان حائرا. ترى أبسبب سقوط أم إسلام مريضة جاؤوا أم لمعرفتهم بانهياره بعد سماع الراديو؟!. وبعد ما ترك المدرسة ولمدة يومين لم يظهر؛ لكن ظهور أستاذ التاريخ زميله في مساء يوم الحادث أكد له أن البيت سيستقبل عددا كبيرا، وحتى لو جاءوا مجاملة للريس قرر أن ينسى السبب والحقيقة ويستقبل الجميع دون ذرة شك، ظل منتظرا بعد ظهيرة يومه الثاني. أتوا قبيل الغروب. سقط رذاذ خفيف حين صلى الظهر في المسجد، شعر أن البرد يكمن له خارج الدار، لكنهم جاءوا رغم سقوط مطر لمدة نصف ساعة قبل العصر.

قبل أن يدور الشيخ على كعبه تساءل الريس..

- أأمضى لك أجازة لمدة أسبوع..؟
- لا..! لا أعرف!

حدثت خلخلة في الجذوع الرابضة، فهم الشيخ وأسرع

ليعطى كل واحد يده ويشد عليها.. وينظر إلى السماء ويتمنى أن يدعوا لابنه. حين عاد وجد ابن الربيعي مشتبكا في حديث غريب، يصارع عددا من الجبال. ويفكر الأستاذ هارون أنه سيظل يضرب في الهواء إلى أن يتمزق كتفاه؛ مع ذلك جلس وأنصت..!

كان محسن يجيب على سؤال، لم يحدد الشيخ من سأل ولم يقف طويلا أمام هذا..

- أكون من أكون، ماذا يهمكم ابن من أنا..؟ ماذا في الصور؟ أعرف ما يدور في عقولكم. شاب يرافق سائحات، عرايا، إنه يعمل، ويشرح مثل أي مدرس، وأنظر لأرى "رفضا قاطعا".. عيونكم لا تنطق فقط وإنما تصرخ.. ألم تستمتعوا برؤية هذا العرى، ليقل واحد منكم ما الفرق بين ما يفعله إسلام وما يفعله مدرس في مدرسة بنات..؟

تدخل الشيخ ..

- اهدأ يا بني..

أستاذ الفلسفة لا يحول وجهه عن محسن لأن ابتسامة في حجم باقة من الزهور كانت هناك..

- إنه صديقه. مثل أخيه..
- العجيب أنكم لا تنطقون، قولوا إن كنت مخطئا!
- من أنت يا بني..؟ ومتى حضرت..؟

- سامحوه..هكذا الشعراء..

- هو شاعر..؟

شد أستاذ الفلسفة على يديه، ظل واقفا يحادثه حتى بعد أن لحق الدخان بأصحابه الذين عادوا قبل أن يبرز جلد الليل السميك ويغطي القرية بالكامل..

- ٣ -

ترك محسن جالسا على الكنبة، وأخذ مكانه على كرسي قريب، لم يعد الشيخ بعقل بعيد عن التشويش، يغالب الإرهاق في الجسد شاعرا أن فوق ظهره وكتفيه وذراعيه شيء ملتصق يشد الجلد تصوره على شكل قطع مستطيلة.

تناسى كل هذا وحاول أن يكون الرجل الذي يرضى بقضاء الله، استدعى أشياء كثيرة في حياته، تبرق خاطرة أو اثنتان: ابنك لا تعرف عنه شيئا، وأمامك صديقه، يتمتع بالحياة. شوّح بيده أمام وجهه، عاد لاستدعاء عزمه وأكثر من هذا أراد الخروج من الحلقة المفرغة؛ أن يكف عن قول شيء ولا يفعله، استدعى كلمات يقولها على المنبر، آيات قرآنية "إنما يوفى الصابرون أجرهم..". طالما أن ابن الربيعي صامت فليرض بهذا الصمت، لكنه لم يرد خداع نفسه. الظلام في الخارج يا هارون وامرأتك راقدة.. وابنك أين يكون، يمكنك مئات المرات

إلقاء خطب رائعة، يجب أن تفهموا أن الله مع عباده الصالحين، يجب.. يجب.. ماذا؟ استنقذه محسن:

- متأسف يا عمي..

- علام تتأسف.. كلنا نتخبط في هذه الظروف..! كيف لم يتصل..؟

وقف وجه الشيخ في محيط ابن الربيعي. شرع الرجل يتأمل الشاب الهادئ.. لم يتغير شيء. كلما رآه علق مشاهدته على شعر الشاب الناعم الطويل والمكبوح خلف رأسه، ويوغل الرجل، غالبا دون تعمد، فيتتبع الوجه المسحوب الأبيض؛ بياض لوح زجاج أملس، ومثل أي إنسان يضمر لشخص ما إحساساً مبهما، أساس الإحساس هو نفسه ما يعمل على بقائه "العينان الضيقتان" دوما يفهم الأب أن تشابها قائما بين عيني ابنه وصديق ابنه، فقط حين ينظر في أغوار محسن يعود خائفا.. يقول ربما بسبب الغموض الساكن هناك.. قال محسن:

- عدم اتصاله ليس شيئا.. لو حدث شيء لاتصلوا هم بنا..

تحسس الرجل لصدره، ونقره مرتين.. مع ذلك لم يصرح لابن الربيعي بما يعتمل داخله!

- إنه سليم.. ربما كان في مكان آخر وقت الحادث..

وتطلع الشاب إلى بنطلونه القديم، وحدق في حذائه المتهرئ.. وأضاف..

- سيعود.. ما يقلقني مرض الحاجة أم إسلام..
- اتصلت بالفنادق، أي تليفون وقع في يدي اتصلت به..

حاول الرجل أن يتجنب بعض الشيء الوقوف أمام هرم حياته الأصم. تساءل ليبعد قليلا..

- ألم تجد عملا بعد..؟
- وجدت أختي..!
- والربيعي..!؟ الرجل العنيد ما يزال يضايقك؟

صمت محسن..

أحس الأستاذ هارون أن لعابه يتدفق في فمه..

- والشعر..؟
- ما يطرحه على الخوف أكتبه وأدفنه في الدرج..
- ثلاث سنوات ولم تتس..!؟

قبض محسن على شعره بيده، محولا عينيه بعيدا عن النظرة الثابتة من الشيخ، أحسها عمودا من ثلج يخبط في رأسه، تشبث بالكف المعلقة على الحائط، والمجدولة من سنابل القمح، شعر أن مطر الضوء المنهمر من اللمبة يغرقه بنفس الكيفية التي يغرق بها الكف المصلوبة ونهض مقررا ترك الشيخ. تعلقت عينا الرجل به وانتبه أن الشاب لم يعد يجلس.

- ابق.. أستاذك محتاج لأحد يجلس معه..

مستشعرا العوز في عيني مدرس التاريخ مكث، أكثر

قلقا. انفلت لسان الشيخ حاكيا:

- دخل مدرس التاريخ أثناء الشرح، قال للأولاد اقرءوا الدرس مرتين، وسحبني من ذراعي إلى ركن بعيد، سألني إن كنت عرفت..؟ وأمام رغبتي أن أعود إلى الأولاد إذ أن الوقت يمضي وكلانا هنا جالس، قال: دع الأولاد..ألم تعرف أن..!! وقتها يكتشف الأب أن ابنه لا ينام كل ليلة في حضنه، وأن هذا الابن منذ شهور غير موجود، تعرف يا ابني الأغرب أنني تقريبا نسيت ابني، سامحني يا محسن، يخطر لي الآن أن أقول أشياء حقيقية، حقا، أنا لست أفضل من الربيعي، هو يضايقك لكنه لا يكف عن الاهتمام بأمرك. عدت إلى البيت، في الطريق فكرت آلاف المرات.. هل أخبرها مرة واحدة، وماذا سيكون كلامي، ولكن أم حازم سبقتني، كانت أشجع مني..!

- سيعود بإذن الله..

- سيعود بإذن الله..

نفس الجملة خرجت من بين شفتيها، وقفت ولم تحتمل أن تظل واقفة تنظر حولها، ظلت وقفتها تلازمني طوال النهار. في عيني مباشرة نظرت، قلت ستسأل ولو فعلت ماذا ستقول يا هارون، حولت عينيها إلى ابنتها، تعلقت بها، أشعرتني أن أم حازم تعرف أكثر مما أعرف، في ثبات قالت أجلسوني،

أغمضت عينيها، قالت حنان "سرقت.." كان كتاب الله جوارها.
لما دخلت كانت جالسة في الصالة، قالت حنان.. كانوا يرشون وجهها بالماء، وأردت أن يخرجوا.امتلأت الصالة بهم.. حنان همست ويدها فوق كتفي"تعال يا أبي.. لا تقلق.. هي نائمة الآن..".

لم يرد محسن أن يظل هو الآخر مسروقا من الصمت، قدم شيئا، أليست هذه عائلتك. يفكر.

سمع الشيخ صلصلة البوابة الحديدية، ترك محسن مطأطيء الرأس وخرج..

- تفضل يا حاج..
- يا ساتر..

خلع المداس أمام باب الشقة، نظر محسن إلى قدمي أبيه الهامدتين فوق السجادة، ما الفرق بينهما وبين قحفين متجلدين من نسيانهما في العراء. كان الربيعي ما يزال يحدق في قحفيه أثناء تهارشهما، يعرف محسن أن أباه لن يبدل طاقيته الصوف القديمة مبرومة الحواف، إلى أن عاد الشيخ تاه محسن في درب رآه طويلا وفي نهايته ليس أمل. يعلم الربيعي أن لحظات تمر ويرجع الشيخ، رفع وجهه والطاقية أعاد كبسها، رأى ولده..
- أنت محسن..

كان محسن قد وقف ومر من أمام أبيه دون قول أي كلمة، كأنما نسى الحاج الربيعي كل شيء، إذ أراد ألا يلتفت إلا لما جاء من أجله. انتظر إلى أن انتهى الشيخ من كلمات الترحيب تنفيذا لأوامر امرأته، اعتقد الشيخ أن الربيعي قال لابنه شيئا أغضبه، أو أن هناك، في البيت، في القرية، سببا جعل محسن يستأذن!! الربيعي ما يزال راصدا كوب الشاي فوق طبق منخفض في المنتصف، اتفضل يا حاج.. نسى هارون كم مرة كرر الجملة والرجل لا يحول عينيه عن المنضدة أو الكوب..؟! لم يصدق ما يسمع بأذنيه.! أجهش الحاج الربيعي في بكاء طويل، جذعه الممتليء يهتز، ووجهه الملوح من الزرع والقلع تقلص، يبكي محاولا كبح نفسه ويفشل، البكاء حقيقي وأكثر.. لوان تلميذا في الفصل لأوقفه الشيخ عنوة. ماذا يفعل مع رجل مثله"؟، بدا الشيخ حائرا.. فكر أن الدنيا مليئة بالمشاكل ولماذا يظن أن غياب ولده مشكلة، ولماذا لا يتصور أن الحل قادم.. ومعه الإنفراجة وماذا عن مرض زوجه، كل بيت يحوى مريضا..

- ماذا بك؟

تطلع إلى وجه الشيخ، ومسح عينيه بكفه.. ثم بكم الجلباب طاف مرة على كامل الوجه..

وانفجر حسبما شاهد الشيخ..

- قلت لأم محسن وأيمان الله أبيع البهيمة. الجاموسة الكبيرة وأبحث مع الشيخ عن ابنه.. نروح قبلي، نشرّق ونغرّب، لا يمكن نرجع من غيره..

ضحك الشيخ فهدأ الحاج الربيعي قليلا.. وليطمئنه أكثر قال..

- هو إسلام ضاع يا حاج..؟!
- يومان أو ثلاثة لم يرجع يبقي إيه..؟
- في الشغل.. هيرجع..

رأى الشيخ وجه الرجل ينبسط والتجاعيد تلمع مثل خيوط يجذبها طفل أرعن..

- لما تعوزه وما يكون في حضنك يبقى ضاع..

ضربة شاكوش فوق الرأس، عرق ينفض بشكل يقارب الدخول في الهذيان. بعدها تمني أن يغمض عينيه وحين يفتحهما يكون بمفرده.. لجأ إلى حيلة الاستماع..

- أمال. لم أنس.. علم ابنك يا ربيعي، علمت، ابنك يحب العلام، ابنك أشطر من ابن الشيخ، ابنك لا يفارق ابني، هذا كان كلامك. سأبيع البهيمة، ندور ونلف البلاد، ومعنا محسن، يعمل حاجة نافعة.." والا إيه"؟!
- في صلاتك أدعو له..
- أنا..؟ الأب دعوته مجابة، وأنت شيخ مسجدنا..

رأى الربيعي أن ينتهز الفرصة، رفع كفيه. دعا وابتهل أمام الرجل، بصوت مرتفع، يرن في الصالة، أحس الشيخ بهدوء وسكينة!!

- ٤ -

كان قد رفض حين سألت ابنته إن كان من الأفضل فتح غرفة إسلام وتنظيفها أم تنتظر!؟ لم يفهم سبب هذا السؤال، كانت أمها نائمة،لا تدري بما يدور حولها، وابتعد عن العثور على السبب الحقيقي وراء السؤال. قال لابنته وفي حزم أن شيئا لن يتغير طالما هي نائمة. أذعنت حنان، ابتعد عن الصعود إلى الغرفة المغلقة والتي تقف فوق الطابق الأرضي بنافذة وبلكونة تطل على الشارع الترابي، غير أن الشيخ لم يرتح إلا بعدما بلط السطح أمامها وجلب أصص الشجيرات وورود الزينة. كان المساء في هذه الليلة يتحرش بالقرية، مدججا بظلام وبرد وسكون وغموض. لم يهدأ الرجل فاندفع إلى غرفة امرأته. مثلما توقع رأى حنان وزوجة المتر. امرأته غارقة في قاع الفراش، الوجه طاف ومسنود بوسادة حمراء طويلة. خرطوم في لون المشمع وثقب في الذراع..

الأستاذ يتابع تقاطر المحلول. إلى أن انتبهت حنان، كأنما انسحبت من غفوة..

- بابا ..

- أمك تحب القرآن..

- قرأت البقرة وبس!

التفت إلى أم أمل (زوجة المتر).. المرأة بدورها ثنت ظهرها لتتحدث إلى الأستاذ، كانت جالسة بجوار الفراش، يدها الصغيرة تظهر من كم جاكت من الشاموواه الأسود، واطمأنت أن التحجيبة في مكانها، وليس ثمة شعرة تطل من أسفلها، فهمت بإماءة ما ترغب في فعله ابنة الشيخ..

- تحدثنا في الموضوع أنا وأم حازم.. ونريد أن نعرف..

حاول الشيخ أن يكون مفيدا.. فقال..

- سأفعل من أجلها أي شيء. إن كان الأمر خطيرا قولا..

رسمت المرأة الابتسامة.. وقالت..

- أردنا أن نعرف ماذا قالت وهي نائمة.. لم نفهم كثيرا..

تدخلت حنان فرحة..

- تغني ح.. حبيبي.. حضني.. عروسك..! دوما تغنيَ وأحيانا نفهم ما تقول..

وقال الرجل وهو يتأهب للخروج..

- سمعتها مرة..!

رن جرس الباب. عاد الشيخ وخلفه أمل. قبل أن يختفي بقامته الفارعة وكتفيه العريضتين تذكرت أمل أن أباها خلفها،

ولولا أن ظهر وجه عمها هارون ودفعتها ابتسامته لانتظرت، لم تعرف ماذا تفعل إذ نادى فلاح من داخل البيت أو هرع إلى أبيها.. لم تجد جديدا في ظهور رجل يطلب استشارة أو ربما لديه قضية عند أبيها، لذلك رأت أن تستمر في السير خاصة أن بضعة أمتار تبقت وتصل بيت الست أم إسلام.. قالت..

- أبي معي..

ارتد الشيخ، وجد المتر قادما وسط الشارع بعد أن أنهى مع الفلاح حديثه..

- هوس السفر يا سيدي..

تذكر المتر شيئا، ظل واقفا وسط حجرة الضيوف. بعد دقائق استعاد روح الإنسان الذي جاء بسبب واجب، أمسك صلعته التي توغلت إلى منتصف الرأس من الأمام، ورأى الأستاذ عينيه الجاحظتين مشوبتين بحمرة داكنة، أسرع وأحضر منفضة السجائر متذكرا أنه تخلص منها بعد مغادرة الزملاء بيته. حمد الله أن المتر لم ير الحاج الربيعي في البيت، يعرف الشيخ أن الربيعي لم ينس أبدا أنه ذهب إلى المتر، مستغيثا، إلى مكتبه في المدينة حمل هلع الأسرة، وإحساسه أن ولده محسن ضاع. ظل المتر يسمع وهو هادئ، يدخن ويشرب القهوة، وحسب حكاية الربيعي كان يجلس كأنه ليس من القرية. حين ذهب الرجل أراد أن يعرف أين يكون ولده، هل في حبس

تحفظي مثلما قالوا، لم اعتقل بسبب شيء لا يفهمه، وأين يكون، قال الفلاحون، عليه بالمتر. بعد أن سمعه لم تتحرك له عضلة قال للرجل وماذا أفعل لشاب مجنون؟! من يظن نفسه، هل يغير الكون. عاد الرجل خائبا ضائعا، ذهب إلى صديق العمر. الشيخ. وسمعه الرجل وطمأنه. الشيخ يحمل لهذا الرجل حبا كبيرا ومنذ أن رآه، منذ زمن بعيد، يعشق عمله. لا يجلس على مقهى مثل الآخرين. يريد صنع شيء لأولاده ولا يعرف كيف، وبعد أن ساعده في تعليم محسن، كيف لا يتحرك. ذهب إلى المتر. والمتر كان يعرف أن الشيخ سيفعل. وهو يحاول الدخول في علاقة ما مع الشيخ. إحساس خفي يقول له أن كل إنسان في القرية يعرف من هو الشيخ ومن هو المتر ولو اتصلت الخيوط لارتاح المتر وتحرك في القرية مثلما يريد. لم يطمع في أكثر من هذا. فعلا ساعد الرجل وأخرج محسن من الحبس. ولم يسأله عن القصيدة.. ولم يقرأها..! غير أن الربيعي حمل هذا العمل كضغينة، شكة في حلقه كيف يرفض رجاء أب، ولا يعبأ المتر بهذا. حمد الشيخ ربه أن الربيعي خرج..! ينظر المتر إلى الرجل المتعب، كلما تطلع إليه أحس أنه يواجه صراعا باطنيا عن طريقه سيرضى المتر.. وخلعه بعد هذه التصورات بعيدا عن مكتبه وبيئته فقال..

- أجلس يا أستاذ هارون.. لا تشغل بالك بأمري..

تحدث المتر طويلا عن أهل القرية، عن أناس لا يعرفون ماذا يفعلون مع أولادهم، وعن القضايا التي توضع أمامه.. وأكد على أن الفلاح البسيط اختفى..حتى مشاكله البسيطة لم تعد شيئا في وجود جرائم الشباب، الشباب صاروا بلطجية.. ويؤكد على الكلمة..كيف نحمى الآباء وفجأة طرح سؤالا..

- ترى ما سبب تشجيع الآباء لأولادهم على السفر..؟!
- سفر..؟
- إنه هوس السفر..

وبدا جحوظ عينيه مرعبا..

أمكنه الزج بالشيخ في الموضوع، غير أن المتر أحس أن الرجل ليس معه بكل حواسه، وعيناه تزوغان عنه للحظات، وكلما تحدث المتر نظر إليه، وعاد الإلحاح.. فكر المتر عبد الصمد أن ما يطرحه ليس كامل الوضوح، بعد أن سحب دخانا كثيفا ونفثه مرة واحدة..

- أتعرف كم شابا من هذه القرية في فرنسا..؟
- لدينا شباب في فرنسا..؟!
- مائتان وخمسون.

تعكرت زرقة العينين حسبما رأى المتر.. لم يعلق الشيخ..

المتر :

- يبيع الفلاح بهائمه.. وأحيانا داره بعد أرضه.. للتخلص من ابنه..
- ولماذا يتخلص منه؟..
- لست معي يا أستاذ..
- سامحني..
- أنت بسبب غياب ولدك تتمزق.. لكن الفلاح يقول: أدفع ليسافر أفضل من أن يبقي في داري دون عمل، ونسى أن الأولاد يعودون جثثا؟
- كيف؟
- العام الماضي لم يتقدم للعمدية أحد.. لماذا؟ كل صباح مصيبة. سرقة، تهديد النساء بالمطاوي والسطو عليهن.. ومجموعة من الكوارث..

نظر الشيخ إلى الرجل شاعرا أن مصائب العالم تعرض عليه كل صباح.. أفلح أن يزحزحه بعيدا عن عالمه الخاص الضاغط. سأله فجأة..

- ماذا يشرب..؟
- قهوة سادة..

دون تفكير.. ولصق طرف السيجارة في العقب المتوهج.. دسها في فمه مثل ثمرة ناضجة ومحي معالم العقب في المنفضة..

أراد بعد أن نظر حوله مرات رؤية الست أم إسلام، جلسوا جميعا حول المرأة الغائبة عن الدنيا.. أمل بجانب أمها.. وحنان طرحت فوق وجهها النقاب.. وظلت صامتة بينما المتر يسيطر على اللحظة بكامل عدته.. من عين ويدين وحركات ذات تعبيرات مسرحية من كامل الوجه..

ثم غادرهم أيضا فجأة وقد شعر أن قاضيا ينتظره ليعلن حكما بالموت على إنسان ما.. قبل أن يودع الشيخ قبض على يديه.. بدا أقل طولا من هارون الأزهري..

- ستأتي معنا..

- أعرف أولا ما هو المطلوب مني..

- كما قلت.. يجب أن نمنع سفر الأولاد..

جاء همام.. جلس دقائق.. أخذ امرأته في يده. أرأيت كيف كانت نظراته تتسلل إليك، أعنده حق؟!

تركتك ابنتك وتركت أمها..؟

طبعا.. لها بيت وولد..

عظامك لا تحتمل برد نوفمبر..!؟

كبرت؟!

لم تحتمل الضربة..أنت تتكمش على نفسك..!؟

احتمل يا هارون..

لماذا جاء المتر؟

هل دفعت ابني للسفر؟

لا.

لا.

أنت تبريء نفسك..

نعم. نعم.

لف جسده بالعباءة السوداء وسحب المقعد لتظل يداه مبسوطتين بجانب رأسها.. فكر أن انتصاف الليل يدخل الجسد مثلما يخترق شهاب كتل الظلام.. الطنين الطويل ماكث!! مدرسون.. أنصاف وجوه، أرباع جمل.. شذرات من النهار الطويل.. البرد الذي تسلق الجدران منذ شتاءات مضت كمن لك، انتظر هذه الليلة.. علم أنك لن تقاومه.. لن ينفعك إنكار ذاتك.. ويفيق ويعاود البحث في وجه امرأته..!

رأى المتر عبد الصمد خارجا من بناية مرتفعة لها جدران سوداء، نظر حوله، وجد نفسه ما يزال منتظرا أمام بيته، خلفه سور الحديقة البور. فكر أن يكون السؤال: لماذا جاء إلى هذا المكان؟ رأى البناية تدخل في ضباب دخاني وفي الأسفل ماء كثير.. قال المتر: اطمئن.. ولدك ليس معهم.. سأل

المتر: ماذا فعلوا؟ قال بنبرة لم تعجب الشيخ.. أحس فيها التشفي..: ألم أقل لك..؟! وجد نفسه جالسا هو والمتر داخل غرفة واسعة؛ حولهما دائرة من الفلاحين، وفي هدوء فعل.. وظل باركا إلى أن لفظ الرجل أنفاسه.. كان سعيدا، منتظرا رد فعلهم، ظن أن التصفيق يأتي من حوله، من كل مكان. رفع رأسه وهو متأكد أن المتر فارق الحياة. لم يجد أحدا. العاصفة تأتي من بعيد لها صوت آلاف الثيران. يقترب الصوت. كان الضباب هناك والبناية العالية بلون أحمر دموي.. فجأة رأي سيقانا كثيرة ملتحمة، وقف وصرخ، تأهب أن يركض.. حين اتجه إلي بيته رأى فتاة.. تقترب، عن أسمها سألها، قالت: أمل!! وضعت يدها فوق رأسها.. أخذها في صدره، حين فعل صرخت: الدم..!

طمأنها قائلا: لا تخافي، في الليل نظن الماء دما. كانت تتراءى له بيضاء مثل بخار الفجر، واكتشف أنها في ثوب الزفاف. وأنه تأخر عن مهمة جاء من أجلها. تركته وراحت تركض. تنادي: دم.. دم..! عاد الخوار من بعيد.. يقترب.. بحث عن بيته إذ تذكر حديقته، فيها ملاذه. عدي. رأى سورا مرتفعا. حاول الصعود. كان يرتطم بالأرض، وراح يعاود، وينادي.. إسلام.. أم إسلام..

- هارون.. هارون.

ولم تستسلم للشيء النابش في الفخذين، مع الوعي برؤية محتويات الغرفة أرادت أن تطمئن أن الصداع لم يعد له أثر، وأن الرأس التي ستلمسها رأسها،آلمها جلد يدها.. رأت الخرطوم وأيقظت هارون. كانت لا تعرف في أي ساعة سقطت، ولا تعرف الآن هل ليل أم نهار، حيث ترى الغرفة والنافذة مغلقتين، ناما واللمبة مضاءة..همست لنفسها.. نادت مرة ثانية:

- حنان.. هارون..

فزت ابنتها في لهوجة تتعثر في النعاس، هزت الأب، فتح عينيه، وجذب العباءة من تحت ساقيه، حمد وسبح، وأمسك يدي امرأته. قال لها أن ليلتين بيومين مضتا وهي نائمة. ستقول هنا يؤلم، هنا يسرع الوجع، رأسي. مكان الإبرة.. وانتظرا.. لم تقل. ظلا يحكيان.. يتبادلان الكلام. تعافت ولم تتغلب على ثقل اللسان. يتابعها كلما قلبت وجهها في الغرفة وفي وجه ابنتها.. وتساءلت بصوت خفيض.. لكن.. ملفوفا في أسى وصاعدا من بلل روح مهدودة أو غارقة في سماء معتمة..

- لم يرجع..؟!

- سيرجع..

لما قال لمحسن هذه الكلمة ظل يعيدها، يفكها ويعيد تركيبها، لم يصدق الهاتف القائل إنه يخدع نفسه، داخل الأب منطقة خاصة جدا، ربما لا تخص صاحبها، ترصد الأحداث المتعلقة بالأولاد.. في الأزمات تخبرك بالحقيقة مجردة.. اسمع مجردة! ويعيد على نفسه، اتصل بالفعل، وسأل كل من يعرف ابنه، إن زميلا قديما من زملاء التدريس، أو أي إنسان له علاقة بالسياحة.. ذهب إلى الأولاد في بيوتهم.. استقبلوه مرحبين بأستاذهم. معظمهم كان تلميذا في مدرسته. كانوا أربعة أو خمسة..

نسى تماما الخوف على ابنه. فقط يتذكر كيف قابلوه، وجوههم مرتبكة من أثر الدهشة.. لم يتوقع أحد أن يأتي الأستاذ مدرس أول التاريخ يطلب شيئا.. حتى ولو كان مجرد السؤال..

- أنا أشتغل في الغردقة..

- وآخر قال..

- أنا أعمل حارسا في شرم الشيخ..

يبتعد غير مصدق. كلهم عادوا. رآهم مطرودين، يحملون إهانة أو ضياعا، والأكثر أنه أحس أن خوفا بشعا يتملكهم. الأربعة أو الخمسة أبدوا حزنا وفي نفس الوقت عجزا،

تمنوا أن يفعلوا شيئا من أجل ابن أستاذهم.. قال أحدهم..

- ليتني كنت معه..

لم يفهم الأستاذ.. فقال الشاب بشكل أشعر الرجل أن الولد فقد شرفه..

- على الأقل ما كنت هنا الآن..

وبعد مرور اليوم الثالث كان رقم أحد الفنادق في جيبه. عمل بنصيحة مدير المدرسة "الريس" اتصل وسأل..

- لو جئت يا بني هل أجده..؟

رد المتحدث بشكل آلي..

- تجد من يا حاج البلد فاضية..

أين هو إذن؟ أعلنوا عن أسماء المصابين، وكان يحتفظ بالصحيفة. قرأ اسم المرشد عشرات المرات، وقرأ تعليق الصحفي: المرشد الوحيد الذي قتل شهيد عمله..!

حتى المصابين ليس من بينهم.. أين؟ لهذا راح يردد الكلمة"سيعود. دسها في قلبه لتنبت له الأمل، وحين جالت "الأمل" الآن في رأسه، وثبت ابنة المتر. ترك امرأته وابنته، وخاض في خيالاته وأوهامه، وجه أمل المربع الأبيض، لم يقف عند قشرة الصرامة أو الجدية. هو لم يحدد كيف تبدو؛ لكنها ابتسمت أمامه مرة. تخيل أن مجرد ربطها بأفكاره فأل حسن، ولم ينس أبدا أن واقعيته أو نسقه الفكري، دوما عرضة للتفنيد؛

إذ هو أكثر من غيره يعلم أن لجوءه إلى الفأل الحسن والتطير يحتل جزءا من وجدانه، وتذكر فعلا أنه صباح الحادث استيقظ ورفض الذهاب إلى المدرسة، لم يقل لزوجه إن كان كابوسا أو حلما مزعجا أو وهما..

اغتسل وصلى وانتظر أن يكون "هارون"الذي يذهب كل يوم إلى مدرسته نشيطا.. يحمل الحقيبة الجلدية السوداء، ويترك البيت لامرأته؛ وهي تظل تنصت إلى القرآن.. في المطبخ، في الصالة، في غرفة النوم.. لا ينقطع الترتيل، تكون نفسه هادئة، ويري في الطريق سائرا في خطى بطيئة، يرد التحية أو السلام "ليس في الكون أبدع من الهدوء والسلامة". ولا ينسى أن النظرات فعلا تتجه إليه.. في نهاية الأسبوع تأتي خطبة الجمعة.. "ولديك يا هارون ابنة منقبة"،ويكون قد اقترب من الكوبري.. وإن قابله أحد تعكر صفو تفكيره، أو ولج شروده ما يشبه سارينة، للحظات يبعد وجه همام عن سماء رؤياه..! لذا وقف عند وجه أمل يكون حزينا، مكتئبا، صارما، يكون ما يكون.. لأنها الأمل. وراح يتطلع إلى وجه زوجه..أراد أن يشجعها..

- أقسم لك أنه عائد..!

صمت. بعد برهة قالت حنان إنها عائدة إلى البيت.. وفي الغد ستأتي وحازم معها ليرى جدته.. لم يعترض الشيخ

لأنه لحظ أن أم إسلام تكظم داخلها شيئا تتحرج منه أمام حنان..

ما إن خرجت.. سألت..

- هل أظلمت؟

- لم يؤذن العصر..

طلبت أن يفتح النافذة وأصرت قائلة إنها لم تعد تشعر بألم. جلس زوجها بجانبها..

- لو لم أنم وأمرض ما عشت هذا الحلم..

- أي حلم..

حكت : أم حازم على يميني وإسلام على شمالي، أبو حازم يقف بعيد، ينظر إلينا من بعيد، أنادي عليه، تعال أجلس معنا، يرفع يديه وينادي، يقول ونحن لا نسمع، أم حازم تحثه أن تعال.. حازم معنا، عم تبحث، وإسلام جواري، ملتصق بي، يده على كتفي، يقول أشياء وأضحك، يحكى عن أناس قابلهم وجلس معهم وأكل عندهم.. الغريب يا أبا إسلام هو قوله إنني لا أعرفهم، هم يعرفوننا جيدا ونحن لم نرهم، أسأله إن كانوا رأونا.. يقول.. لا.. لأنهم يعرفون عنا كل شيء، كل شيء يا أمي، كان سعيدا وجهه مثل بدر، عيناه تسأل عنك، يشير إلى همام، وهمام لا يراه. وبعيدين.. رأيت الحديقة كلها ورود وأشجار عالية خضراء.. ودخل الحديقة.. اختفى، رأيت ضبابا كثيرا مثل سحابة كبيرة، يغطي البيت كله، بكل قوتي ناديت.. يا

إسلام ولم أجد حنان، أتذكر جيدا أنني رفضت أن أبكي.. جريت.. وقفت على درجة السلم الأول.. أشجار خضراء وزهور حمراء صفراء زرقاء.. ألوان جميلة سمعت صوته.. كلمته وقال لا تخافي يا أمي أنا هنا في حديقة بيتنا، جئت لأن أبي زرع الأشجار، وغرس هذه الورود، عدت لأن الحديقة خضراء. كنت سعيدة، أرقص.. أغني.. قال أختي هنا معي.. ادخلي.. تعالي.. قلت بصوت قوي وبعزم.. أخرج يا إسلام لأمك.. تعال يا حبيب أمك.. حضنك هنا (بكت في هذه اللحظة).. وجاء يا هارون.. تصور شكله.. ومع من؟.. لا لن تقدر.. جاء لابساً بدلة بيضاء..

وفي عنقه عقد كبير من الفل الأبيض..وفي يده عروس.. كلها أبيض في أبيض.. زغردت.. رقصت مرة ثانية.. وفجأة رأيت محسن (اندهش الرجل لذكر ابن الربيعي).. لا تندهش.. أنسيت أنهما أصدقاء.. أخان.. العروس في يده.. وابن الربيعي على يمينه.. لم أعرفها في البداية.. مع ذلك أخذتها بين ذراعي.. قبلتني.. قالت أنا عروس إسلام.. ألا تعرفينني سألتني..! كنت أعرفها.. رأيتها مرة ونسيت وجهها.. من قريتنا.. ولكني يا أخويا كنت نسيت أمل.. لما رفعت صوتي وناديت جاءت نظرت لابن الربيعي ولم تقل حاجة. لكنها مشت.. وأنت عارف.. المهم إنه قال إنه لن يسافر.. جاء ولن

يتركني.. لن يترك أمه.. جاء وعروسه في يده.. حضن أمه..".

حاول الشيخ إظهار سعادته، أفهمها أن هذا الحلم بشرى طيبة، حثها أن تعود إلى النوم يلزمها الراحة كي تتعافى بسرعة، إذ يجب أن يعود إسلام وهي في كامل صحتها، وضحك مظهرا ثقته التامة في عودة ولده..

لم تكتف بحكي حلمها لأبي إسلام، انتظرت إلى اليوم التالي حتى جاءت حنان، ما إن ظهرت في الغرفة - لم تنتظر أن تخلع النقاب وتتوضأ لتؤدي فرض الظهر - وحكت قائلة: إن سيدنا يوسف حلم وتحقق حلمه، وإبراهيم عليه السلام نفذ أمر ربه مصدقا كل ما رأى في المنام.. لم تقف طويلا أمام كلام ابنتها، كانت جالسة في منتصف الفراش، انتزعوا إبرة المحلول من ذراعها ومشت موجه شفيفة محملة بدم الحياة في بشرتها، استطاعت الدخول في جدال، لكنها أغمضت عينيها وصدت حنان الواقفة بنقابها: رؤية أو حلم.. المهم أن ما رأيت يحمل البشرى.. وافقتها أم حازم وبعد مرور فترة من الحديث عن إسلام دخلت عليها أم أمل في عقبها ابنتها. رأت المرأة جالسة فهللت وقبلتها وظلت أم إسلام صامتة تحدق في أمل ولا تحرك رمشا أو تنطق حرفا.. قالت أم أمل..

- صممت أن تراك وتطمئن عليك..

رأت أم حازم أمها تفتح ذراعيها وتنظر إلى أمل فحثت

بدورها الفتاة فسكتت أمل بين ذراعيها.. رأت زوجة المتر المنظر فابتهجت وتصورت أن هذا دفء في حاجة إلى وقود.. فقالت..

- أنهت الكلية وبقت أستاذة وتتكسف..!!

أم حازم تركت زوجة المتر تبحلق في وجهها بعد أن خلعت النقاب وعادت مشمرة كمي الجلباب الأسود الشبيه بالعباءة وناحية ابنتها نظرت متسائلة:

- وتسلمت التعيين؟

كأن الابتسامة فلتت منها.. قالت أمل ..

- سأصر على التدريس مع أن أبى يرفض..

للتوضيح تحركت الأم ناظرة إلى أم إسلام..

- أنا غير مصدقة أنها خلصت تعليمها. المتر لا يرى غير الجرائم. جايز عنده حق ثم بعد صمت أضافت..

- قال لها طول ما أنت في بيتي لن تشتغلي. لما تتزوجي الأمر لزوجك..

جاء الكلام على هوى حنان فقالت..

- عمي عبدالصمد يخاف ربنا..

مالت أم إسلام على أمل وقبلتها، بوغتت الفتاة؛ لكنها أفلحت أن تداري دهشتها، غير أن المرأة أحست بها ومن ثم ربتت على ظهرها، وتطلعت إلى أم أمل ملء وجهها الفرحة

مستشعرة وجود ابنها إلى جوارها. أنصتوا لدندنتها غير مصدقين.. صوتها خفيض دافق صادق "يا وابور الساعة اتناشر يا مجبل علي الصعيد.." قطعت أم أمل خيط الشجن وقد لف المرأة الجالسة أمامها، الخارجة من أزمتها، وتعمدت أن تبعدها عن هذه المنطقة الوعرة فقالت:

- نحمد الله أن سفره قريب.. ثلاثة بيوت في القرية..!

نظرت حنان إلى المرأة لتصمت، ندمت أم أمل. حاولت الخروج من الورطة لكن الأم سألت حنان ابنتها.. قالت حنان وعيناها مغمضتين شاعرة أن دخانا لافحا يخرج من أنفها..

- أولاد فرنسا الثلاثة غرقوا.. هكذا قالوا..

- يعني إيه؟

أكملت أمل:

- بابا قال إن عشرين من محافظات مختلفة غرقوا وهم في طريقهم من ليبيا إلى إيطاليا.. وثلاثة منهم من بلدنا..

- ولم يجدوهم.؟

سألت الأم..

قالت أمل..

- عادوا جثثاً..!

- جثث، جثث..؟!

مع اختفاء قرص الشمس بعيدا وسط الأرض الخضراء المنبسطة خلف البيت انتظرت حنان قدوم زوجها. كانت قد جلست مع أبيها. الرجل سمع ما قالته الابنة، لم يرد شرح التفاصيل لأن المتر جاء ليذهبا إلى الثلاثة بيوت، وقال لابنته وهما منتظران في حديقة البيت الخربة.

- ثلاثة توابيت سوداء.. ألقوهم أمام الدور، النساء ملأن القرية عويلا ونحيبا، القرية ستخرج كلها في وقت واحد.. يحملون ثلاثة نعوش معاً.. القرية تفقد أولادها.. لماذا؟ لحساب من؟

سألت حنان..

- صحيح عبروا البحر بطريق غير شرعي..؟
- للبحر لصوص.. ضحكوا عليهم..!
- وكل واحد فقد ماله..
- الفيزا إلى فرنسا وصلت ثلاثين ألفا..

لم تفارق الشيخ صورة ابنه وهو سائر جوار المتر. صلوا على الأولاد العشاء وجاءت وقفته في صلاة الجنازة بين المتر والعمدة الرافض للعمدية. ضاق الطريق بالمشيعين، ترى أين أنت يا إسلام، هل نائم، أم.. هل مريض؟ أنت في هذه الدنيا أم في عالم آخر..؟ هل جائع أم شبعان ومثل طائر غريب عن المكان حلق الشيخ مخترقا سحب الغبار، نافذا إلى السماء النائمة في صمت الليل، يده في إبط المتر، تصل الأصوات مثل نداء

أخير وسط صخب عال. قالوا إن الشيخ بوصفه خطيب المسجد والمتر بوصفه المرجع لكل صغيرة وكبيرة في القرية.. يسيران في مقدمة سرب يتجه إلى مقابر فتحوها في النهار، وها هي تتلقف ثلاث فراشات، لم تشم بعد رائحة الزهور في فصل الربيع.. يفكر ويحاول أن يبتعد عن هذه الأفكار.. قرر أن يعمل شيئا، لن ينتظر إلى أن تبتلع البحار كل تلاميذه، "البحار البعيدة أرحم عليهم منا يا هارون، فتحت لهم حضنها".. غابوا عنكم أيها العجزة.. لابد أن أفعل شيئا.. همس في أذن المتر..

- لابد من فعل شيء..

قال الرجل..

- معك..

ومع انتصاف الليل وجد امرأته بمفردها. حدثها عما قررا؛ لكنها بعد برهة سألته وهو متوقع هذا السؤال فيما ظل يراقب جسدها البدين وقد هزل بعض الشيء. قال - لم أنس ابني.. وما سنفعله من أجلك أولا..

- مع عبدالصمد والفلاحين والمدرسة لن يتبقى شيء..
- والمهم ألا يرجع مرة ثانية..
- إلى أين يرجع؟
- إلى العمل في السياحة..

ابتسمت زوجه وراح الشيخ يرنو إلى الوجه وقد تغضن وارتخت الشفة السفلى بشكل مروع، ورأى أيضا بريقا يملأ العينين الواسعتين.. احتفظ بانفعالاته داخل نفسه واجتهد أن يبدو مطمئنا.. وحين سمعها قال..

- أعرف ما تفكرين فيه..
- وموافق؟
- لكن أهي من في رأسي..

وافقت أن تشرب كوبا من الشاي على الوابور مثلما كانا يفعلان في وجود إسلام. أخبرته أن حنان لم تأت هذا النهار وناولته كوب الشاي ومدت ساقيها مسندة ظهرها إلى سور الحديقة، ومع الرشفة الأولى قال الأستاذ هارون..

- انتظرت حنان لأخبرها عن زوجها..
- الآن ينفعنا بعده!
- أراد دخول المدرسة ليكلمني في أمر.. منعوه..
- ربنا يهدي..!
- لكنه يحرجني..

الآن لا يريد استرجاع كل صغيرة وكبيرة. لم يدر بخلده أن استسلامه لابنته ومن بعد لابنه يحوله إلى أب ليس بمقدوره غير الموافقة وتردد أمام نظرات زوجة تلاحق وتصر.. قال إن همام قال كذا وكذا. لا ينسى كيف تشبثت هي برأيها وانتظرت

إلى أن جاء وطلبت الجلوس معه أمام إسلام. وفي حضور الأستاذ هارون سألته الأم:

- ماذا تريد يا بني؟

قال همام وقتها :

- زواج على سنة الله ورسوله..

- وجاهز..؟

يتذكر كل كلمة قالها، كيف كان يرد بعينين مفتوحتين على اتساعهما، ويذكر هذه ال.. التي كان يتحدث بها همام، اعتبر هارون أن مجرد قدومه واستماعه لأم إسلام وقاحة والأغرب قوله..

- العفش والشبكة هذه شكليات..

رد إسلام..

- نحن نتمسك بالشكليات..

ونطق بما ظن الشيخ أن الطرد هو الرد الطبيعي..

- أسألها يا أخ إسلام..

كظمت الأم غضبها، وأحس الأستاذ أن جوف امرأته سينفجر.. فتساءل..

- ماذا تقول يا بني..؟ !

وجاءت القطيعة.. ! اعتبر الأب أن ذهاب إسلام قبل أن تعطي الأم ردا ونظراته إلى الشاب الذي لم يتوقف عن العبث

في لحيته.. والمزهو بجلبابه الأبيض القصير.. كل هذا اعتبره الأب استسلام أسرة بكاملها ورضوخها لأمر أقوى منهم!.. ووافقوا.. تزوجها ولم تنس الأم قول الشيخ: وافقت لتبدأ أيام نكستنا..!!

شربت كوبين من شاي ثقيل أجبرها أن تتلوى وتعود بخيبة أمل بعد طول بحث وراء السحب البيضاء في سماء حديقتها المبللة بغروب قريب. الأستاذ هارون ظل يتخبط في تشعبات رمادية، يدخل ويخرج، ويعود لينزلق في فوهة مغارته الصماء، ورنا إلى أم إسلام..

- يجب أن ننتهي من الموضوع..

- ٦ -

حين يجلس المحامي خلف مكتبه مثل قط متأهب، يرى الشيخ العينين مسكونتين بليل أصم، يرفع وجهه جهة مصدر الإضاءة في الغرفة، القط يثني ظهره في إفراط، أينقض بفمه أم بالعدستين المقعرتين؟! لم يتركه المتر لأنه أراد لنفسه الابتعاد عن التفريط في اللحظة المنتقاة من الكون في عناية..

"أنا معك فيما ترى وابنتي ابنتك، إسلام..؟ ليت الشباب مثله".. ولم ينس أنه خلف دوسيهات لها ألوان تخطف تركيزه بكل ما تحويه، انطلق يحادث هارون، للتوابل في الحديث طعم

حارق. يفعل المتر هذا ولا يترك الشيخ فرصة ليسأل نفسه، لماذا جاء ولأي سبب..؟ اهتبل فرصة أن الشيخ يسمع، رمى بين الجمل المتقطعة رائحة يحبها الشيخ." يكفيك أيها المتر وأنت في مكانك، تسحب الدخان من السيجارة الرابعة، أن تضع حبات الفول في منقار الذكر العجوز.. يفكر المتر"ليس ولدك وحده.. أولاد ترحل طالبة أن تموت، الأهل؟ أنت تعرف أي حياة عاشوها ولا تحدثني عن البلد.. الأمر..لا، دعني أكمل..".. عرف الشيخ أن المتر يعدو،لا يمكنه اللحاق بمثل هذا البارع.. فكر في المصدر الذي يضخ في جسده وروحه، وغرفة مكتبه، كل هذا التوهج..! اتفقنا..؟ نعم يا أستاذ.. مجرد أن يعود! ولفحت الأريحية العقيمة رأس المتر، اندفع ليعبر عشرات المحطات، كلما وصل إحداها حاول جذب الشيخ، يهش ويبش في وجهه ووجوده، بعد ذلك لم يكن ضروريا أن ينطلق وهو معه في نفس العربة.. قال لنفسه:هذا الرجل معي.. لو ذهبت إلى قفص الاتهام يدخل دون تفكير. عند ذلك قاد المترُ الشيخَ، وقاده ليصل إلى الشارع ولم ينطق الشيخ بالمكافأة علانية..

- ٧ -

لم ير القلق ولم يفهم لماذا يرتعش جلد الوجه لامرأة رقدت يومين. وحاول الشيخ التحرر من دخان خانق مسمم يملأ

- فيما يظن - كل مكان في بيته، حاول رؤية ابنته. هل جاءت لترفض، همام فتح ملفات لم يسمع عنها الشيخ ولم يعرف كيف يمكن لإنسان أن يختزن داخله هذا الكم من المعلومات عن رجل مثل المتر.. تركه ينبش في كل المظاريف، وحاول ضبط نبرة صوته حين تلج قنوات أذنه الممتلئة بالطنين،" كان يمكنك أن ترفض دون تشريح الجسد بشكل بدائي" ويعرف أنه سينطلق إلى دكانه، ولولا وجود كائن صغير لم يعد يعرف عنه أي شيء، لقال لهمام.. اذهب.. واهتم بعملك.. قف خلف أجولة الغلال والأعلاف.." كأنها تتلقى ضربات جزاء لعصيان لا يعرف الرجل عنه الكثير. رآها فوق الفراش، يداها شبه مقيدتين، تتوسل عيناها للكائن المفترض أنه ابنتها، الشفتان في هذه اللحظة لم تمارس أي تأثير، السفلى ارتخت، وتعرف أيها الشيخ أن الخط الأزرق في هذه الشفة خارج عن سيطرتها وسيطرتك، وترتعد ولكن ماذا تفعل؟!

- من أين يا بني جئت بكل هذا؟

- لا يوجد محامي نظيف..

- هكذا..

حنان

- وابنته؟ أتعرف عنها شيئا..؟

- ننتظر. ليس لأحد أي حق! هو وحده..

وتخرجين يا ابنة هارون تاركة أمك في دخان معركة غير عادلة. ببساطة تضعين النقاب فوق وجهك، ألم ترى ما رأيت؟ الست هذه حاولت أن تستعطف عينيك؛ لكنك طرحت بينك وبينها نقابا أسود ولم تنتظري لتعرفي ماذا لدي من أخبار؟ كيف سار زوجك أمامك؟. حين تسمع أنه عائد ستنسى هذا الصباح. أنه مثل أي صباح. ولم يتحرك الرجل من مكانه، نسي أن العاصفة هبت لأن الصباح ليوم الجمعة. عاد وأكد لنفسه أن مثل همام كان سيفعل، هؤلاء بشر يهمهم أن يعرف الآخرون أين هم ذاهبون.. وكيف هم جادون؟ حنش يبحث عن مكان نيء يغرس فيه أسنانه. وصمم الرجل على فعل أي شيء.. أي شيء ولا يترك هذه المرأة بمفردها في مواجهة هذا الغبار وقد ملأ الحجرة.

في المدرسة بحث في عيون التلاميذ عن ولده، يراه المدرسون بين الحصص سائرا في الطرقات، أحيانا أمام نافذة، وأحيانا مسرعا في مشيته، الحقيبة الجلدية السوداء تتطوح بجانب ساقه، ويسرع داخلا الفصل. يظل - ولا يعرف ما يدفعه لهذا - محملقا في تلامذة الثانوي، هذا الولد يشبهه، لا، الولد ذو الشعر الأصفر جوار الحائط.. وينتبه فقط إلى أنه هرب من ملاحقته حين يدخل المعارك التاريخية. يتمنى الأستاذ أن تمده الذكرى بكل موقعة حربية.. وفي المنتصف يرى.. يتوقف دون

إعطاء سبب للأولاد.. أي سبب، لكنه أبدا لم ينفصل عن إرادته إن قفز داخل النهر يعرف لماذا؟ ومتى يفعل؟. تكون يداه مقوستين ضاغطتين فوق سطح خشن لمكتب يشبه حجر الطاحونة الغارق في دقيق أبيض، يدقق في وجوه ذابلة صفراء، يبحث عن.. من؟ محسن؟ يطلب كرسيا ويقولون إنه خلفه، وقتها فقط ينتبه إلى خروجه عن سياق الحكي، يحاول التخلص من محسن الربيعي.."اندفع باحثا عن شيء يعيده إلى الخط المستقيم، يمشي رزينا، هادئا، غير مبال، في الطريق موقف سيارات الميكروباص اكتشف أن الخط المستقيم ليس دوما ما يراه هو مستقيما، وأن هذه أيام ولت.. ذهب إلى ابن الربيعي حاملا حديث النفس الذي تم في داخل الميكروباص، أخذه في يده، لا يمكن أن يكون صمته ونظراته الشاردة إلا للبحث عن عصافير فوق أغصان زاهية. سار محسن جواره وحين دخلا البيت تمنى الشيخ أن تطاوعه نفسه ولا ينطق كلمة أمام الشاب. انحصر التفكير فيما سينطق به، وبعد أن نظر ودقق ظل وقتا يرسم الخطوط ويمحوها ولا تفارق عينيه التطلعات التي ملأت وجه الشاب، ويفند أن يكون لديه - لدى الأستاذ - أي رؤية واضحة ينقلها إلى ابن الربيعي.. قال لنفسه إن خبر مثل عودة ولده سيكون أول من يعرفه.. ولم يترك ابن الربيعي يخمن وخاصة أنه سأل أكثر من مرة ولم يحظ بأي اهتمام، رأى عيني

الشيخ الزرقاوين كما هما، ساكنتين، أو غائبتين، هواجس، أوهام، مؤكد لديه ما لا يقدر على إخفائه.. تشجع وأفرغ ما في رأسه، لدرجة أن بعض الكلمات خرجت مثلما تخرج ورقة مبللة من حوض بارد عالقا بها كل البقايا التي كانت فوق السطح..

- تصور.. هذا ما رأيته..
- أصدقك يا عمي..
- ولهذا أقول أن عودته أكيدة..
- صحيح.. أحيانا تغذونا قوى خارجية.. لكنها نافعة..
- أخشى شيئا واحدا لو رفض..

كان الضحى يرتفع في سماء صافية وكان قلب محسن أبعد ما يكون عن الهدوء حين توقف أمام آخر جملة للشيخ "وقررنا أن نزوجه فور عودته.."

- ٨ -

تمني أن يعلن في قوة، لو استطاع ما سار في هذا الجو أخذا طريقه إلى منزل المتر. لم يعد واثقا في أي شيء، ولا فاهما أي شيء، حتى شهر نوفمبر هذا العام يلطمه في عرض وجهه بقوة، يرى وجوه النساء والأطفال متربعة خلف نوافذ

نصف مفتوحة، قال في اطمئنان "كل شيء وصل إلى أكثر من الحافة بقليل، حتى نوفمبر هذا العام يحدق في وجوه الرجال، "ورآهم يسبقونه. لم تهدأ ولم تغضب، وأثناء ارتدائه البدلة وإنصاته للتعليمات لم يتركها إلا وهى فاهمة. كان يضع العباءة ويؤكد لنفسه في مرارة: لا أفهم ماذا سنفعل، ليتني أريحها..! ولما جلس وسط الفلاحين ورأى من عاد من الأولاد لم ترحمه معدته، القولون ينتفخ، يتحول إلى ثعبان ليؤكد لك أن النهش داخلنا، سنظل نطعمه إلى أن.. نعم ولم يبتعد عن أية أفكار سوداء، ساعدوه أصحاب الوجوه المهزومة المطرودة الممتلئة بالحياة، وترك كل فم يضرب في أسوار الحديقة في حقد على أناس غير موجودين، تابع عشرات الخراطيم، تناولوا كل صغيرة وكبيرة في حرفية عالية، ما سمعه أقنعه تماما أن الفلاح يفهم كل شيء، وابنه أكثر فهما، المدرسون فاهمون، التجار، والمتر أكثرهم ألمعية. تشجع الربيعي وجلس بجانب الأستاذ، وحدثه عن صمت ابنه، كان الشيخ مرتاحا لهذه الاستفسارات، كلها تغوص في حرية وبشكل بعيد عن الغيبية. الربيعي حزين ويفهم الأستاذ سر هذا الحزن: لديه الحق.. كيف لا يدخل محسن على قلبه بهجة ولو مختلسة من ذات شاعرية!

قال المتر: اسمعوا.. الأمر خطير، يمكنكم الانتظار سنوات دون أن تكلفوا أنفسكم مليما، من ينقذكم إن فعلتم، كم

شاب في فرنسا، وكم شاب يسعى ليسافر، وكم تدفعون..
الأسماء مدونة لدي، حسبت ما خرج من هذه القرية،
أتفهمون..؟ ٢٥٠ ألف جنيه!! هذا الرقم لو ظل هنا، لن نجري
وراء سراب، يجب أن ننهض بما نحن مكلفون به.. رقم واحد:
نسد هذا الباب تماما.. لا مليم بعد اليوم.. اثنان من لديه الرغبة
في السفر يأتي إلى بشرط (رأى هارون الرؤوس تحك في
أوراق صفراء لم يلحظها حين دخل، ولمح أرضية الحديقة جافة
مغطاة بطبقة هشة من أوراق الليمون والأكاسيا..): بشرط أن
يأتي بالمبلغ كاملا.. سنتفق على الرقم بعد ذلك وانتهى.. .! منذ
متى؟ ويمكننا أن نصمت مرة ونقول إننا اتفقنا.. متي جاءتنا هذه
الجرثومة؟، همس الأستاذ للمتر، بإيماءة، وافقه المتر على كل
كلمة وليؤكد لنفسه ولصهر المستقبل.. سأل بصوت مرتفع:
ماذا قلتم؟

قال أحد العائدين من الغردقة..

- ومن يضمن أن يتم المشروع..؟
- دعنا نبدأ.. وأنا معك في هذا التحوط!

قال فلاح جالس جوار ولده..

- أدفع عشرين ألفا لفرنسا.. ولا أدفع مليما ليبقى هنا!؟

يرد عليه فلاح آخر قريب للعمدة ومعجباني..

- المتر يساعدكم!

أضاف شاب لم ينته من التعليم.. ويسافر يوميا من طنطا إلى الإسكندرية..

- بعد أن أتعلم أطلب من أبى.. الأفضل أن نموت.

قال المتر..

- أنتم تموتون حقيقة.. ولو ظللتم هكذا فالبحر أولى بكم..

أب عاد ابنه في تابوت فوقه علامة الصليب الأحمر..

- خراب ديار وموت.. عوضي على الله..

قال المتر:

- يشهد الشيخ هارون أنـي قدمت يدي وأنتم متشرذمين في الخروج أكثر من الدخول! تركوا الشيخ للمتر ولم يجد غير محسن، لم يرفع الأستاذ عينيه عن وجهه وحين انتتر الربيعي مثل الآخرين فهم.. فعل الرجل ليترك ابنه يختار إما الموت في البحر أو البر أو الموت هروبا.

قلق. صمت. قلق يخمش وجه محسن. صمت من المتر والأستاذ. عينان تدوران في جنبات الحديقة. وتمعن في وجه الفتى الجالس قبالة الشيخ. الرجل يتساءل: لماذا لم يذهب مثل الآخرين؟ قلق فوق وجه المتر وبدأ يهفهف جوار قلب الشيخ. يمعن الشاب في حديث طويل مع نفسه، مع ساعة الغروب، مع السماء غير الصافية والداكنة.. صمت يدخل ولا شيء..! كان على الشيخ أن يفهم كل شيء ورأى أن هذا ترضية حقيقية

لذاته، وإلا لن يجد - على الأقل - ما يخبر به أم إسلام.. أيحكي لها عن محسن، عن شقائه وعذابه ووجه الحاج الربيعي الذي جاء ممسكا سوطا، وجد في هذا النوع من التفكير ما يساوي خيانة، تمنى أن يأتيه الحل وأخذ على نفسه وعدا أن يغرق بفكره في هذه الورقات الجافة، في صوت يأتي كأنين المتسولين حين يدوسها.. وسيفعل ليتحول إلى محسن آخر وسأل الشيخ:

- أيرضيك ما فعلوا؟

قال المتر :

- رأيت بعينك كيف هرب الربيعي..

- المبالغ كبيرة.

يعلق الشيخ ثم يضيف:

- ومن يضمن عدم التقلبات..؟

- كيف كان يفهم الشيخ أن "التقلبات" التي عناها كلمة خاصة جدا.. كلمة نام محسن ليال وعيناه تلاحقانها هي وحدها. هذا زمن التقلبات، كيف تكون هي استثناء. كان الشاب قد قرر البقاء في مكانه ولو أمضى حياته كلها.. يشم رائحتها، يحلق بجانب نافذتها، يقف أمام بابها، يسترق نظرات طائر يعرف أين تسكن العصفورة المزركشة، لكنه لن يكف، سيظل يحلق ويهوم ويغرس منقاره في الفضاء، وماذا سيحدث؟! لم يلحظ أحدهما الشاب وقد وضع رأسه بين

ساقيه.. مع كل هذا كانت خرائط محسن تأخذ طريقها إلى بيت المتر، خطوطها بارزة، يعرف أين تبدأ وأين تنتهي، ورأوه مصرا على ترك رأسه بين يديه، تاركا للمتر فسحة يحلق ويندهش، وليس للمرة الأولى، حينما كان يقابله في شارع أو حارة، حاول أن يفهم سبب تركه شعره طويلا مهوشا خلف رأسه.. وانتهت مناقشات منذ شهور حول هذا الشاب بين المتر وبين الشيخ، لذا لم يكن أمامه إلا أن يقبل بوجود محسن، طالما تمسك به الشيخ حين انتهى من صلاة الجمعة - منذ شهرين - وانتظر المتر راسما ابتسامة كمقدمة بسيطة وجاذبة أن يفتح هذا الموضوع، أنهى الرجل إجاباته على بعض الأسئلة الدينية، وتقدم صوب المتر - مرجع القرية - وفورا جلس ونيّة الإنصات موجودة بشكل مريح ومعبر.. ولأنه محترف في المرافعة، نجح فعلا أن يسد أذني الشيخ كي لا تسمع شيئا إلا طلبه! الإدانة. لم ينجرف الشيخ وراء إيقاع الكلمات، كان كلما مشى المتر في أيام محسن وكلما داس بقدمه فوق جسد الشاب وقف إسلام.. ورأى عينيه السوداوين وفي الحال أمكنه إبطال أية حجة: إنه يعتبر نفسه ثورجي، بما يكتب.. أنت تعرف ماذا يفعلون، لدي معلومات أنهم الآن يحللون جسد البلد!! ولما لم ينل كل هذا من دفاع الشيخ، اعترف المتر بينه وبين

نفسه أن هذا الشيخ له أحواله غير المفهومة، ولكنه لم يخف إعجابه بما سمع عن ابن الربيعي.. خاصة ذكاءه، وتمنى لو صارح الخطيب في هذه الجلسة.. بما تفعل ابنته، لولا خوفه من سوء التأويل، وكان حائرا فيما تبقي داخله من أيام الشباب، أيام مشي في الثورات، "ترى هل هذا يجعل قلبك متطلعا إلي لحظة أو لفتة عابرة من شاب مثل محسن"، وحانت منه نظرة إلى الشاب فعلا، وأجاب: ها هأو قلبك لا يأتمر بأمرك.. لا تنكر أن هذا الفتى مسكين وشرس وفي داخله قوة.. ربما.. وصمم أن يبتعد متسائلا:

- أليس لمثلك رأي في هذه الأشياء..؟

لم يرغب إلا في الاحتماء من الهجوم العالق في النبرة، تابع عصفورا مزركشا ساكنا فوق سور حديقة البيت، وتمنى لو كان خارجا من غرفتها. أرسل العصفور زقزقة ملأت الفضاء، شعر محسن أن السماء تنغمس رويدا رويدا في الأفق الوردي، وأن خيولا يتعدى عددها العشرة تصهل وتجرجر الشمس لتترك في البقعة الصغيرة دفئا، وهو بدوره يمثل أمام الكون مفرغا صدره من أي حنق أو غضب، ثم ماذا يعني أن ترفض أو تقبل..؟ من يسمع لك وأنت في هذه القرية لا تزيد عن باحث عنها، أراد أن يركز بشكل يشبه من يتأهب للدفاع عن كنزه المختبيء!! صهيل خيول، أفق رائع، ساعة غروب حانية، كون

يعانقك، أيام تراها صندوقك السحري، كل هذا دونها لاشيء مثلما تتنفس تحت التراب، تتنفس في فجوة بعد ساعات تكون باردة ورائحتها هي موتك، وكلما حاول أن يكون في محط عيني المتر سبح بعيدا، مع الدقائق التي مرت وهو خلف قضبان نفسه يبحث عن رد يقربه ولا يبعده، لأنه اعتبر وجوده في دار المتر صدفة كتب له وعليه أن يخرج بصيد ثمين، تركه الشيخ لمعرفته التامة بأحواله، وانتظر بقلب مفعم بالأحاسيس القيمة، وتمنى لو هبط عليه إسلام ليدفع صديقه بطريقته ليتكلم، المتر أيضا لم يلمح غضبا أو تعجلا، وجه الشيخ هادىء، زرقة عينيه تضخ أسمى ما يقال عن إنسان ينتظر ابنه ويشارك القرية في مصيبتها.. لكن محسن يعرف أن الدقائق تزحف وقد سئل ولم يجب، نطق ليتأكد أن ما أعده سيكون ما ينطقه..

- أي كلمة ربما أندم عليها.. وحضرتك تعرف..!

العينان بوابتان خلفهما ماء يعارك الحافة، يضيف ليكون بعيدا عن فيضان يجرفه..

- حتى لو قلت من يجرؤ ويأخذ بكلام..

وتوقف.. الشيخ استشعر خزي من يرى غريقا ولا يتقدم لإنقاذه..

- جميعا نحبك، وعمك عبدالصمد واحد منا..

قال المتر:

- اعتراضي مبني على شيء بسيط.. هذه أيام غريبة.. وكما ترى من غيرك يعيش في مثل هذا الوهم الكبير.

- لم يعد لرأينا أية قيمة.. دعه.

استجاب المتر لكلام الشيخ، وحين هم الشيخ بالخروج مستأذنا باغته محسن:

- سأظل دقائق.

تبادل الرجلان نظرات رأى محسن فيها دهشة وعدم توقع، سوف يتطلع إلى الأفرع الجافة، مبديا نظرات باحثة عن شيء كان قرب سور الحديقة، يطلب منه أن يخرج معه لم لأنه أيضا لديه موضوع، جسد المتر يرتطم بسطح الأريكة وكأنما حزمه من ألواح خشبية ملفوفة حول بعضها سقطت فوق الأريكة، سمع صوتا مكتوما، ولم يفتح الرجل فمه بكلمة.. قبل الشيخ أن يمر محسن عليه بعد أن ينهي مع "عمه عبدالصمد" ما يريد، ولو لم يؤكد محسن على أنه فعلا سيمر على بيت الشيخ لخرج الرجل غاضبا.. عموما المتر جلس بإحساس أن الدقائق القادمة ستشهد نطق حكم بعد أن دافع وقدم كل الأدلة.. فقط نسى أية قضية كان يعالجها..؟!

"الاسكندر الأكبر خرج باحثا عن نهايته، بودلير عشق غجرية ليست فاتنة ولم يعرف عن أصلها الكثير، كان يقبل أطرافها، توابيت ثلاثة سوداء هبطت على قريتي داخلها قصص وأحلام وإخفاقات".. وقال لنفسه أيضا..إخفاقاتي لن تساوي وضع خطط حربية لحملة فاشلة في مشروع غير مشروع.. لم يتبق غير أن أضع بين يدي هذا الرجل كل ما يجهض فشلي.. قبل أن يبدأ انسحابا متسرعا أراد إطلاق الدانة الأخيرة، لم يلتفت إلى المساء، "يمكنني أن أتأمل مئات المساءات بعد اليوم ويمكنني القول إنها ستكون مساءاتي التي أعرفها". المتر صامت منتظر، فيما يبدو ينتظر كل من الآخر أن ينفد مخزون الصبر، محسن يتمنى منحة ويعرف أنها بعيدة، ولتفاهتها يحاول إرسال توسلات إلى عيني المتر، علـه يراها تعبر صالة أو تتحرك خلف ستارة، أو يحدث ما يخشاه، حسب تصوراته: المنزل لن يعبأ بوجوده، وسيدع أمل تخرج إليهما بصينية فوقها كوبان فارغان وبراد يليق بمنزل كبير يسكنه طفلان مع فتاة تؤرق ليله.. ومشددا على منحه الخطوة التالية.. سيرفض بقبول شرب الشاي، ولن يعلن أنه يؤجل كل شيء إلى أن يسمع قرار المتر. لم ينطق وبدا له أن عيني الرجل تبحثان عنه وسط أولى موجات الظلام.. وبما أن كليهما متمسك بوضعه فلم يسمع في

الحديقة غير هديل حمامة تختفي عند الأشجار القريبة من مدخل البيت. بعد مرور ساعة خرج محسن عابرا الحديقة مخترقا البوابة.. أول شيء استطاع فعله وقف أمام البيت، هذا شارع ضيق ينتهي إلى طريق الأسفلت، خال، به بعض نوافذ مضاءة، إلى اليمين شارع أوسع منه ينتهي إلى منزل الشيخ، يقود إلى الحقول، كيف يبدو وجه المتر، وما هو لون بشرة أم أمل وما هي آخر كلمة لفظها ابنه الصغير، وما هذه المرارة في حلقي رغم أن الحلق جاف، هل مازلت أحرك لساني في فمي.. وأطال البحث في الشارع.. عن ماذا لم يحدد! فعلا أعاد المحاولة.. لكن وجه المتر اختفى تماما من فوق الشاشة التي تمده بوجوه كل من رآهم ولو مرة واحدة، حدق في قدميه وجال في أرض لا يرى ترابها وأحس أن ذاكرته فرت منه مثل ذبابة كانت تنغص عليه كل شيء.. أخيرا انطلق في شارع طويل، يمشي بيدين داخل سويتر قديم، يدسهما في جنبه ويبحث عن النوافذ، يسرع الخطى، بيوت يعرفها جيدا ارتفعت فجأة، في الصباح كانت من طابقين هي الآن أربعة أو خمسة، لم يكن في حاجة ملحة أن يقف ويعد النوافذ المضيئة، لكنه فعل وهرب من تشككه في نفسه، يبطيء من المشي، يحس أن البيوت تهرب منه، من شارع إلى شارع، من حارة إلى أخرى، هل كانت للروائح الغازية دخل، لم ينكر وراح يمزجها بروائح كانت في ذاكرته

ويحبها، ومن كل هذه البيوت ومن قليل قابلهم أو توهم أنه قابلهم شيد لليلة معمارا جدرانه هذه الحارات المظلمة والنوافذ والأبواب المغلقة، وترك في داخلها أطفالا تبكي، وتصور نفسه "السيد المنقذ.." راح يضرب الهواء بيديه، واكتشف أن استطالة المباني ووجوده في كل الأماكن يغمره بإحساس رائع: أنت قزم شرير وفاشل! أمام بيته نسى أنه كان منذ ما يقرب من ساعة أو اثنتين أو .. لا يهم، نسى تماما أنه عائد من عند الأسفلت، من أمام صرح داره فكر أن يعود، لأنه غير متأكد إن كان فعلا قد مشي فوق الأسفلت ومرقت جواره عيون تبرق وتنطفيء، داخل العيون أناس يعودون إلى بيوتهم، يجلسون ملتصقين مثل دجاجات في قفص أسفل ماء أبيض يشبه شبورة الصباح، لماذا كل هذا وكيف لا يمكنك طرد الأشباح.. ثم منذ متى وهي تستعمر فضاءاتك، ستدخل هذه الدار، لكن ماذا ستفعل وعمن تتحدث.. هذا لو تحدثت مع أحد..؟ ظلمة الدار من الداخل ليست مثل ظلمة الطريق، والبرد في تسلقه جدران "مرقد أبويك" ليل مثل الذي تسلقك في "الـهناك" وأنت قابع أمام المتر، قبل أن يصعد إلى "مقعده" وجه الأستاذ هارون قالها في جدية.."تعال ولا تتأخر"!! في مثل هذا الوقت يكون محسن جالسا في يده كتاب، لم يقلع عن قراءة الشعر وفتح نافذة المقعد" لم يجد غير الظلام، وبقايا معركة بدأت ساعة الغروب.. بقاياها مفروشة

قريبا من داره، نور العمود البعيد وباب داره وحركة بطيئة مـن فلاح وسعلة ممطوطة. وغير هذا لم ير، لم يتخلص من الصدى البعيد.. أقادم من ناحية بيتك يا أمل، خلـع السويتر وحملق فيـه وعاد وارتداه وسأل نفس السؤال: هل فاتحك في أمر..؟ من أنا؟ هل يجد بقايـا واضحـة مـن وجـهي أو ربمـا كلمـة يرددهـا دون قصـد أمـامك.. قطـع شـوطا داخـل المقعـد، قريبـا مــن الكتـب المتناثرة في كل مكان أية كلمة؟ ولماذا لم أطلب رؤيتك؟ وضــع بين يديه ديوان "بين يـدي زرقـاء اليمامـة" انحنـى ليبحث عن شيء بين كومة من كتب، إلى سقف الغرفة أطـال مـن الحملقـة، قبض على اللمبة بيديه كأنما لسعته، وسع مـن عينيـه، رمـى مـا في يده من كتب، ومن أمام الباب رأى أثر ركلتــه فـي الـرؤوس النائمة، أطال النظر والمشاهدة والتأمل.. هناك عند زاوية بعيـدة قريبـا مـن الـدولاب المفتـوح تدحرجت رأس بورخس، ذهــب ليرفس الوجه الملتصق بأرضية طينية، تراجـع إذ رأى ابتسـامة سابحة في زمن لا متناه.. وعلي مسافة شبرين لمح أحمد شـوقي صـامتـا يزاحمـه العقـاد.. العميـد لـم ينـل نظـرة واحـدة مــن أي ذكرى، انتبه أن الذكريات هربت، جفلت منذ أن خرج من بيتـه، وفي الزاوية الخالية من أي أثاث اكتشف أن ريلكـة يتجمـد مـن الوحدة، يشكو من إهمال البشـر.. قبـل أن يرضـخ للـدوار لمـح غرفة السطح الضيق المفضي إلى السلم ودخلت السماء بـآلاف

النجوم اللامعة مثل نقط مضيئة سابحة في حوض ممتليء بماء شائق الزرقة.. وحين استقرت بصمتها لم ير غير الهروب حلا، هبط مسرعا خارجا آخذا ريقه إلى الشيخ..

-١٠-

- لم يكن أمامي إلا ما فعلت!
- وماذا قال..؟
- انس هذا الموضوع..
- والسبب..؟
- سألته. قال لا تجعل هذا اللقاء يتكرر حتى في أحلامك، ذكرني بما فعل من أجلي، أنا لا أخجل مما فعلت. لم أحبس لأنني لص، أو حتى .. أنت يا عمي تعرف كل شيء، ليته يفهم..
- يفهم أكثر منا جميعا..
- سأجد عملا، لن يظل أبي دوما ضدي، يمكنني إقناعه.. يمكنني..
- الموضوع يا بني..

لأن حيرته أكبر من أن يظل جالسا، وهو يرد على صديق إسلام وساقا فوق ساق انتصب واقفا، قام محسن

وانتظر.. لم يعرف الشيخ ماذا سيقول ولماذا؟ خاصة أن جبهة الشاب المسطحة العتيقة سقطت تماما قي عينيه وبعدها تموجت مياه العينين الضيقتين وشعر أن محسن جاء واضعا سائلا أصفر فوق بشرته، إحساس بالموت والضياع أعاده لشباب الغردقة وشرم الشيخ وأكثر إلى الوجوه التي طلت من قاع التوابيت مشدوهة وجلس محسن لأن الشيخ تهاوى إلى الكنبة، لم يغب عن ابن الربيعي أن صدر الأستاذ هارون معبأ بشيء، لم ير من قبل زرقة عينيه هكذا حيادية، تائهة، وانكمش الشاب على نفسه إثر تحويل وجه الرجل بعيدا، أي من الآخر سيضبط صاحبه متلبسا.. لماذا في هذا الوقت فعل؟ يا رب هل ينتهي هذا اللقاء دون أن يجرح أحدنا الآخر..؟! صامت. الشيخ يعرف ما لا أعرفه، الشيخ لديه أسرار عني، عن أبي، عن حياتي، مؤكد حكى للمتر عن حياتي، حتى لو كرر ما يسمعه من أبي لن يكون مذنبا، "أبوه يقول إنه إنسان ضائع" ربما قالها دون اعتبار أن رجلا مثل المتر عبدالصمد يتصيد، ويخزن، وهو محام بارع.. لم أخسر أنا هذه المرة..؟ هل في الحب جريمة، الحب والشعر مثل الحرب والهزيمة.. هل أنطق بهذا الرأي.. سقط على رأسي مثل قدر قاس، ورنا الشاب صوب الشيخ، فكر أن يقول أي شيء.. كلما جاء كان يسأل عن الست أم إسلام، وبعد الحادث لم يتوقف عن التردد على بيت أستاذه، ألا يوجد

جديد؟ ألم يتصل؟. ليتني طلبت من صديقي رقم تليفونه، ويتقبل الأستاذ هذا الإحساس الجميل بالذنب، يفكر أن اللحظة تخصه، لن يجعل منها شيئا آخر..

- لم يتبق لي غيره يا عمي..!
- إلا هذا الموضوع يا محسن..؟

في حنق نطق محسن متأهبا أن يقول ما يشعر به..

- لماذا يرفضني؟

في شبه توسل..

- ألم تجد غير أمل..؟

ليس مهما أن يرد، أبو إسلام لم يسأل ليسمع إجابة، في مثل هذا يفكر أب لابن وحسبما يظن أهل القرية "ابن ضائع" يفكر في الليل الموجود في الخارج، في الظلام الذي لم يترك بقعة إلا ورسم وجوده فوقها وحتى النوافذ المغلقة في بيته طفت فوق السطح، واستشعر أن الإحساس بالأسى أكبر منه، أكبر من بيته، ولو ظل هكذا ستبتلع هذه الليالي أهله، ولن تخرج امرأته من الشق الشيطاني، وربما ضاعت منه، ليس مهما أن تخرج إجابة من فم محسن، أو ينتظر ليقرر بعد أن يسمع.. ليس أمامك ضفة واحدة يا هارون قال ليركض بعيدا.

- دع الأمر الآن..
- أمرك..

- ولا تكلم أحدا فيه..
- تطلب أن أنساها مثلما قال "المتر"...
- المتر أب.. وأنا..

وهو أمام أم إسلام لم تتبخر ملامح محسن ولم تتنقل كلمة من داخل الحجرة إلى حجرة نومها، حدثته عن حنان وما يجب أن يفعله مع زوجها، وعن أمل، تتوقف عن العبث اللذيذ في مجموعة من الصور المرصوصة فوق الفراش، خلع ملابسه ليهرب ويترك نصف الطريق وراءه، وحين ارتدى جلباب المنزل أحس أن الطريق يركض خلفه، ومع وضع الطاقية البيضاء فوق رأسه شعر أن العباءة كومة من الأحجار فوق جسده بكل هذا الثقل فجلس، لكنها كانت قد قالتها للمرة الثانية كيف لا يسمع؟! التليفون.. التليفون يرن..":

- من؟
- ...
- هارون الأزهري.. معك!
- ...
- سامحك الله يا بني.. أين أنت؟
- ...
- غدا..! انتظر.. حالا ..

سمع الشيخ امرأته تتحدث وهي تتواثب فوق بلاط الصالة..ألقمها سماعة التليفون..

- ...
- إسلام. ابني. هان عليك حضني..
- ...
- حضن أمك.. عصفوري.

لم تقل غير "غدا يا هارون.."

دخلت في غيبوبة قصيرة، غير أن الشيخ ظل معها بمفرده وكما توقع أفاقت بعد دقائق...

- ١١ -

ليس لأنه نام بعد الثالثة صباحا، أو لأنه أغمض عينيه تاركا ديوان"عمر بن ربيعة" فوق صدره، ولا حتى رأي أمل ورأى المتر بجانبها بجحوظ عينين تحتضنان التراب المندي، ليس لكل هذا صحا مقررا أن يراها. لم يلف على كعبيه في "مقعده" مثلما يفعل بعد أن يصحو، ولم يبحث عن اليمامة التي تحدق في وجهه المتعب أثناء حراسة فراخها، انطلق ليسأل ولم ينتظر أمه إلى أن تحكي عن عمل أخته وذهاب أبيه بعد الفجر إلى غيطه وراءه بهائمه، أحس أن الوقت يقف في صف أعدائه.

وكان قد أقنع أخته العاملة، ولم يتحرك من السوبر ماركت إلا بعد أن امتلأ بنظرات صاحب العمل ومر وقت ليس بالقليل ووقاحة الرجل الجالس فوق مقعد مرتفع محتضنا درجا معبأ بال.. .. وبصق. في الطريق اختلس نظرات إلى الفاترينات أثناء تلميعها لاستقبال يوم جديد ووعد نفسه بساعة صعلكة أمام هذه الفاترينات إلى أن تأتي أخته العاملة بالرد. الصور سوداء بيضاء تلمع خلف زجاج عليه أصابع طلبة المدارس. تنظر "البطلة" إلى العينين الهائمتين، لم تهتم عيناه بالمرأة البدينة السوداء الجالسة خلف الزجاج فوق مقعد خشبي، لم يلمح على الفور المقشة المركونة إلى الباب الزجاجي المغلق، رآها تحدق فيه وتتابعه وأثناء انفراده بمدخل السينما، جفل وارتد خطوتين، وجه صاحب محل العصير مبتسم متسائل، انبثق في رأسه النهار وطاف بعينيه حيث ينحني جسد طويل فوقه بلوفر قديم، صلصلة الباب الحديدي حين ارتفع جعله يقترب من الوجه المبتسر، كتب كثيرة، ألوان زاهية لها رائحة أحبار الطباعة "الهيئة العامة للكتاب" تناول كوب العصير، تذكر أن الظمأ سار معه من محطة الأتوبيس إلى السينما، الجسد المنحني استقام وتمكن من تحديد لون البلوفر، وضع أمام عينيه العناوين وقرأ أسماء الكتاب، ولم يتخلص من عيني البلوفر الرمادي ولا هدأت رأس الرجل، حين خرج سمع صوت

البصقة تتفجر مثل قنبلة لها رائحة كريهة.. ستملأ ميدان الساعة، ابتعد ليخفت صوت دبيب الأقدام التي خلفه، محمل كل ما تبقي من برودة الصباح وهناك لصق عمود كهربائي وقف ونظر إلى عشرات الوجوه.. التي كانت تأتي بالضياع. ليس من الضروري أن أترك هذا الإحساس ينسل إلى جلدي وأمعائي.. رأى عقارب ساعة الميدان تسير آخذة الاتجاه العكسي، في دروب أذنه تجمع الرنين، خشن شارع البحر خشونة الأرض المتشققة، فوقه يبحث عن الألم في قدميه، لم يرد التوقف،هناك سيراها، ماذا يعنى الربيع، ولماذا - رغم كل ما حدث - في أنفي هذه الرائحة للفل الأبيض والبنفسج الفواح.. أين أنا؟

- أهلا كارم..
- العاشرة صباحا.. ماذا تفعل قريبا في ملتقى العشاق..؟
- أنت تعرف..!
- أتبحث عن قصيدة جديدة؟
- لن أعود إلا وهي منتهية..
- وموضوعها..؟
- الأمل ..!
- جميل.! لدينا في القرية من يبحث عن الأمل، ليتك تزورني.
- أنا..؟ المقامات محفوظة..

- ها..ها..

ظهر من عمق الشارع فوج من الطيور البيضاء، لا تكف عن خمش سطح الأسفلت، تخلف في رأسه عزفا حزينا، ولا يكف عن البحث عنها وقطع الشارع مارا من أسفل الكوبري..! تمثال ذو وجه ملطخ بنظرات الفلاحات والطالبات، فوقه ظلال أرداف دافئة، يستشرف النهر الدافيء، والرؤوس اللامبالية. رأس واحدة تتقدم إليه لتجد ذراع التمثال مقوسة ويده فوق جبهته.. إنها أمل..!

رآهما الجرسون يتقدمان صامتين فكف عن تدوين شيء ما..

- شهران ولم أركما يا أستاذ..

انتظر إلى أن تجلس هي أولا وتراجع ثلاث خطوات وترك محسن يتابعه وهو يكتب.. نفس الجسدين، يجلسان في نفس المكان ماذا تنتظر، تركها محسن تأخذ الخطوات الأولى داخل فضاء أصم، وعبث لحظات في المساحة المتخلفة عن ذهاب الجرسون، وضع يديه فوق القرص وحاول قراءة أي شيء فوق المشمع الأصفر، فعل كل ما كان يفعله، راقب العصافير البعيدة والقريبة، عارك ذاته لترقد في سكون داخل العمق المترع بوجهها، أغمض عينيه ليرى ترابيزات تلامس حافتها أطراف مقاعد في دوائر نصفها للشمس ونصفها لظلال

باردة، وكلما انفتحت نافذة في رأسه دخل الوجه الأبيض المربع بالأنف الدقيق وهبطت خلال طرحتها الخضراء فوق قلبه، كور قبضتيه وشد في قوة على الهواء داخلهما. "عن أبيك، عني، عن النهاية المتربصة بي منذ ليلة.. عن صوتك الرخيم الدافيء، عن تسلله ليهزمني..عن ماذا سأتحدث "فجأة أراد أن يحدد لنفسه مربعا لا يخرج عنه، هو بجسده الفارع وهي بجسدها الملفوف في هذا التايير السماوي.

- قال شهرين..!

صامتة..

- لم يرنا.. لماذا هو مهتم بأمرنا..؟

صامتة ..

- تعالى نسأله..

دوائر من ضياء هناك فوق الأهداب، متي سيظهر اللون الأسود في الأحلام.. وقال لها لتسمع..

- هل أخبرك أبوك..؟ سنناقش الأمر.. لا تقلقي، أبوك يمنحني القوة، نقترب هكذا من (أراد أن يقول من بعضنا) الهدف..
- أخذ دواوين الشعر والقصص و..أنت تعرف..!
- ستخترقين هذا السياج..
- لم يذكرك بكلمة..
- نفس درجة الاحتقار!!

أدار وجهه وتركه فوق الترابيزة المجاورة لشجرة الأكاسيا، لم يكن بينهما حمامة واحدة تحمل الرسالة، لف الشاب الجالس منذ برهة طويلة ذراعه حول رقبة صاحبة الوجه الخمري، شبق ينهمر من العينين والشفتين، وصدران يرتجفان، أدارت هي أيضا وجهها ورأى رأسها يندس في بقعة على شكل مثلث حمراء ملتهبة، عضت شفتيها ولم تكبح عينيها وهما يلاحقان المنظر بدفئه ورعونته وحين أبعد الشاب ذراعه عن الوجه الخمري دخلت شجرة الأكاسيا بينهما. ليس لي دخل في ترتيب الصور.. الطبيعة يا سيدتي معي.. انظري إليهما وقولي معي أين الدفء وأين كنا ولماذا نحن هنا؟!انسكب داخلها بصوته وشعره الكثيف الطويل فيطوحه خلف رأسه وهمست..

- تعبت..
- من سافر عاد كما رأينا.. ومن بقي لم يعد.. وأنا دونك مجرم..
- يموت أبي.. وتموت أمي، وستموت قبلهما أو بعدهما.. الموت هنا.. لا يدلنا.. لكن لنا القلب.

أضافت بعدما جعلت شفتيها مرتعا لقطرات البرتقال..

- وأختك.. حرمت أمي على رؤيتها..!
- حبسونا في قدس الأقداس..

- ماذا تقول..؟

- ليس أمامنا غيره..

فوق بشرتها البيضاء هلع من يقفز وسط أمواج تجرفه لشط تغمره الشمس بالدفء والحياة تنقله إلى بداية الطريق.. رآهما الجرسون ولم يصدق، لكنه ارتد ووقف بعيدا جوار طاولة فوقها صينية فارغة وأكواب ممتلئة بسوائل ساخنة، لما رأى الرأسين أكثر تقاربا من ورقتين تدفعهما ريح خفية.. أخذ خطوات بطيئة صوبهما.

- ١٢ -

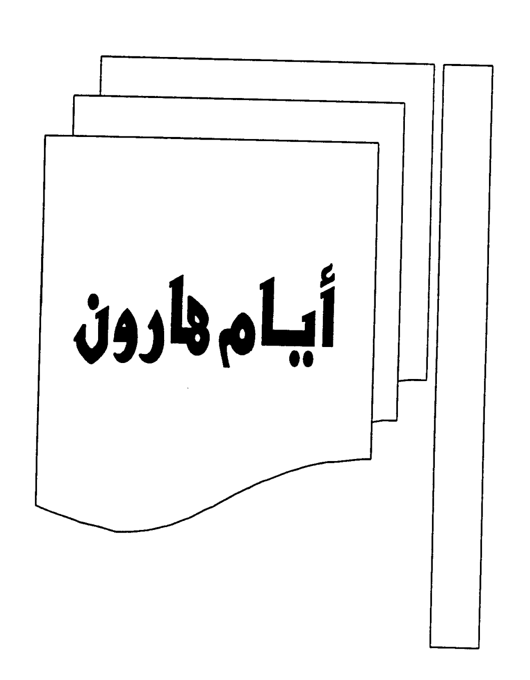
قبل أن يعود هارون من المدرسة أرسلت إلى ابن الربيعي، وجدها منتظرة داخل غرفة الصالون، جلس أمامها ناظرا لدقائق إلى سجادة جديدة ثم أحس أن الرياح تخترق النافذة المفتوحة على مصراعيها، لفت رأسها بطرحة خضراء داكنة وثبتتها بدبوس على شكل طاووس بني اللون.. وجهها أكثر بياضا.جاءت هاشة مرحبة سائلة عن صحة أبويه وعن أحوال أخته في العمل، ودعت له وسمع جملا سمعها من الأستاذ: اصبر.. مع الصبر يأتي كل الخير؛ ولكنها رأت أن الفتى أمامها قد لبى وحضر على الفور.. لماذا تخبره..؟ لماذا لا تحتفظ لنفسها بهذه الفرحة؟ ماذا لو لم.. لا الأفضل ألا يعرف! خرج

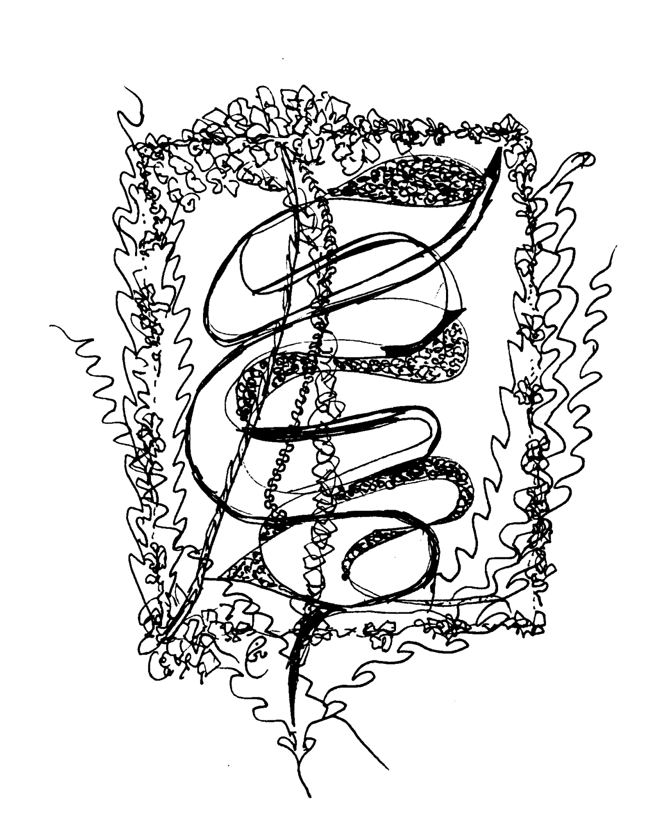
فعلا وهو لا يدري لماذا طلبت لقاءه.. هل كانت في حاجة إلى إنسان يسمع منها، يراها في جلباب زاه جديد وفي أثناء سيره على الأسفلت لم يهتم بالجو الصحو ولا تابع الأشجار المرصوصة على الجانبين مثلما يفعل دوما. العصافير واليمام وطيور كثيرة لها أصوات تصل إليه كأنها محبوسة خلف زجاج مصنفر.. حتى ظلالها لم يفجر داخله ما كان يفجره قبل شهور.. ابتدائي معا على تختة واحدة، الأستاذ كان يرى فيك ابنه، الإعدادي. أتذكر. جاء يقول إنك أعلى منه بدرجتين، هكذا الحياة.. واحد أعلى من الآخر.. صمم أن يكون معك في نفس الفصل.. ويدرس نفس المواد.. لولا هذا ال.. لكنتما في نفس الكلية، مؤكد غياب إسلام يمزق صدرها، وجلس في ظل شجرة على حافة الترعة، الماء الراكد يتأرجح فوقه ظلال لأشجار الصفصاف. وحين ترك أم إسلام نهضت وأغلقت الراديو. لن تستطيع سماع الترتيل، وقفت داخل حجرته، فتحت النافذة لأنها شعرت أن قوة قاهرة تدفعها أن تغني، ترقص، ورتبت ملابسه التي كانت مرصوصة. نثرت فوقها العطر ومشت فوق السطح، أنصتت لأخذ ورد داخلها، لا يجب أن تغضب الآن، في همة عادت إلى غرفته، ليست دافئة لأنها ظلت مغلقة وهو لم يعد منذ شهور. ماذا سيفعل أولاد فرنسا بذهابهم وإيابهم، اعترفت أنها تركت السطح لقرفها من رؤيتهم، يسيرون بسيقان ترتعش

وأقدام تضرب الأرض. أخـذوا هـذه الجهـة، أخطـأوا أن جـاءوا ناحية بيتي. يجب أن تكون للحجـرة رائحـة خاصـة.. مـن خلـف السور رأت الأولاد في بناطيل وقمصان خفيفة، لم تر وجوهـهم لتحدد وظيفة الآباء، ستحتضن ابنها وتغذيه مثل دجاجة عجوز.. تفكر، كان أمامهم وقت ليجمعوا المال، قالوا عشـرين ألفـا وبعـد الحادث زاد المبلغ إلى خمسة وعشرين، إلى أي بيت يتجهون لا تعرف وتتبع ظهورهم في شمس ورذاذ خفيف ورأت في السماء سحبا رمادية، قال زوجها إنهم سمعوا ووافقوا أن يبتعدوا عن آبائهم وتعرف في هذه اللحظـة أن الآبـاء أمـام الأبنـاء ضعـاف جبناء فقراء.. ويبيعون من أجل كلمـة "فرنسـا". بقـي أن يـرى مـاذا فعلت حين يعود، هنـاك إحسـاس لذيـذ دافـيء يدفعـها أن تخبره: عمك عبدالصمد رجل يعرف كيف يتعـامل معـهم.. هـذه الحديقة ليست لهم.. ستكون يوما بيتا جميلا لـك.. لـهذا اشـتريت قيراطين قبل أن تولد.. لم تكف عن الحديث الطويل مـع نفسـها، وجاءت أم أمل قبل عودة الأستاذ من صلاة العشاء.. سألت عن إسلام، أحست هي أن المرأة تسأل عن مبلغ دفعته في مشـروع فـي علـم الغيـب.. أكدت لهـا أن النتائج مضمونة، وجلست تنظر إلى المرأة وهي في انتظار أن ينضج الشاي فوق نار هزيلة من "سبرتاية" وحين انتهت قبلتها وهمست فـي أذنـها "لمـا تنضـج الثمرة لابد أن تسقط".

الليلة في هذه القرية مثقلة بريح تضرب الجدران وتملأ الحديقة بعبث لن يكسر إرادتها، خمسة أيام؟ ستة.. ربما أسبوعان؟ لكنها كانت جلست في المطبخ وخططت وحملت المقعد، مركونا إلى جدار يفصل الحمام عن المطبخ. بدا الجسد البدين في الجلباب ضائع في ضوء اللمبة المثبتة فوق باب الشقة، إلى أن غامت الأشكال، وحيث إنها - الأشكال - من صنعها فأمكنها سحقها والإنصات إلى الريح التي تندفع من أسفل البوابة، هناك في الحديقة الخالية تركض وتعود تمس وجهها وهي لا تفعل غير الإنصات، كوبين ثقيلين من الشاي شربت، وربطت رأسها.. نائم في مكانه مثل غريب أتعبه البحث عن الطريق، رمت بطانية فوقه ولم ترد أن ينتقل إلى الفراش، فوق المقعد الخشبي وفوقها بطانية تتابع ظل مكورا فوق الحائط ساكنا، كم شارع في القرية؟ وكم حارة؟ كم فلاح علم ابنه؟ وكم ابنة تزوجت؟ أين تختبيء القطط وكيف تنام؟ هل نسيت البيت الذي سكنه أبوك؟. لو لم تصمم حنان على همام ما رضيت.. لكنهم كثيرون أمثال همام.. ملأوا البلد.. له وجه جميل.. أبيض.. يبتسم.. هذا ولدي.. تعرف أنها تهذي.. الهذيان من أجل الاستمرار.. حالة صعبة.. يفعل الله ما يشاء، وتستمر لأنها ترغب في الاستمرار.. وتحاول لف جسدها جيدا، طردت النوم.. طردته وعاد، ارتكنت على الحائط.. لم تسقط.. سمعت. فتحت. شبح ساكن يبتسم.. حضن أمك.. إسلام؟!.. تعال!!.




أيام هارون



أيـام هارون

- ١ -

رأوا الشيخ في جلسة الاستراحة (الخطبة الثانية) يخرج منديله ، تابعوه وهـو يمسح وجهه وقد جاء غير منقوص - مشوبا بالحمرة خارجه عن ركن العافيـة، شمس هذه السـاعة تنحرف مخترقة زجاج النوافذ المسـتطيلة؛ تمس وجـه الشيخ ، يزداد تألقه وتتوهج العينان الزرقاوان، يعـاود مبتدءا بالدعـاء.. وحين انتهت الصلاة تحلقوا حوله مسرعين. وعرفوا أن الرجـل استعاد ولده ونشاطه حين راح يجيب على أسئلتهم في هدوء ووجه مشرق.

تناولوا غداء الست أم إسلام ...

قال محسن ليثبت أهمية واستحقاق " الغدوة " :

- الخطبة كانت رائعة اليوم يا عمي ..
- الحمد لله .. هو المعطي ...

- لدي استفسار بسيط ..

من فوق ذروة أريحية هارونية قال الشيخ..

- ماذا أيها الشاعر ..؟

- الحديث عن سيدنا موسى له شأن خاص.. وأخشى أن يتضمن سوء فهم.. إذ يصل إلى وجدان غير المدرك اتهام النبي بسبب اتهام اليهود ..

- موسى عليه السلام نبي، مكرم من الله، جاء لشعب عاص مثل إبراهيم وعيسى.

- الناس تربط قضية الدين بسلوك الشعوب..

تدخل إسلام..

- غير صحيح.. وإلا ظلمنا الإسلام بسلوك الذين "فعلوا ما فعلوا"

- فعلا. الموضوع شائك..

هبط عليهم الأخ همام.. قبل حماه في كتفيه.. وفعل نفس الشيء مع إسلام، وحيث أن محسن ظل جالسا اكتفى الأخ بمصافحته .. وأنصت...

عين همام حامت ثواني في الغرفة واستقرت فوق إسلام. رأى محسن كيف يحملق في ملابس صديقه؟ دقق في البنطلون الجينز الأزرق، والقميص الخفيف ذي الخطوط الزرقاء.

- في ظنك من فعل هذا ؟

التفت إسلام إلى زوج أخته..

- أتظنني أعرف...!؟

- أنا أعرف ..!

لم يطلب أحد أن ينطق بما يختزن من أسرار، قال همام دون أن تهتز عضلة في وجهه...

- اليهــود ...!!

- أي يهـود!؟ كذا حددنـا الفـاعل، المجـهول المعـروف، وبرأنـا أنفسنا ..

- أنت متأثر بالضرر اللاحق بالمهنة ..

الشيخ يسمع وينظر إلى الاثنين.. تذكر أيام الماضي؛ إذ اندس همام في العائلة؛ والآن كلاهمـا لـم ينـس مـا فعل الآخـر. يتناطحان ظانين أن الشيخ ومحسن يسمعان حوارا عاديـا. يـرى الشيخ ابنه داخلا في صـراع خفـي؛ لـن يمـرر كلمـة لـن تعجبـه وهمام لا يضيره غز السكين في الجرح القديم. ناقل من نظراتـه بيـن الديكيـن وبيـن ابـن الربيعـي، رأى محسـن هادئـا صـامتـــا؛ وكأنما تعلق به الأمل سأله متسلحا بابتسامة دافئة.

- والأستاذ محسن ماذا يرى؟

فـهم محسـن القصـــد. تقـدم برأســـه صـــوب المقعديــن المتشاكسين..

- في ظني لا يمكن البت. الموضوع كارثة؛ لم يمض عليه سوى أيام..

سمع صوتا خشنا خارجا من مكمن مظلم..

- دع الأخ محسن. لا يمكنه غير الرد الدبلوماسي .
- مشكلتكم يا همام الكلام من غير بينة..
- لم تنس "قرصة الأذن"..!
- لو فهمت المغزى لما قلت هذا..
- أي مغزى.. ؟ ! تسجن في كلام تافه..

عاد إليه إسلام بحنق أكبر..

- الشعر كلام تافه..؟

وعزز الشيخ ابنه قائلا :

- لا يا بني. الشعر لا يأتيه إلا الملهمون.. الشعر إحساس وشعور داخلك ربما تكون أحاسيس طيبة جميلة، ولا يمكنك التعبير عنها. قرأت مرة أن الشاعر لكي يكتب قصيدة جيدة عليه أولا أن يرى مدنا كثيرة ويتعرف على الناس والأشياء والحيوانات ويشعر كيف تحلق الطيور ويدرك الحركات الدقيقة التي تتفتح عبرها الزهور الصغيرة في ساعات الصباح، وأن يتمثل اللقاءات والافتراءات غير المنتظرة وأن يتذكر أيام الطفولة، تلك التي لم تتضح معانيها بعد وأن يتذكر والديه اللذين كان يسيء إليهما ويزعجهما كلما كان

يراهما يدخلان الفرح في نفس إنسان آخر سواه، وعنه لا يساء فهمك لو أمكنك نقل مشاعرك بصدق، بمعنى أن تنجح في اجتذاب الناس لأحاسيسك الجميلة.. هذا عمل طيب..

- هذا كلام طيب يا عمي.
- الكلام الطيب والفعل الطيب لا ينفصلان.. أم ماذا ترى؟
- أليس في كتاب الله غنى؟
- وجود الشمس لا يغني عن الكهرباء تماما كما أن الوضوء للصلاة لا يغني عن الاستحمام من باب النظافة.. للدنيا أسباب .. والأخذ بها واجب..!

في هذه الأثناء لذ لمحسن أن يتصفح وجه همام المثلث. تساءل في نفسه: كيف يترك لحيته هكذا؟ الشعر يملأ الوجه متمددا كعشب ينمو في شتى الاتجاهات، يأكل البشرة البيضاء الناعمة، أوشك أن يحجب الرؤية إذا ما التحم بشعر الجفون.. شرد طويلا وانداحت أفكاره في اللجاج المحموم في الحجرة. لكن الذبابة ظلت جاثمة فوق عمة همام البيضاء؛ اجتذبته من شروده. كانت جاثمة فوق منتصف الرأس، تتقدم بعد - بعد دهر – بالساقين الأماميتين ناحية الجبهة، ترى ما هي المساحة التي تراها هذه الذبابة، وعم تبحث في هذه المنطقة؟ وإذا ما رمت بنظرها إلى أسفل؛ حيث أنف همام؛ ماذا ترى؟. وأتاه هدوء لذيذ، وترك الجميع لحاله "سترى الأنف جيدا، ستفكر

كيف ستهبط دون إحداث أدنى انتباه للكائن. يمينا يسارا استطلعت المجال، ثم هبطت في حذر. كلما تقدمت قليلا أجبرتها الغريزة أو.. وقال لنفسه: ماذا لو كانت هذه الذبابة واحدة ممن.. آه. وتتأمل في الحياة ولا تجد ما تفعله، وثبت الذبابة من مكانها وحلقت قرب وجه الشيخ حرك يده، عادت إلى مكان الانطلاق.. رأس همام دائمة الحركة. تماسكت، وظل محسن كما كان متتبعا صيده. انزلق إلى الأنف. وجده غير صالح للتأمل الصادق. وقفت الغبية فوق ساقه!. همام يحدق فيها، يطيل التحديق يرفع كفه، نعم.. دخل ساحة الاقتتال، لم يعد ينظر إلى الشيخ أو ابنه. توقف تماما عن الكلام، هوى بكفه فوق ساقه المفرودة، تنفس محسن في ارتياح. وجدها تحلق في اتجاه السقف .. لم تطل البحث عن النافذة، اهتدت إلى الضوء والهواء وخرجت. قال محسن..

- أنا ذاهب..

ووقف ..

- لم يا بني... ؟

وقال إسلام..

- انتظر . أريد الحديث معك في أمر..
- بعد صلاة العشاء نتقابل.

قال همام : لا أعرف ما يمكن أن تحمله الأيام القادمة.. أقصد.. وبدأ يتلعثم، يبتلع ريقه؛ ازداد كذلك شحوب وجهه، ويعرف الشيخ بالحدس ما وراء احمرار عينيه، خاصة إذا استمر في العبث بلحيته شادا شعر الذقن الخفيف. وواصل: أقصد التجارة، ربما أنتقل إلى بلد أو أغيب أياما .. ستأتي حنان بالولد ..

- ماذا يقلقك؟
- لا شيء ...!

ولم ينخدع الشيخ في الابتسامة وقد جاءت مفتعلة مفضوحة.

- أهناك شيء ..؟
- أريد رؤية أمي.
- تفضل يا همام ..

أمامها جلس.. لم يلتفت لخروج إسلام؛ لحيته وعمته في حضور الشيخ جعل أم إسلام تنهض قبل أن يدخل؛ جلست فوق الفراش بجلبابها الأسود القطيفة؛ و أحكمت تطويق رأسها بالشال؛ وابتسمت حتى مالت الشفة السفلى لأسفل ورأى الشيخ عينيها تومضان، قالت...

- ابق مع عمك لأحضر لك الغذاء..

- تغديت يا أمي..

كررت مرتين ليرى رضاها عنه؛ وتشجعه أن يجلس بجانب زوجها فوق الكنبة التي تلاصق النافذة. وراح يطمئنها على حازم وحين تطرق الحديث إلى أم حازم قال همام:

- من أجلها جئت..

- أحدث لحنان شيء ...؟

طرح الشيخ العباءة جانبا ودلى مسبحته.. و تكلم:

- يا ستي.... جاء يوصينا على ابنتنا.

- لم ...؟

- لا شيء... مسافر...

قالت الحاجة أم إسلام..

- اسمع يا بني.. بعد عودة إسلام ذهب كل شيء لحاله.. واسأل عمك هارون: كل ما فعلته حنان وطريقتك معنا.. كل هذا لم يعن شيئا.. عاد إسلام.. لذا سيهون كل شيء..

- والله يا حاجة .. أنا فرح لما تنوين فعله.

نظرت إلى زوجها؛ رد نظرتها بتأكيد أنه لم يفعل.. أرادت التأكد.. سألت..

- عم تتحدث؟

- لك الحق أن يعيش ابنك معك.. ولا تؤاخذيني.. سيكون هذا قرار لوجه الله.. ويعينك ربنا..

- يقصد ..

لأول مرة تبادل همام الرأي والسعادة؛ ووثب للفرصة السانحة...

- ادعي لي يا أمي..!!

- يحفظك ربنا يا ولدي..!

- بقي لي طلب؟

تبادل الزوجان النظرات؛ والتزما الصمت.. فقال..

- مهما يحدث.. مهما تسمعوا عني.. لا تصدقوا إلا كلام حنان..

- ما هذه الألغاز يا بني..؟

- لا شيء يا عمي.

قابل همام إسلام في الصالة.. ثوان ظل همام واقفا، انفعالات متضاربة تجعله يبتسم ويزم شفتيه؛ وأمام حملقة إسلام فيه فك الشال الأبيض وأعاد طيه محتفظا بجزء متدل يشبه ذيل قط خلف رأسه.. وفجأة وجد إسلام ذراعي نسيبه مفتوحين، عانقه، أطال همام من عناقه ثم أخفي وجهه في يديه ومضى.

كان يقرأ في ديوان "بين يدي زرقاء اليمامة"، ترك النافذتين مفتوحتين على الشارع وأغلق باب "المقعد". هذا الباب - في النهار - بمثابة مستطيل منتصب في الفضاء مقتطعا جزءا من زرقة السماء؛ في الأسفل تهتز أسطح البيوت أثناء تأمله وشروده وكأنها بحر من السراب. عما قليل يزحف المساء تتلاشى الأسطح بتعريجاتها وتبقى الزرقة الدافئة مرصعة بنجوم لا تتحول أو يبادل نجم نجما مكانه. يحاول ملاحقة أبيات الشعر كلما أوغل في طيات العتمة الزاحفة! أغلق الديوان حاول أن يهدأ وحين راح يمشي في غرفته عاوده روح الخلاص.. قال لنفسه: من أغراك بهذه العوالم.. من شجعك؟ وعاودته الأصداء واللقاءات.. يروح ويجيء.. يلاحق مشاهدا شاردا اللوحة المعلقة، جواد يركض. دون رؤية نهاية الطريق. "اقرأ يا محسن.. أنت موهوب؛ اسمع يا بني.. الشعر نعمة من الله.. عطية مثل العطايا الأخرى.. مثل الصوت الجميل.. والأنامل البارعة في الضرب على آلة موسيقية؛ ماذا كنا سنعرف عن العقاد لو لم يكتب؟! وشوقي بيه وغيرهم. لك صوت متفرد. استمر. ماذا ستكون بدون الشعر..؟! وماذا أنا الآن؟ دقت على الباب ثم دخلت.. رأت أخاها مثلما توقعت؛

يلاحق ذيول النهار في الشارع؛ وفي الداخل رابض جسده أمـام النافذة.. الساقان ممددتان في تراخ. اقتربت ووقفت إلى جـواره؛ ريثما تخلصه اللحظات من قبضتها ظلت تنظر في وجهه، تتابع عينيه وما أن اكتشفها في الحجرة.. وقال..

- ألنا جبان ؟؟

أضـاءت اللمبـة، رأى أختـه هادئـة، عيناهـا الضيقتـان الصـافيتـان تتحتـان فـي قلبـه؛ متصـورة أن اسـم صديقتهـا أو صورتها هو طوق النجاة. دارت دورتين أمامه.

- أيها الجبان.. هيا واجه ..
- ماذا تريدين ؟
- هي التي تريد...!

انسـاق وراء شـعور جـارف.. شـده إلـى شـاطئ منـير بالقمر..

- لا تنسى كلمة واحدة..
- لن أنطق كلمة واحدة..

فهم أنها تعبث بـه.. استحلفها.. ناكدته وأقسـمت أنـها لـن تنطق. وأضافت.

- اسمع منها بنفسك..
- ماذا تقصدين يا بنت الربيعي ..؟

لـم يصـدق إذ أشـارت إلـى الطـابق الأرضـي .. أكـدت بعينها ووجهها ..

هـم أن يركـض إلـى الخـارج. أمسكت يـده قائلـة وهـي تهمس..

.. وتسمع منها هنا..

- هنـا ؟؟

- ٤ -

- أول مرة تزورين صديقتك...

ثم أطرق.. هي أحست أن جملته لم تتنه ..

- في بيتها ..!

- ماذا تفهم من هذا ؟

- كنت أتساءل: لماذا لا تأتين إليها ولو مرة في الشهر..؟

- كأنك لا تعرف أبي؟!

كانت تحدق في الديـوان الموضـوع فـوق سـاقيه؛ كلمـا وقعت العينـان علـى كتـاب ابتسـمت. دارت دورة كاملـة فـي الحجرة. رأت الدولاب الصغير مغلقا ورأت فراشـه فـي أقصـى الحجرة، تحت نافذة مفتوحة على سطح البيت. تساءل:

- واليـوم؟

- يصلى الجمعة في السيد البدوي، وبعد الظهر لديه مشاوير.

رأته جيدا وهو يسحب الأشارب ليسقط إلى الأرض، أحست أن عينيه تغوصان داخل جسدها التائه أمام هذه اللحظة، لا تعرف ماذا يريد وهل هي جادة وموجودة، وجدت أنه بالفعل ولجها، رأت أن فمه يطوف - ملفوفا في رائحة التبغ - فوق وجهها، لم تغمض عينيها ولم تحرك يديها المدلاتين حول ساقيها، رأت عبر النافذة المفتوحة الفضاء سطحا هلاميا، دفء غريب، لذيذ، فواح يلف المكان وترحل، ترفرف، تفرد يديها وأحست أن الأرض تحتها هشة، تنخفض وترتفع كأنما هي فوق بحر من الرمال، رأت في لحظة عاصفة تعبر عينيه، تدوم، وسمعت هزيم الريح؛ من ثم انتفضت وبدأت تلملم المتناثر مما لم يفلت من قبضة الوعي. وهدأ اللهاث وبدأ يتنامى إلى الوراء حيث السكون، طلبت أن يأذن لها بالجلوس؟ أومأ وظل منتصبا في وقفته.. قالت:

- لم أفهم أبدا كيف يحب الإنسان دون سبب مفهوم، دون وعي، هل صداقتي بأختك هي السبب؟ أم شعرك وهزائمك؟ أم أبي"؟. كل الذي حدث أنني أحببت المجيء، أردت هذا.. لا.. لا أعرف بالضبط. عموما هذا الذي تم، من حب ولقاء.. هو المصير الذي نسعى إليه.

لم يتحرك أو يحرك عضوا وهي تعيد الإيشارب. سمعته يغمغم ..

- أنا لم أطمع في أكثر من هذا..

لم يكف عن متابعة شبحها. حتى بعد أن سمع دبيب خطواتها في الشارع .

- ٥ -

يذهب الشيخ في الصباح إلى مدرسته؛ وهي تنتظر إلى أن يصحو إسلام. يهبط إلى الطابق الأرضي، يدخل ببقايا النعاس دورة المياه. يغتسل؛ تكون قد جلست في الصالة منتظرة. ثم ترتشف رحيق وجوده حولها. تسمعه، تحادثه، تعابثه. رأت نفسها في قارب وسط نهر هادئ، ويوم مشمس، لا يتبقى سوى الوصول إلى الشاطئ. تلتذ بركوب النهر، بشقشقة العصافير.. من مكان ناء.. وتتساءل: والحلم؟ يخرج إسلام، يغيب نصف نهار، نهار كامل، جزءا من الليل..! لا يهم ماذا يفعل ؛ لا تتسلل رياح القلق إلى قلب العجوز، لكن.. ما إن تضع الرأس فوق الوسادة وتنثال الأفكار. يجب أن تنهي الموضوع بسرعة. في هذا الصباح صحا قبل الميعاد نشيطا، يدندن؟ أكل نصف رغيف من الخبز الإفرنجي، وطلب الشاي، وإلى أن تقطع المسافة من التليفون إلى المطبخ تمر دقائق مفعمة بأسئلة.. ولا إجابة، البحث الطويل فوق الوجه الفرح.. سمعت رنين التليفون، أعادت الشاي.. تسمع..!

- يا .. (نعم)

- ...

- زير جوت .. sehr gut (كويس جدا)

- ...

- فان wann ؟ (متى؟)

- إش فارتا دى سقاى تاجى ich warte die zwei tage

(انتظر اليومين)

- ...دانكى (Danke) .. شكرا ..

وضع السماعة محملقا في جزء من الجنينة، دخل الصباح في عتمة خفيفة.. ازدادت في الصالة؛ أضاء اللمبة وقبل أن يتذكر أمه سمع صوتا غريبا.. التفت فرأى أمه منحنية والصينية فوق الحصيرة والشاي المنسكب يدلل على وجوده بخار قليل، هرع إليها، أوقفها بوضع يدها على كتفه.. قالت لتخفف من هلعه:

- تعثرت في هذه الحصيرة.. القديمة!.

- سأشترى لك أخرى جديدة..

رآها تتكمش حين اقتعدت الكرسي ورأى قلقا غير مبرر على وجه أمه.. قال..

- ما انسكب لا نصيب فيه.. أنسيت كلامك..!؟

طلبت أن يساعدها حتى تعود إلى غرفتها، أبدت

دهشتها للبرد الشديد في الصالة، ركض وعاد بالشال فوق كتفها، يعرف أبنها أن جسدها البدين لم يحل أبدا بينها وبين إظهار نشاطها.. ترغم دوما الجسد على الحركة السريعة.. لا تكف عن الذهاب والإياب وترفض أي مساعدة من ابنتها. رغم أنها تجاوزت الخمسين تخلصت تماما من آثار المرض الذي هجم بعد زواج حنان.. وتسأل وهى تتسلق الفراش مغمضة عينيها؛ متأوه.. لماذا استسلمت فجأة للسقوط؟ أين رفضها وتشبثها بالحركة؟

وبسبب صمت أبيه حمل الأطباق - أثناء الغذاء - وجلس بعد أن تأكد أن أمرا ما يحمله على هذا الصمت. ودخل أبوه ليأخذ قيلولته ولم يجد إسلام شيئا يفعله.

- ٦ -

في الطريق وقف على الحقيقة مستشعرا مرارتها في فمه.. أين الأصدقاء؟ لم يبق غير الشاعر.. وإذا ما تذكره تؤكد له أن هذه الصداقة انتقلت من عالم الدفء إلى ركن اللقاءات المحسوبة والنادرة. لم يعد الشاعر يلتمس عندك التشجيع. كان يأتيك لأنك معطر بأريج المهنة القديمة.. يتحدث إلى المدرس. الآن يزيده الشعر ابتعادا. مؤكد يحدس أن إسلام لم يعد مدرسا.. رأى عالما مختلفا.. سمع كثيرا. لن تجد ثقبا لتسرب دهشتك

إليه.. نعم هذا ما سيقوله لنفسه، أنا كذلك لم أحك عن عملي.. نعم! اصطدم بطفل في حارة ضيقة.. زقاق يتألف من خمسة بيوت منوراً جيداً.. رمى الطفل إليه نظرة ذات معنى: الحارة سد يا عم! كيف لم تنتبه إلى موطئ قدميك..؟

قالوا : خرج .. عند كارم بيه.

كان يتذرع ببعد المسافة بين بيته وهذا الدوار الرابض قريبا من الأسفلت مثل جمل بارك تعباً وإهمالا. أمامه تمرق السيارات. لا يرى سوى السور العتيق والأشجار العالية خلفه. هذا الطفل كان يسكن في مكان ما خلف هذه الأشجار. اقترب إسلام من البوابة وبوغت بالطفل يثب داخله. تباطأت خطواته. رآه في المريلة يرنو من فوق الكوبري إلى السور، ورآه في بنطلون وقميص.. ينتظر الأتوبيس، يستشرف سحابة الدخان والزمجرة العجيبة، أحس أن رغبة جارفة تسحبه إلى عالم بعيد شائق، ورأى الطفل يغلظ عوده وينبت شاربه؛ يلقى في أمنية لا تتحقق نظرات التناسي إلى الدوار.. يتمنى أن يرى صديق الطفولة. وفي الجامعة ظل الخيط الرابط بالقرية. أين يرى أشجار اليوسفي والزيتون أو تفعم أنفه الرائحة. حدث نفسه: لم تعد هنا بوابة.. أكل الزمن الخشب الأصيل.. تدخل القطط والكلاب، أين الأشجار؟ ما تبقى سوى أعواد جافة وليل مترع بأصوات الحشرات. لمبة الفقراء معلقة في المدخل. تذكر أباه

ومدرسيه وأصدقاءه، صدى الأحاديث.. كان لا يصدق كلمة مما يسمع.. الاستعباد الظلم. نهب الفلاح.. يثب صديقه أمامه.. مسكيناً، نعم.. توافق أمه لتهدئه: حقاً يا بني.. من يعش في هذا الخلاء.. دون أهل.. دون أقارب يكن مسكيناً..

تقول له الأم: البائسة حقاً هي الهانم أمه..! فتح محسن الباب.. رحب وقاده إلى الصخب .

أنت صديق غرقت في الوحل. ما تزال بعض الأحزان تملأ الوجه ذا العروق النبيلة.. احتفظت مثلما حلمت بعينين صافيتين غير حاقدتين، بقع دقيقة في حجم حبة القمح تبرقش الوجه بظلال حمراء.. انحنى العود الفتي أمام انسحاب الحياة الدافئة.. همس لنفسه: كم نحن ظلمة! للحظة تلبث في حيرة صادقة وبغيظه، كيف يناديه؟ اغتاظ حين قدمه محسن قائلا: الأستاذ كارم، قال : تسمح يا كارم بيه؟ ضج الثلاثة ضحكا.. تلاقت النظرات .. محسن وكارم وثالث لا يعرف إسلام..! لم يشاطرهم العبث أو ما رآه عبثاً.. قال كارم مضيفاً: هذا الأستاذ عاصم صديق من المدينة.. تركوه يستطلع وذابوا في دخان دسم طويل المكث حيث يمر..! ترى كم غرفة في هذه السراي ؟!

نظر إسلام من فوق ذرى الصمت إلى "القعدة" بأدواتها وأربابها.. أمامه الحقيقة والوضع.. الموقد والفحم.. الشيشة تضع القعدة في إطارها الصحيح.. مذهبة الحواف؛

طويلة في رشاقة تليق بقدم المكان والمتبقي لصحبه من إجـلال. تابع أخا المدينة يرمى الأحجار ويوالـى رفـع المنتـهى وإبدالـه.. قريـب محسـن مــن كــارم، لغتــهما مشــتركة. ألا تــرى كيــف يتضاحكان لا يهم من يدفع.. زجاجات البيرة تغنى مـن لا يبغـي الأنفاس.. تساءل محسن فجأة..

- ألن تشرب..؟ أم اعتدت مع السياح الصيام..؟
- تعلمت الشيشة..

ألقمه محسن المبسم قائلاً :

- مرحبا بالعضو المتبطل ..

بعد نوبة من الضحك قال كارم ..

- أنت شرفت بيتي ..!
- أشكرك ..
- والفضل لصديقنا الشاعر.

أسلم اللاى للأخ الغريب.. مال قليلا بعـد أن تربـع فـوق الطنافس المتناثرة على سجادة قديمة باهتـة.. دقـائق مـرت فيـها تشبع برائحة الغرفة الغريبة.. خليط من رطوبة المباني وعطـن تنفثـه الجـدران وتوليفـة المعسـل والحشـيش.. مـع كـل هــذا لــم تنطمـس المزخرفـات الجصيـة العالقـة علـى شـكل مقرنصــات بالسقف المرتفع.. قال ..

- كم تمنيت لقياك..

- حدثني محسن عنك كثيراً..

- منذ زمن بعيد وأنا..

تدخل محسن لإحساسه أن اللحظة جد مناسبة..

- صداقتنا تلاقت في نقطة هي الافتتان بهذا المكان وبك..

لم يجد كارم كلاماً يقوله أكثر من حقيقة وضعه..

- حبي لهذه القرية ولأهلها أبقاني هنا..

أحس إسلام أن ابتعاده عن القرية لأكثر من عامين حقيقة ماثلة أمامه، يسمع ويرى لا يختلق المشهد، لا يفتعل ضغط الرؤية أو المشاركة؛ ذاته ملقاة في حضن اللحظة؛ الارتياح لما يرى، الرغبة الحقيقية أن يتكلم عن نفسه وذكرياته البعيدة وتمسكه كل هذا الزمن بهذه الروائح الفوّاحة.. داخله؛ إلى أن تحولت - وقت القلاقل - إلى ركن هادئ؛ تتماوج ورقات وردية في حلقات مزهرة. في ضوء نيوني ممتزج بضوء أخضر ينتشر عن لمبة مثبتة فوق باب الغرفة.. تبدى كارم تمثالا جالسا؛ نبل وعراقة القدم. محسن يتطلع إليه تطلعه إلى عمل إغريقي ساقته الصدفة إلى هذا المكان.. شرد في المنضدة الملتصقة بالجدار أسفل نافذة مغطاة بخشب الأرابيسك كستارة كثيفة؛ لم يعرف أحد فيم كان شاردا ولماذا صمت.. إنما حالته المفهومة؛ ثوان وقال عاصم من خلف ظهر كارم :

- لا رأس لي لأكتب الشعر.

همس كارم بعد أن خلا فمه من البرتقالة..
- احمد ربك وإلا سحقتك رأسك.
تجرأ محسن فصرخ..
- والمرشد؟.
- إن كان حديثكم عن الشعر، فأنت تعرف.. لم ينفعك الشعر، لم ينشر لك أحد، لم يسمعك أحد، وتعلقك بالكتابة لا يمكن أن يكون عبثا. السؤال لمن؟ لأب فلاح أم لمحامي نصاب؟!
لم يضحك أحد. بدا التجهم ملحوظا منتشرا في صفحة إسلام .. تساءل ..
- متى تنتهي هذه القعدة..؟
- قبل الفجر..!
أكمل إسلام :
- جئت لأطرح هذا السؤال من منطلق الحب: لماذا لم يترك كارم بيه القرية وبقي هو والهانم؟!
أعاد كارم إلى القعدة سكينة لم يقتنع بها أي منهم...
- تعرفون أنني لا يربطني بجدي إلا "اسم العائلة" لم يره أبى.. وأنتم لم تروا واحدا ممن أذلوا أو عذبوا.. تسمعون مثلي. لم تجد الثورة عند أبى شيئا تصادره، هذا القصر ورثه ودفع ثمنه! أمي حكت إنه رفض سلوك أبيه .. انطلاقا من علاقته بأمه.. ترى كيف يعيش ابن مع أب سرق ابنة

فلاح من حضن أبيها. تزوج بالكرباج في يده.. سافر وترك أمه.. مات أبوه بعد عامين من سفره وحين عاد قرر أن يظل هنا.. وتزوج واحدة من أهل أمه. ربما أعشق هذا المكان مشدودا إلى مأساة جدتي؛ ولا أنكر أن الظلم كان يحتل نصف المكان.

قال محسن:

- مات جدك ولم يمت الظلم..
- وأنا شاكر لأبيك لاحتفاظه بهذه السراي..
- كيف؟

إسلام :

- لا أدرى. لكن لا يعجبني أن أرى القصور مسكونة من موظفين يتبولون فيها وتتبرز أطفالهم فوق فسيسفاءها..

تدخل محسن ..

- كنت أتأمل دوما تصرفات أهلنا.. ماذا يفعلون مع فتاة فقدت شرفها ..؟
- يقتلونها طبعا..!
- قبل ذلك.. يشوهون جمالها بقص شعرها.. تاج المرأة فوق رأسها.. هكذا فعلنا مع "الجمال" الموروث..
- ربما لأن الجمال لا يؤول إليك مع الميراث..
- يؤول القبح..

قال عاصم :

- كفانا.. أنا أنعس..

خمدت النار في الموقد.. وراح عاصم يكوم قشر البرتقال في سلة البلاستيك. وجدا - محسن وإسلام - الفجر يتمطى خارجا من لحاف الليل .. مفضضاً له أظافر تخمش وجهيهما وتنزلق بين الملابس؛ يرتعش الدم في الأوردة؛ غرق محسن في غيبوبة استغرقت المسافة من باب السراي حتى الطريق الإسفلتي؛ صامتين سار صوب الكوبري.. ينصتان إلى تراتيل فيها الأصوات متداخلة متشابكة؛ الآذان ترتقى مصاعد سهلة ممهدة؛ همس - محسن - إلى الفضاء:

نساء قريتي رجال ... رجال قريتي نساء

رفيق شقوتي كريم ... ويشقى ليلنا الأباء

أأحكى له عن حبنا ... لأريه ما يرى الشعراء ؟

- ٧ -

قال الشيخ ناظراً لزوجه ..

- خادمة ..؟!

جانباً وضعت الصندوق الخشبي. ابتعدت عن إسلام قليلاً ليرى التقطيبه وهى تتشكل..

- لا نريد مالك ..

- قلتم اقترح.
- تكلم يا أبا إسلام.. قل دون لف ودوران..
- تأتيني بابنة ناس طيبين.. تنضم لعائلة الأزهري.. كابنة لا كخادمة..
- أتزوج ..؟!
- ترى أمك حفيد الأزهري بعد أن رأت حفيد الكومي..
- الوقت غير مناسب يا أمي ..
- عندها حق. بلغت الثلاثين، مرت سنوات ثلاث، لم نكن نراك .. ننتظر وندعو الله ألا تغريك أجنبية .. والحمد لله عدت سالما ، لديك المال.. والبيت كله لك.. ماذا يمنع ؟

دق الباب قبل أن ترى أمه شفتيه تتحركان بما لا تحب.. إن رفض شيئا تشبث بالرفض.. ارتاحت وهدأت وارتاح هو أيضا. وجد المرأة التي ناداها أمس من أمام البوابة.. كيس بلاستيك ممتلئ ليمونا أصفر بين يديها وملتصق بصدرها.. أطال النظر إلى المرأة إذ راحت تحملق فيه.. رمى عباءة أبيه فوقه حين قام. شعر ببرودة الشتاء رغم امتلاء الفضاء بدفء الشمس. لا تزال الفلاحة تحملق في الوجه المطوق بسمرة العباءة ابتسم لها، وضعت الكيس بين يديه وسألت عن صحة أبيه وأبدت استعدادا للعودة لتختفي الملابس الرثة النظيفة ذات الألوان الزرقاء والحمراء، وتركها إسلام مع أمه وعاد إلى

أبيه.. ما إن جلس حتى قال ..

- لست مستعدا لهذا الأمر..

- أليس من حقها أن تفرح؟

- نصبر قليلا..

أحس الأب بأن الريح في الخارج تقتلع الأشجار.. تقتلع الناس من مرقدهم.. ترفع أجساد الماشيين في الشوارع وتطوحها في الفضاء.. رنا إلى أبنه متمنيا أن يسرد أمامه كل ما تمور به ذاته.. ما يعرف وما يرى؛ تحادث أنامله حبات المسبحة. طالت ثرثرته مع الليل ونفسه؛ حادث مسبحته. حادث أشياءه ولم يفشل أن يصنع من ذاته المتعبة بئرا عميقا. لم يسمع أحد ولم يعرف.

- أبي ..

- ستوافق من أجل أمك ..

- اتركوا لي شهرين أدبر أموري ..

من خلفه ترى عيني زوجها محمرتين.. ووجهه مستعرا بتصميم لم يكن موجودا قبل ذهابها.

- اخطب .. وبعدها ..

طلقة أطلقها :

- لا ..

أعتورت الأم حالة بؤس ويأس وعقم ..

- اسمع يا ابن حضني.. إما أن تخطب أو تفارقنا..

ظلت "لا" تتردد في أذنه.. ثم تحولت إلى كلمة صماء تضرب الأذن على هيئة طنين.. تناول الأب روح الأم الهائجة.. شرع يرتل صلواته ..

- اصبري يا حاجة ..

- أكل صبري.. كثير على أن يكون أبني في حضني.. يطيع أمه.. واحدة مشت وراء.. طيب هي زوجها غريب.. وهو..!؟

- إسلام لنا.. اطمئني .

جاهد أن يؤوب إلى حالته الأولى..

- كلى لك.. بعض الوقت..

- اخطب أولا ..

- يا أبي..

ملأت الدموع الحدقتين.. تعمدت ألا ترفع يديها بالمنديل.. تدلت الشفة السفلى.. قال الأب ليهدأ الاثنين ..

- عاصفة وتمر ..

كظمت الانفعال وصرته جيدا في قلبها. صدق حدسه. قالت بصوت يخنقه البكاء:

- كما تحب.. سأعتبرك لم تعد..

التزمت حجرتها..

- ٨ -

لم يصدق الشيخ أنها تفعل.. حذر ولده قبل أن تهب العاصفة الحقيقية. جالسة في غرفتها ليلا نهارا؟ وحين عودته من المدرسة حادثه في غرفة الضيوف؛ ويعد إسلام أنه سيفعل؛ سينفذ؛ يعود الابن المطيع.. يكون الطلب الخاص بالشيخ المدرس على اللسان .. في اللحظة الحرجة يتراجع. يقول: ننتهي أولا من موضوع أم إسلام: حصر الموضوع في رغبة أم. لم يصدق. ظلت يوما ونصفا إلى أن نهض مستردا عافيته ورأته يرتدى بدلة الشغل.. وتركته يكتشف بنفسه أنها جادة. كيف تنسى أن البيت به غرفتين خاليتين ؟. واحدة كانت لحنان وثالثة كانت لإسلام. هل لوضع قفلين على البابين ظننتما؟ .. فتحت التي بجوار الحمام.. ورتبت كل شئ. قال الشيخ في نفسه: حتى أنت مذنب ومدان وشريك في العصيان. تعود من الشغل تجد غرفتك مرتبة. كل شئ في مكانه إلا فراشها.. خال.. خاو .. أنفاسها تتردد في الناحية الأخرى لم يصدق إسلام لما دخل ووجدها قد أغلقت الحجرة في وجهه. سأل أباه أول يوم..

- إنني لن آكل بمفردي ..

رد الأب في حسرة ..

- أعادتني للأيام البعيدة..
- أراض يا أبي عن ذلك..؟
- حاول أنت أن تثنيها عن قرارها..! هذا هو سلاحها.. قبل أن تولد كانت تشهره في وجهي.. كان البيت حجرتين مسقوفتين بغاب وخشب؛ العجيب أنها تحرمك من فرصة رؤيتها.. تجد الطعام جاهزا.. ملابسك مغسولة ومكوية.. البيت نظيف.. أول مرة كان الأمر صعب علي.. أخبرتها بعد هدوء العاصفة قالت: أنا أحمي نفسي.. أعاقبها بحرمانها من رؤية الشخص العزيز.. واعتدت. وأنت رأيت هذا مرة أو مرتين..
- لم تكن تمنعنا من رؤيتها ..
- كنت أنا المقصود ..
- أذكر أنها أدخلتنا في الحصار أيام حنان..
- وجاء الدور عليك..

خرج صوته حزينا :

- أظنها مريضة يا أبي..
- إنها تعاقب نفسها..

تضربـهما سـوطا وتتلقـى هـي نفسـها سـوطين.. تغلـق دونهما الباب وتتغلق دونـها الحيـاة والدنيـا.. حيـن فعلـت فتحـت الغرفة بعينين سكنهما نصف الظلام.. والنصـف الآخر يعـارك ظـلال متأرجحـة تمطرهـا الأفكـار الكئيبـة.. فاجأتـها العتمـة والرائحة.. سمعت خشخشات؛ فتحـت متسلقة سلما خشبيا ذاك الثقب المرتفع.. القناة الوحيدة التي يتسرب منـها النـور والـهواء النظيف. يدخل إسلام لتحول وجهها. في وجوده تختفي تماما من الصالة. إن باغتها في المطبخ تضع يدها فوق رأسها.. تترك كل شـيء وتتـأوه.. " أمـي..أمـي " لا تنظـر ولـن تـرد. تتمـدد فـوق سرير ابنتها.. وتثبت عينيها على النور القادم من الثقب ويذهب. ثلاثة أيام مرت ولم ينجح. همـس فـي أذنيـها. أسـمعها مـبررات صـادقة؛ لثم جبينها.. ترك نفسه تسبح في بحر الغرفة.. اسـتجمع أشجانه وخوفه عليها وقال كل شيء. بكـى فـي أحد الصباحـات بجانبها، أعلمها أنه يرفض الأكل في غيابها وقال إنـه بـالفعل لا يـأكل. الوجـه ناحيـة الجدار. كـان يدخـل ببؤسـه وندمـه.. كأسـا ممتلئا مرارة. وأدخـل أبـاه فـي هـذه المحاولـة. لـم تعـره أذنـا أو تعطيه وجها كانت صامتة صمت جثة ملفوفـة فـي كفنـها.. لـولا أنها تتنفس لصدق الهواجس إنـها... لا ... يعـرف أنـها تنتظـر التوبة بالعمل.. ما أسهل الكلام..! كان يحادث نفسـه فـي غرفتـه بعد كل نوبة فشل: ما أصعب الكلام.. كيف أوافق.. ليتني أقدر.

أنتم لا تعرفون عن إسلام شيئا.. لا أنت ولا أبـي.. ويفرد ورقـا أمامه.. لفات من ورق مكتـوب.. يحرص ألا يـراه أحد خاصـة أبوه..! يقرأ لأن ما فعلته أمه لم يترك لإسلام العائد من الصعيـد (مثلما يقال في محيط السكن والمعارف) أقل رغبـة أن يخرج.. أيقابل محسن؟؟ فكر أن يكرر زيـارة الـدوار؛ لا سيما أن اللقـاء جاء مثل تحقق حلم أو دفقة أمنية دافئة.. راودت صاحبها سنين، الذي شرق وغرب، وهذا الشـيء الدافـئ الجليل بوجوده لـم يتلاش .. عاش إسلام يحمله مثل جرثومة حب.. أصابت الجسـم في وقت الضعف.. ولم يقو قط أن يغلب هذه الجرثومـة. تراجـع عن فكرة الزيارة للمرة الثانية. يصحو ليجد أمام غرفتـه سـطحا نظيفا محميا بسور مرتفـع.. فـي حضـن أراض مزروعـة .. لم يقاوم جلسة في شمس ديسمبر! كـانت العاشـرة.. صحـي ووجد فطوره مثلما تفعل كل يوم.. كاد أن يستسلم.. رأي امرأة قادمـة.. تختار الدرب المفروش بالشمس لتسير فيه.. منـذ شـهور لـم يـر امرأة في جيبة طويلة رقيقة.. وبلـوزة أسـفل جـاكيت مـن الجلد الأسود.. تصهل للشـمس.. اقتربت وعرفـها، وقفت أمـام بيتـه، اختفي خلف السور قبل أن تـأتى نظـرة إلـى أعلـى.. وهبـط إلـى أمه.. أسفل الغطاء ولا يبيـن غير وجهـها الشـاحب.. لمـح القيـد يتراخى قليلا.. فرصتي.. وجود هذه المـرأة عفـو مـن الله.. تقـدم أمام الست مرحبا.. وحين دخلت ظل واقفا ..

- أهلا أهلا يا أم أمل.

وجلست..! حرصت أمه أن تعانق أم أمل جالسة ضاحكة باشة، تلمع عيناها ببريق فرحة غير مفهومة، النظرة المختطفة من حضورها الكامل، مع ذلك ما أن جلست الضيفة تحسس الدفء يفعم الغرفة.. الرطوبة والغرفة المحرمة عليه كلتاهما ذهبت بددا ، شئ بداخله ناطق بلسان الهدنة.. تحمس وأبطن الإصرار أن يمشى معهما مستمعا متأملا..

- حمدا لله على سلامتك .

ورنت إلى إسلام بعد أن خلعت الجاكت الجلدي محركة ذراعيها في بطء وثقة ثم أضافت :

- وسلامة الأستاذ إسلام..

طبعا لن تلتفتي إلي يا أمي.. طيب لن ينفذ صبري ولن أترككما.. أين المرض ؟. كيف تحولت بشرتك بهذه السرعة إلى الاحمرار..

- هذا ببركة دعاء أمل.. الملاك..

وخصت أم أمل إسلام بنظرة أشعرته أن عيني المرأة نكحت وجهه وعما قريب سيكون في معمل التجارب الكيميائية.

- ماذا بك يا أم إسلام؟

آه .. لماذا ؟ آه من النساء لما تدس أنفها .. انتظر وشنف أذنك.

- الشيخوخة .. وكوابيس لا ترحم ..

قال إسلام لنفسه : وقعت بين الريح والأمواج.

- وكيف حال الأستاذ .. ؟

- بخير.

قال :

- أنت لم تشربي شيئا ..

- يا ولد أنظر أمامك ..

من فرط فرحته لـم يفعل؛ ابتسـامته انفرطـت وأشـبعت وجهه الأبيض.. مما حرك المرأة أن تطلق ضحكة.. وحدقت في العلبة الملونة.. قائلة..

- سياحية..

- عاد بهدومه..

- عمك عبد الصمد دائما يقول أن ما حصل كارثة.. كيف ؟

تدخلت أمه .

- طبعا.. ناس ماتت بدون ذنب..

- صحيح.. لكن المتر دائم الشكوى من الزبائن.. وأنـا لا أفـهم إن توقفت السياحة عـام أو اثنين الجرائم لا تتوقف.. لكنـه دوما هكذا. قال..

- عند الأستاذ حق.. السياحة لم تعد مثل زمـان.. بضعـة آلاف كـانوا يعيشـون منـها.. اليـوم ملايين تنفق علـى السـياحة..

وملايين يتعيشون من دخلها.. لمـا يقول الأستاذ إن زبائنـه تغيروا.. معناه أن الركود يمسك بخناق البلد.. هذا صحيح.

- إلى متى..؟

- ربما أعواما..

ما سمعته أم إسلام وصل إلى صدرها كنسمات رقيقة.. حال رؤيتها له وخزته بنظرة يفهمها؟!

- ماذا تفعل هنا؟

ضحك وشرع يعبث في شعره المسترسل خلف رأسـه؛ أبدى اعتراضا على الذهاب خاصة أن أم أمل تضاحكه.

- هيا.. اتركنا..

همست أم إسلام بوجه مكتس بجدية ..

- إسلام رأي سائحات.. خواجات من كـل شـكل وصنـف وأخشى ..

- لا .. أمل تقش.. "على رأي أبيها" ..

- يبقى موافق ..

- موافق.. لكن..

وصمتت.

- أعرف.. له طلبات..!

- مطلقا .. إنه أب في النهاية يهمه سعادة ابنته..

- ماذا إذن؟

- لم يأت الأستاذ.. وصراحة كلمني في هذا الأمر..

عانقتها أم إسلام.. راحت تقبلها.. أحست أنها في لحظة الرقص والزغردة. سيطرت على أشجانها.. ودعت المرأة وعادت إلى رقدتها..

- ٩ -

بعد أن صلى الشيخ العصر صعد لابنه.. في الحجرة جلسا على مقعدين أمام الغرفة.. قال الأب :

- تعبت يا بني ..

أحب إسلام أن يتخلص من ثقل الذنب فقال ..

- أنا بريء..

هاج الأب ..

- بريء ؟ دوما كنت تعاندها.. في النهاية يكسرك حبها.. ألم تعد تحبها؟ أتدري ماذا فعلت بي؟

وتطلع إلى سحب داكنة في السماء.

- تعرف يا ولد.. كان للموضوع فوائد.. زرت السيد البدوي.. تقريبا يوميا.. هناك أجلس.. أقابل أصدقاء.. وأجلس على المقهى ساعة كل يوم..

- سأخبرها..!

- اخرس..!

هذه لمعة برق لاحت في سماءك المعتمة ..!!

مع انقضاء اليوم الأول وقد غابت خلف باب الحجرة المغلق.. ها هي ليلة أمضاها في الحجرة وحده يعارك الماضي الجاثم في ركن الغرفة، فوق ستارة النافذة الصامتة، يصارع الصور بألوانها الزاهية القادمة من عالم الصبا.. يرى نفسه شابا مفعما بطموح لا ينتهي.. يحادث أباه في موضوع واحد.. لا أريد الزواج! أريد مواصلة رحلتي في التاريخ.. أعرف لماذا تواصلت حلقات الانكسار.. لماذا غاصت نجوم انتصاراتنا المتوهجة في ليل طويل مظلم؟ الزواج قيد..! منحته زوجه ليلة طويلة يستعيد لحظات دافقة.. مترعة بالأحلام.. أحلام اختفت تاركة جذوة حية أسفل رماد نفسه القديمة.. تمر ليلة أو يوم فيهما قوة البعث.. تتقد الأحلام وتنفث في روحه قوة لا قبل له بها.. رأي الشيخ أحمد الأزهري.. أباه.. حاملا لفات القماش فوق كتفه.. عائدا إلى الدار.. له لحية بيضاء ووجه باش باسم.. رأي الدار الواسعة وأخواته البنات الثلاث.. ينتفض عائدا إلى المكان والزمان.. لم يبق مستمتعا بالحياة غيره.. بعد زواجه بأسبوع ماتت الأخت الكبرى.. عذراء مستسلمة لرغبة أب.. هو أيضا استسلم وتنازل عن حلم "التجوال في دروب التاريخ " تتزوج ابنة صديق الأب.. ينصت لكلمات أبيه كأنما حفرت

بسبب من ضعف أو حب.. تزوج يا بني ".. ابنة أزهري حقيقي.. حاملة كتاب الله مثلك.. "كان يوقن أن أسطورة موت أبيه قبل رؤية أحفاده اكتملت.. ينام أبوه بها ويصحو.. مع ذلك مات متآكلا وسط خيوط نسجها العنكبوت العملاق. إنهار العالم مع أول ليلة من زواجه.. وتحول إلى نقطة في بحر التاريخ.. يقرأ نفسه أثناء انسيابها وسط اليوم القادم. لم يكن يعترف بحديث الإنسان إلى نفسه.. من أولئك المدرسين الذين يقفون في الفصل كأنما دفعوا إلى ساحة المعركة، قادة جاءوا لأنهم الوحيدون القادرون.. كيف سرت في هذا الطريق الطويل؟ سأسمع صوت نفسي.. إلى مسجد الأحمدي..

هناك..

رذاذ خفيف ينقر في تناغم الطاقية البيضاء.. سحب العباءة. دهش للمعة الرائعة على الأسفلت. تابع انعكاسات الأنوار.. أخذ طريقه إلى ساحة الأحمدي.. منذ متى لم تأت هنا.. لم تر البشبيشي وفندق عرفة؛ "حب العزيز يا بيه.. بخور هندي يا أستاذ، سبح، عقود، لعب أطفال من البلاستيك، حلاوة طحينية، حلاوة مشبك؛ ".. كيف تمر ولا ترى.. أصحاب الحياة..؟

بدأ بحجر معسل.. رحمة الله عليك يا شيخ أحمد.. لم تختف الأريكة الخشبية.. طببوها بمسامير وشرائح الألمونيوم.

ها هو الشاي وكوب النعناع الأخضر.. جلس أبوك هنا.. أسند ظهرك لهذا الجدار المملط المدهون بالزيت.. رائحة البخور والتبغ تتسرب الآن إلى مسامك تهدر في الشرايين.. ما فائدة حياة في صحراء البشر الكاملين.. الكمال المطلق مثل السماء الرصاصية.. لست تطوله ويغريك بإحساس قاهر ساحق.. يجلس صاحب المقهى.. ولد هنا في هذا الرحاب.. يا لهذا الكون ولماذا هي حالمة رائعة نظرته.. مقعده المرتفع.. إرث الأب والتمسك به.. ثرثرة الغياب والحضور.. الرؤوس تتقارب، والمقاعد لها أهلها.. لم تمر السنون. النوافذ تعطيك الساحة كاملة.. نظيفة مغسولة الآن من مطر لم ينقطع. ابعد يا هارون عن الأكشاك.. لا تقترب من الناس الراقدة وتسأل أباك "آلا يمتلكون بيوتاً ينامون فيها.." يمد ساقيه وينظر إلى المئذنة" هم في رحاب البدوي ". تجرى لما ترى حلقة من الرجال والنساء حول الرجل "أشوف الرفاعي يا أبي.." طيب يا هارون.. لدغة الثعبان موت يا ولدي. موت..؟ لماذا الحروب؟ نريد السلامة. النافورة أكلت جزءاً من الساحة.. لم تعد الأطفال ترفع رؤوسها لترى المئذنة.. أمامهم المياه صاعدة هابطة.. ولأي هدف ؟! يعرفون الآن أن الصعود والهبوط موجود.. انظروا إليه وامتلأوا به.

آذان المغرب..!

انتهض لتصلى..! أنت ونفسك ولا يجاورك إنسان.. لا ينظر أحد في عينيك فيقرأك. الإحساس بالذنب جزء من التوبة.. تقف على المنبر وتشد عيون الفلاحين وآذانهم.. أنت تكتشف أن الخطبة لك قبل أن تكون لهم.. كلما تناولت سيرة الخلفاء الراشدين ورأيت التأثر يفيض على الوجوه؛ ارتد إليك.. خلع على وقفتك انفعالا مضاعفاً.. تنطلق ولا يمكن أن تكذب أمام ذاتك. من أنت؟ الذي يخطب أم الذي يسمع أم الذي يقف أمام الناس؟! تسير ظانا في البداية أن لا غيرك في الطريق.. ثم تفتح عينيك لتجد الحشد.. يدفعونك بالمناكب.. لست غير واحد من آلاف.. إلى أن يوقفك أحدهم.. أنت الشيخ..؟ تفيق لتقول أنا..؟ لذيذ هذا الإحساس بالندم.. الإنسان يبحث عن الدمل بنكشه..! ظل جالساً مستغلاً جهل المكان به..!

- ١٠ -

صحوا على صباح شمسه خلف غمام أسود.. تنذر السماء بهطول أمطار تغرق الحديقة، من النافذة عبرت عيون الشيخ إلى الفضاء بحثاً عن ضوء. أضاء لمبة الصالة، تابع إسلام. وقال إسلام أنه يبيت ليلة في فندق وفي الصباح يمر على الشركة.. يسوى حساباته ويعود. النهار لا يبشر بهجمة قصيرة

من المطر المدرار.. خرج إسلام فوق كتفه حقيبة صغيرة.. عانق أمه بعد أن تممت على ملابسه. البلوفر الصوف، والبنطلون الصوف. اتجه الشيخ إلى المسجد ركضا مخترقا مطر يخترق جسده. وجد القرية كلها. فلاحين.. مدرسين.. طلبة.. لم يحل المطر دون حضورهم. لما عاد إلى بيته رافقه محسن إلى الباب. حاول أن ينسى سفر ولده في هذا الجو الشاذ، لم تحمه العباءة من لدغات البرد، اندس في الفراش بجوار أم إسلام، طرح البطانية فوق جسده، لم يستطع النوم إذ أحس أن جسده يطفو فوق سطح بحر من الجليد..

خبطات ترج البوابة ..

سمع وظن أنه هزيم الرعد في الخارج؛ لا يمكن أن يصدق أحد أن هذا المطر ينقطع..

"خبطات ترج الباب .. "

تضرب جسدها الريح والمطر يلتمع مثل شفرات سيوف مشحوذة. كلما حك في ملابسها رجع أصواتا ونقرات، أحس الشيخ أن ابنته على مشارف السقوط وأنها لا ترى جيدا، فتح البوابة.. تابع قطرات الماء راسمة معالم قدوم حنان. في دفء الغرفة مغلقة النوافذ جيدا متوهجة الإضاءة انتهى مشوار العدو أمام الأم.. طرحت بطانية ثقيلة دافئة فوق ابنتها؛ ظل الشيخ هارون واقفا إلى أن تخلصت ابنته من الغلالة البيضاء

وخرج وجهها مكدودا معبئا بدم ملتهب.. وتطوح الشعر مبلولا كمن أخرجوها من بحر ووقفوا يتأملون إنسانا لم يغرق وأمام أهله استرد الوعي والحقيقة.. هرعت الأم إلى المطبخ.. عادت لتشعل مدفأة البيت مثلما كانت تفعل وحنان عائدة من المدرسة وجاء وشيش "الباجور" وكانت ترتجف؛ شفتاها مطبقتان على أسنان مصطكة؛ دقائق انزلقت البطانية عن جسمها؛ كانت خلعت عباءتها السوداء وراحت أمها تطيل التأمل شاردة فيما ترتديه من ملابس كأنها تحصل على ما يستر جسدها كصدقة.. قميص أبيض رخيص لم يسبق للأم أن رأت مثله؛ لا تصدق ما ترى.. أهذه حنان ابنتها؟ الوجه المسحوب شحب وذهبت نضارته مع تبخر اللحم.. كانت تغمغم غير مصدقة؛ شعر حنان الطويل ما يزال محتفظا بلمعته.. جاء الأب "بعدة الشاي".. طلبت منه أم إسلام إحضار "الحلبة" من المطبخ .. وفي هذه الأثناء بذلت حنان محاولات مضنية؛ أن تصمت؛ قالت:

- همام .. الولد !

الأب متكوم فوق الكنبة داخل عباءته؛ رأسه عار؛ تبدى مسكينا مهزوما، يتحسس رأسه بيده، صلعته التي أكلت نصف الرأس من الأمام. دفنت رأسها في العباءة.. راحت تنشج.. لم ينطق الشيخ كلمة.. إذ أربكت جوارحه هذه اللحظة الجارفة؛ حبات الدموع في عيني زوجه ثقيلة متلاحقة منتشرة..! قالت

للأم ووجهها في مصب الأضواء والظلال المرتعشة المصحوبة بوشيش "الباجور الكيروسيني"..

- حجرتك نظيفة .. لن نتحدث الآن في أي شئ ..

رفعت وجهها لترى الأم شيئاً ضئيلاً، فيه ضمور الجوع ومكابدة الاحتمال .. العينان الواسعتان في حضن ذبول بارد؛ أيمكن أن يصفو الجو؟ تكف السماء عن التحديق في أفعالنا؟ أيمكن أن تكون هذه اللحظات الدفقة الأخيرة وبعدها الالتئام..؟!

- قومي يا ابنتي ..

كانت دارت في حجرتها؛ ترتطم بالجدران؛ تجمع ما يمكن أن تجمعه.. من ملابس؛ كتب الأخوان وبعض كتيباته؛ وبسرعة حشرته في الحقيبة؛ أوقفوها وحين سمحوا أن تذهب كانت بالعباءة السوداء الطويلة وفي الشارع، فوق الأسقف، وعبر النوافذ رأوا المطر.. لم يمنعوها وهى خلف نفسها سارت. "أخرجي .. من تنتظرين.. أنا هنا.. "هو صوته.. إسلام أخي.. بصوت تخنقه الدموع سألت :

- أخي. أين هو.. أنائم..؟

من يدها إلى الغرفة. في الطرقة همست الأم.

- في القاهرة .. غداً يأتي .

نامت يوماً كاملاً وليله..!

- لم يأت أحد ليسأل عنها..!

وكلما سأل وأجابت الأم أنها ما تزال نائمة.. قال..

- لم يأت أحد ليسأل عنها..

بعد يومين لم تكن كل الحفر جفت، غير أن الشمس بخرت الماء من الشوارع.. ومن فوق سطح البيت رأي الشيخ سطح حقل البرسيم متموجاً بفعل رياح خفيفة؛ ترك لنفسه الركن المنجذب إلى الألوان الخضراء الزاهية.. أمام حجرة ولده المتكئة على الشارع كان يجلس؛ ممدداً ساقيه فوق مقعد خشبي.. وحين هبط سألت أم إسلام..

- مرّ يومان ولم يعد إسلام..

- ربما منعه المطر ..

مع أذان العصر رنّ التليفون. كان إسلام يتحدث حين سمع صوت أخته.. قالت:

- أنا بخير.. معي أبي وأمي..

- ...

- لما تأتي..

- ...

- واظب على الصلاة في المسجد.. ولا تمكث طويلاً داخله!!

أخبرت أمها أثناء إعداد الغداء بأشياء ولكنها تحدثت بعد إفاقة.. همّام لم يعد. تطحن فصوص الثوم والأفكار تطحن

رأسها. تراقب الفصوص في تفتتها. تستمر محدقة إلى أن تتمازج الفصوص بعد أن يضيع شكلها ويصبح الوجود الجديد والجأ أنفها؛ من حين لآخر تحدثها أمها. إيماءة همهمة؛ وتنغلق، في الداخل تركض خلف فكرة بدت هي المسيطرة.. ماذا لو لم يعد همّام؟ ماذا لو كان..؟ لكنك تعرفين أن هذا سيحدث. لن ينفع التكتم. لماذا لا تعطين الشيخ أذنك وعقلك؟ جرّبت وسمعت كثيراً وكثيرين، إلا هذا الرجل.. أباك.. اعترفت بينها وبين نفسها أن زوجها وعد بأشياء كثيرة. كيف يفكر الرجال..!؟ كلما اختلفت معه أو تجادلا تبقى لها هذا السؤال.. لا ترغب من وراء حضور الدروس في المساجد؛ والجلوس مع الأخوات إلا أن تفهم الصحيح من الباطل؛ يصلّي، يحسن معاملتها، أغضبها مرات وتساهلت؛ لم يشتر شقة ولم يفارق بيت أهله؛ وظلت في الغرفة.. سنوات؛ أنجبت حازم ولا تعرف ماذا يفعل بإيراد دكانة العلافة.. "والغرفة صغيرة وكئيبة.. "اعترف في الليلة الأولى، نظرت متسائلة: "اتفقنا أن الله مع عباده.. ونحن نبتغي رضاه" ومع ذلك وعد منك.. "بصدق قال لها وقتها : "طبعاً إن شاء الله شقة لنهرب من تحديد النسل" رمقته وهي غير مصدقة أنها تزوجت وليس هذا فقط، أبوها جاء وحضر زفافها؛ ولكن حازم جاء ولحق به اثنان.. ماتا.. اثنان فيما يبدو كانا طرقات على قلبها أن الغرفة كما هي.. وهمّام يدخل يخرج وتحصي له

الساعات. وهو الذي قال "عودي إلى دروس المسجد. دعي حازم مع جدته.." ليست جدته؛ بل هي زوج حميها. ورضخت إذ اكتشفت أن المرأة من أولئك المستسلمات، الراضيات برؤية رجل ولو اختار الصمت منهجا؛ إلى أن عرفت أن صمته نعمه وكلامه سباب غليظ فاحش؛ تهرب باحثة عن جدران أغلظ من جدران السجن. حتى همام يسبه الرجل مثلما يسب المرأة. يقول همام لها "هرب اخوتي من البيت بسببه.. لم يتبق سواي.. "نكاية في فحش الرجل ينتصب بيته بجانب البدوي؛ آيلا للسقوط؛ طابقان مغلقان؛ لو تهدما تخلص من السكان غير الموجودين. تعود حنان إلى أمها..

- ماذا سأفعل يا أمي...؟
- لماذا يحتفظ بالولد..؟
- كي يحصل على إيراد الدكانة..
- طيب يا بنتي.. راح فين زوجك..؟
- لا أعرف..!

بعد الغداء قالت لأبيها نفس الكلام "لا تعرف"! قال الشيخ إن صديقا له على المعاش يمكن أن يساعده؛ كان مخبرا.. تأكدت شكوكها ..

- أتظن يا أبي أنه..
- الله أعلم. هؤلاء الشباب يضرون البلد وهم لا يشعرون ..

- لو كان.. لن يعود..

قالت حنان :

- وابني.. ؟

اليوم الأول من الأسبوع تعرض حتى الظهيرة لمطر غزير. غرقت البيوت والحقول القريبة من بيته وكذلك الشوارع في ماء ووحل "وروبة"؛ مع عصر السبت تحولت السحب الداكنة إلى نتف بيضاء تمرق فوق القرية؛ ولما دخل في اليوم الثالث ولم يعد إسلام قال لها:

- غدا بعد المدرسة أمر على الرجل..

دفنت وجهها في فرجة ركبتيها وانطلقت في بكاء بصوت مسموع؛ رفعت الوجه السابح في ضباب دموعها.. لم تر أحدا؛ قالت..

- سأنام..!

كانت الشمس خلف سور الحديقة قرصا ملتهبا تتقاطر حمرته الداكنة فوق نهر البرسيم، حول الشيخ عيناه وشرد. عاد الرجل لاجئا إلى حجرته..

حين دخلت حنان حجرتها لم تصدق. لا.. التي نامت كانت أي إنسانة إلا هي..! همست من فوق الفراش، وعيناها معلقتان بالثقب المرتفع.

- هذه حجرتي..!

أطفأت اللمبة، منحت الحجرة زمناً يسحبها إلى الظـلام.
فتحت عينيها بشكل لم تفعله من قبل، رأت الظلام جيداً، أسـندت ظهرها إلى رأس السرير، الخضـرة والفضـاء اللانـهائي تمسـك بجدران غرفتها.. معالم الحجرة تنبثق من وسط الكتـل الداكنـة.. بعضـها واقفاً وبعضـها مـائلاً تـرى.. هزّت رأسـها شـأن مـن يرفض أن يغلق عينيه جلباً للتركيز. هي ترفـع رمـوش العينيـن فـي الظـلام، هنـا الحقيقـة؛ بجـانب عقـب البـاب؛ فـوق دولابــي الصغير؛ تلف المكتب الصاج، حول أرجل الكرسـي؛ هنـا فـوق ماكينة الخياطة. مع ذلك ألاحقها. رأت نفسها في المرآة. لم تكـن هنـا مرآة، أصلح أبوها هذا الـدولاب وأعـاد تركيـب المـرآة فـي ضلفتيه.. رأت ملابسها البسـيطة بـل المتواضعـة؛ رأت وجهـها ووقفت عند عينيـها.. واسـعتين.. ورَنـت إلـى السـقف.. الثقـب.. هـناك في الأعلى ضوء أبيض دافئ؛ متشبث بهذا المكان؛ نعم يا ابنة هـارون..!!

شعرت أن جسـدها يدخـل مكانـا مبـهر الإضـاءة، دافئـا حانيـا، مخملـي الملمـس.. أطرافـه المتشـنجة تراخـت. ليـس استسـلام. إنـه عـودة بعـد أن جـرت طويـلاً، إلـى أن انقطعـت أنفاسها داخل حلقات ضيقة؛ زمن لم تكن وسطه، علـى حافتـه، أبدا لم تصل إلى الحافـة. تحسست وجهها، العروق كفت عن

النفض - الدوامات في شرايينها انداحت. سريان طبيعي في مجرى صاف، حلم ، صدى يتسلق درجات نفسها..

أضاءت النور.. هبط في فضاء غرفتها طائر يجدف بجناحين من ضياء.. تسبح الحجرة في النور وقد تكلس فوق الحوائط، أسفل السقف؛ في الزوايا، واستشعرت سخونة، مسحت رأسها بإحساس من يدلف إلى رحم في اتساع الكون. تبسمت، فتحت أدراج مكتبها القديم.. فتحت دولاب ملابسها القديمة؛ حركت الكرسي وجلست.. لم يتخلصوا من هذه الصور..؟ وكشكولي القديم هنا..؟ أيضا كتيبات ملونة فوقها عناوين سوداء؛ عشرات.. رصت؛ أجزاء من أقلام الرصاص، شهادة تقدير اختلطت بالتراب والأملاح. بهتت. قرأت "يشهد المسجد الأحمدي أن التلميذة حنان الأزهري.. ... نصف القرآن تجويدا وتلاوة "! صورة أخرى وجدتها اسفل صفحة صفراء لجريدة. الصورة ممزقة نصفين؛ قبل أن تقلبها تعرف جيدا أي صورة "حنان وإسلام.. حديقة الحيوان". تركوها تذهب. وقربت النصفين لترى أخاها ويده فوق كتفها.. تذكر كل شئ..

مزقت هذه الصورة بعد ثلاث سنوات من رؤية أبيها بعد أن عاد.. ماذا فعلوا معك؟! تستنطق ذاك الزمن. دموع الانكسار هي التي تسأل. لا تنسى أمها وقد انحنت فوق الفراش؛ أبوها ممدد صامت "لاشيء. كم سؤال وتركوني.. أنا مدرس..

أنا مدرس تاريخ.. صدقوني.. أنا أمامك!"

إسلام سأل : ماذا فعلت في الخطبة..؟

- تحدثت عن رمسيس الثاني والحيثيين .. والصلح بينهما ..

علمت بعد ذلك من "صديقاتها الأخوات" أن أباها كان متحمسا في شبابه. مشروع ثورجي يهز أعمدة الأزهر. وكان الحديث بعد أيام عن ابن "الإسكافي" لا يتوقف. هذه المرة أخذوه. ابن الإسكافي لديه زوجتان ولا يعرف أحدكم عدد أطفاله. يخرج إليهم قبل أن يطلبوه..! سقطت في بحر من غموض وألغاز وتساؤلات..! لم تصدق أن بعض الطالبات يستمعن إلى دروس في الدين. شيخ جليل يقول كلاما؛ لكن ليس أي كلام! بعد شهور ارتاحت لهذا التحول.. لم يجب أبى عن ذاك السؤال لماذا يرفض الشباب السلام مع اليهود..؟!

مشت بيدها فوق نفس الوجه. في الصورة شتان؛ أيامها كانت في المدرسة الثانوي، حتى الصور هربت وكادت تتلاشى، رغبتها جامحة أن ترى نفسها قبل أن..! أمام المرآة تقف، تطيل التدقيق في جسدها، أتبحث عن شئ ؟. لم تكن طفلة؛ ألم تثب في هذا البيت في خفة الفراشات؟ لا تريد أن تصدق أن الأخت حنان تحاول استعادة أيام شبابها.. وما المانع!! الذكريات جزء من تاريخ أي امرأة. وهذا الوجه كم يلمع، كم يتوهج يتألق في شمس الحديقة؛ وشعرك فوق كتفك..

وبعضه خلف ظهرك..! عيناك خضروان مثل عيني أبيك..!

- أبي.. أبي..!

ضبطت لسانها يردد "أبي" أغلقت الدرج على الكتيبات والصورة؛ خرجت إلى الصالة، مسحت عيناها الجدران العالية العارية، إلى حجرة أبويها.. تتلو أمها آيات كريمة بصوت خفيض؛ أبوها مطأطئ رأسه، أينصت ؟ أهو نائم، أم حزين، هل أجلب لهما الحزن في ذهابي وعودتي؟ الشيخ صامت. عرف أنها لن تنام.. أراد أن يعرف التفاصيل ليرتاح فؤاده. بجانب أمها أخذت مكانا على طرف السرير، سألت أباها فجأة..

- أين صوركم..؟

- أي صور..؟

لم يستوعب فحوى السؤال، مر على المناقشات سنون طوال طوت داخلها كل شيء لحظات ووقف في وسط المعترك المتأجج القديم.. ماذا تريدين..؟ كانت عيناها تبرق بتحد وطيش. "هذه الصور حرام تعليقها.. "لم يكن مهما أن تذكر من القائل؟ هو لم ينتظر أن يسمع. تحدث الرجل أيامها مع امرأته وهي التي بسبب من رعبها تطهو الأكل ولا يقربونه، يكون سابحا في الملح، أو تتركه حتى يشيط؛ لا تخبر إسلام أنها تجلس لتطبخ، فجأة تنفصل عن المكان الذي هي داخله. تظل تحدق إلى

الأطباق والبخار المتصاعد من إناء فوق النار. في النهاية تكتشف أن الأمر فسد برمته. فهمت أن ابنتها تتعرض لأيام حارقة؛ وتتساءل : أنا أصلي، أعبد ربي قدر طاقتي؛ أتسامح مع أولادي، مع جيراني.. هل ينقصني السماع لما تسمعه ابنتي؟. كيف تفشل ونحن لم نتركها لحظة؟ أرسلناها إلى المسجد، حفظت نصف القرآن؟ تتذكر دوما المفاجأة: ارفعوا هذه الصور من فوق الجدران. مؤكد هم يفهمون ما لا أفهمه. في ثقة قال الزوج: الصور تملأ الشوارع والدكاكين.. وجلس معها ليدخل في نفسها الهدوء والاطمئنان؛ وكذلك ليفهمها أن موافقته لا تزيد عن التنازل لابنته عن بعض أفكاره. حذرته: لكنها بعد ذلك ستحرم علينا شربة الماء...! رد الشيخ.. لا.. ستفهم من نفسها.. وتكتشف أن الدين غير ما تسمع.. كل إنسان منا بداخله الفطرة.

- أين الصور..؟
- لديك هنا آية الكرسي ..

-١١-

هاجس يدق من حين لآخر ولا يلج..! أكان الأزهر أنفع للبنت؟ هل سار خلف أمانيه وأحلامه. الهاجس يتحول إلى ليل بلا نوم وأحيانا نقار بينه وبين أم إسلام. ظل يهرب ويناور إلى

أن جاءت الثانوية العامة. في العام الثـالث لابنتـه صعد المنبر. دون سابق إعداد راح يحكي عن الحيثيين ورمسيس الثاني ؛ هل نسيت أن الأيام ملتهبة والجميع يتحدث عن زيارة القدس . هبـط ليرى بعد شهور ابنته خارجة داخلــة؛ وبعد شـهور تضـع فوق شعرها حجابا طويلا يغطي نصف جسدها. مع نتيجة الثانوية لم يصدق. قال لزوجه :

- نجحت.. في الكلية ستنسى..
- أي كلية..؟

تفكر قليلا ووقف على سلم مرتفع لا يرى أمامــه سـوى الفضاء. المهم أن تنهي تعليمها .

بعد نصف العام. خلعت الحجاب ووضعت النقـاب. فـي تناول الأمر من الخارج يرى أن ابنة الخطيـب ترتـدي النقـاب.. لا جديد.. الأمر أن نظرات الفلاحين، وما يصل إلــى بيتـه.. كـل هذا يصله مزفوفا بارتياح وامتنان. في الأفق نـذر يبتعـد عنـها.. وخاصــة إن دخلـت الأم حــوارا مــع ابنتــها؛ بــالذات نظــرات الاستعلاء وتدفق التجاهل من عينــي ابنتـه. مـا تأتيـه فـي البيـت يخرج من جوف يعبأ في مكان لا يعرفونه ..

واشتجر الأخوان للمرة الأولى..!

مذهولا وقف الأب. حجرة إسلام. كتبه. مكتبـه. أشـياؤه وولده يجلس هادئـا مرتديـا بيجامته.. وحنان تقبض على مجلة

كأنما تقبض على جمرة ملتهبة..

- انظر يا أبى.. أي صور في المجلة..

فيما يبدو يغيظها إسلام أكثر مما يناقشها..

- اقرني ما في الداخل ..

- اتق الله . كيف تجلب هذه الأشياء إلى البيت ؟!

الأستاذ يوقن أن ابنه لن يجرؤ على جلب أشياء يرفضها أبوه..

- ما هذا يا إسلام؟..

- يا أبي.. لو قرأت لعرفت..

- لا يجب أن تقرأ الشر لتجلبه إلينا..

- الموضوع.. أنني أحضرت مجلة ألمانية.. ليست لي.. استعرتها من زميل.. بها كلمات بسيطة وجمل مفيدة.. كلها أشياء خاصة باللغة..

يصدق الأستاذ ابنه .. مع ذلك يستشعر أن ابنته معها بعض الحق ..

قال في وضوح وبوجه غشاه الحزم ..

- ولو .. لا تحضر هذه الأشياء هنا .

- هي التي اقتحمت حجرتي ..

- دخلت لترتيب الغرفة ..

يذكر الشيخ جيدا هذا الحوار.. لم تهدأ. ورأت أخاها إنسانا عاصيا. اكتفيا بالركون إلى المسالمة. هو راض عن دراسته؛ عن طريقته في الحياة، عما يحدث حوله، هي غير راضية عن شئ، تشاكس إن وجدت فرصة؛ إلى أن أتت بالضربة القاضية.. هكذا رأي الأستاذ أيامها. ورضي ورضخ أن تلتحق بكلية التربية.

- في الدنيا غير المفهوم هو الأصل ..

- ماذا في قسم التاريخ..؟

أراد فقط جلب الراحة إلى امرأته فقال بسماحة وجه :

- خير ..

وأمسك؛ ما لم يطلع امرأته عليه خوفه أن تجعل حنان منه مادة للدراسة.. إذ فعل حين درس التاريخ وراح يتقصى وراء مسار أسرته ؛ لم يكتشف اعوجاج تفكيره في يسر ولم يضع أحد يده على ما سماه "الاكتشاف العظيم" وهو أن التاريخ يوفر للعقل تصورا شاملا عن المراحل التي سارت فيها البشرية.. انحصر في أسرته؛ وحين خرج حزن بشكل مروع، كيف ظللت يا هارون في هذه الإغماءة الطويلة.. وقال أكثر من هذا حال هبط إلى السرداب ذي الممرات والطرق المتشعبة. امرأته لم تشجعه ولم تحبطه.

هي تلـك السنوات السبع؛ أولـع بدراسـة تـاريخ مصـر القديم. يقرأ ويدون ملاحظات. وكلما فعـل شـعر أن طعمـا لذيـذا في فمه وأن لهفة مستعرة تلهب حواسه. كان - بعد قدوم إسـلام إلى الدنيا ومرور عامين - يتذكر تلك المشاوير التـي يخترعـها لامرأته وكيف تحملق غـير مصدقـة ودون اعـتراض. لـم يثمـر اعتراضـها غـير الإشـتجار. وينطلـق إلـى قصـر ثقافـة طنطـا. ساعات موثوق في مقعد حوله المجلـدات والأتربـة والموظفـات جالسات في انتظاره. مع الغياب واختراع المشاوير وتسـاهلت.. لكن أن يذهب إلى دار الكتب.. ربما ينام خارج البيـت لا. أيضـا لم يجد بيده قروشا زائدة، وحذاؤه بالكاد للعـام الدراسـي. اكتفـي بقصر الثقافـة ومكتبـة المدرسـة، كلمـا شـرح لـلأولاد أحـس أن الشخصيات العظيمة تتواثب في جمجمته ، تقف متشـاجرة فوق لسانه. يمعن في حفر نفق خفي منه ينسل إلى أبطالـه. رمسـيس؛ تحتمس الثالث؛ سبع عشرة معركة حربية.. كلها مكسب. أحمس الذي أقض نوم المستعمر وحكماء مصر حكمـاء العـالم. أنوبـى. أمحتـب. لكـن مـا أضيـق المكـان ومـا أقـل الزمـان . يحـاول أن يجلس مع الزملاء، أن يتخلص مما يثقل رأسه ويبهظ روحـه..! وحين انتهى إلى التاريخ الإسـلامي توقـف عـن القـراءة . ليـالي طويلة فـي غرفتـه.. لـم يكـن جـاء إلـى القريـة بعـد. كـانت شـقة صغيرة على أطراف المدينة وهو جالس مشدود العين إلى سقف

الحجرة. تدخل زوجه تسأل عما به لا يجيب. ينطلق إذ يسمع الأذان. كان أبوه قد توفي؛ وحموه بلغ من العمر أرذله محاطا بهيبة رجل من رجال الأزهر. ماذا حدث؛ لم يعد يذهب إلى قصر الثقافة.. مع ذلك تحول إلى الصلاة كأنما تحول إلى إنسان شره. جاء حموه. حادثه. لم يقل غير :

- أهؤلاء صانعو الحضارة الإسلامية ..؟!
- ماذا تقصد يا هارون؟
- كانوا قتلة .. تاريخنا كله حروب وسفك دماء ..
- استغفر ربك يا بنى ..
- لم أصدق .. كأنني أقرأ التاريخ لأول مرة ..
- أهؤلاء ..؟ قتل .. اغتيال .. والأندلس ؟ ما كل هذا ؟
- أنت قرأت فقط الجانب المظلم ..
- لم أجد غير هذا ..
- كنت تبحث عن ملائكة.. هم بشر عاديون ..

ترك الشخصيات واتجه إلى المسار العام، مجمل الحدث، لكن لم يتخلص من تلك الجرثومة القديمة؛ تغازله أحيانا شخصية أو موقعة. بلور لنفسه فلسفة خاصة مؤداها: هذه شخصية غير واقعية ربما خيالية.. وما فعلته قابل وغير قابل للتصديق؛ غير أن لطمة عنيفة تركته يترنح. صديقه تحذلق أمامه، أسهب شارحا كيف يصنع البطل؟ وكيف يظهر؟ وأي

أمه تتمتع بمقومات ووسائل دفع لإظهار هذا البطل ؟. كانا جالسين في يوم شتائي صحو، لم يصدق ولم يسمع عن كتاب بهذا العنوان. من حقيبته الجلدية أخرج الرجل الكتاب ووضعه بين يديه (الأبطال لكارليل) ثم جذبه وأدخله في الحقيبة الصغيرة، وأضاف زميله.

- أتعرف أن للإسلام نصيب ..؟
- بطل .. بهذه الصفات ..؟
- وأعظمهم جميعا بشهادة هذا الأوروبي ..
- من؟
- الرسول عليه الصلاة والسلام .

وافق أن تصدر المدرسة مجلة خاصة بتناول شخصيات تاريخية، للطلبة، مبسطة. وانغمر كل شيء أسفل الملاحقة اليومية من العمل؛ غير أن موقعه "كتاب الأبطال" قادته إلى إعادة القراءة. ولج إلى الدين. الفقه. العبادات. المعاملات. ومع ولادة حنان كان ابنه قد كبر. فكر له نفس الصديق وأعطاه عنوان مجلة شهرية. كتب أول مقال عن "تناول الشخصيات الفذة في التاريخ الإسلامي"..

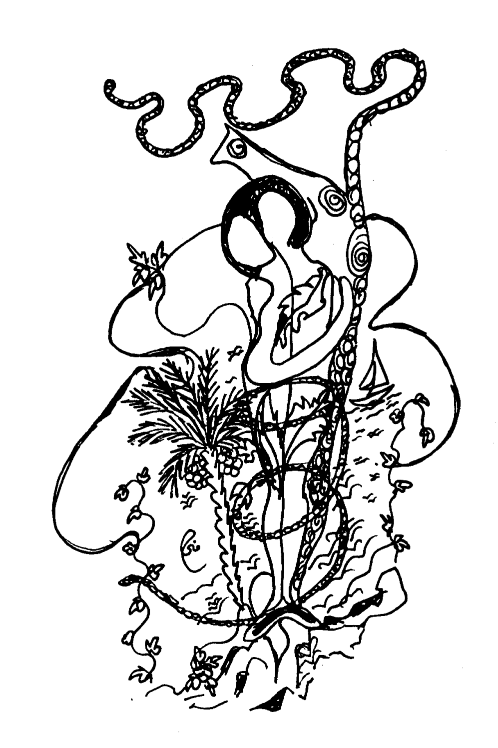
ورأي العنوان بعرض الصفحة "الشخصيات الفذة في التاريخ الإسلامي" . كان متأثرا بكارليل "، بطريق عرضه للشخصية، يبحث داخل أعماقها، ليلبسها رداء من عنده هو

رداء الحضارة الإنسانية. مع حنان توقف. لم يكتب غير ثلاثـة..
هل تلاحقـه ابنتـه اليـوم؟ لـم يحملـق فـي امرأتـه طويـلاً.. لكنـها
خرجت من الحجرة وظل هو قابعاً لا يعرف أيرفض أم لا قيمـة
للرفض..

* * * *




أيام إسلام



أيام إسلام

- ١ -

صحا على صوت التليفزيون المرتفع. عبثت كريستينا حول أذنيه بروؤس أناملها.. الدغدغة الهشة سحبته من فوق البساط المحلق. صعد وهبط. رأى جبالا، هضابا، ماءً زلالا، أحراشا جوفها مضيء، سماء صافية مقوسة لها لون الزعفران؛ إلى أن هبط فارداً ذراعيه ليرى ردفي كريستينا.. أبي سأتصل به! وهي غارقة في صور متلاحقة لبلادها وأحداث العالم فوق الشاشة. ساكنة فقال: فاتر "Vater" * لما خرج - مستجيبا لنزواتها ومستسلما لفترة الهدنة - اتصل بأبيه. كان صوت الشيخ مضمخا بشيء غير مفهوم، فهو منخفض، غير متحمس، يتحدث الرجل ويغيب بعيدا. سأل إسلام عن أمه وأخته.. سمع صوت أبيه وأحس أن شيئا يعبر الآن وجه الرجل.. ماذا حدث؟!

---

* Vater أبي

لكن صوت الشيخ يأتي من بعيد بنفس الكلمات..

- تعال.. وبسرعة..!
- أحدث شيء..؟
- لم يحدث.. تعال وبسرعة!
- أمي تعبانة..؟
- أمك ليست تعبانة.. وأختك عندنا..
- أبي.. ماذا عندكم؟
- تعال..!

وبات مؤكدا - مساء هذه المكالمة - أن الرجل وضع السماعة ليتهرب.. ليقطع على ابنه الطريق!!
منذ يومين..

اختفى إسلام تماما من تفكير الشيخ.. ربما لم يعرف أن أم إسلام نسيت ابنها.. بل تناست موضوع الخطوبة والزواج؛ حنان هي التي لملمت كل أطراف الخيوط.. وتراءت في الحركة والسكون، والكلام والصمت. تركت روحها ترفرف حيث ينظر أبوها، أذنها تتلبث إذ يتكلم، لا تسمع غير صوته. لم تعد صالحة لأكثر من هذا، لم يرض الأب حالها. في المدرسة استسلموا لأحواله الطارئة. سألوا ولم يظفروا من الرجل بأكثر من وجه باش وعينين مترعتين بأمل لم يكن موجودا. أحسوا ولم يعرفوا. يدخل الفصل بهمة عرفها مدير المدرسة الثانوي.. قال له قبل

أن ينهض بعد راحة الفسحة..

- ماذا يا شيخ يا عجوز...؟

شد الأستاذ هارون على يد المدير ووجد أن أقصر الطرق هي الابتسامة.

- ماذا يا رفيق العمر..؟

- عرفتك منذ كنا في طنطا الإعدادية.. لم تنشط هكذا من زمن!؟

لم يجد غير الإحساس الذي يغمره.

- ساعات رضا يستحقها الجسد..

- وأنت تستحق أكثر..

نظر إلى حنان كمن يدافع عن أيامه.. سألها..

- ماذا يحزنك؟

- ابني.. لن أعيش وهو بعيد عني..

ذهب صباح اليوم التالي. استمع إلى رجل مسكون بالإحباط، شعر أن المكان لا يزيد عن مقبرة، متوفر لها الصمت والبرودة والرائحة الشاذة وامرأة ساكنة صامتة توالي نظراتها التائهة إلى الرجل، ولا تبخل بالرعاية لطفل لا يمت لها بقرابة. قال الرجل أشياء كثيرة.. سب الأيام والزمن، لعن أولاده وقال بعد فاصل طويل من الهذيان..

- لم يتبق غير هذا الحفيد..

- وأمه؟
- تتزوج.. لن يعود.. غبي!
- استغفر ربك!
- من يذهب لا يعود.. غبي!
- أعطني حازم ونحن أهل.. الولد يحتاج أمه..

اشتبكت معه المرأة من خلال نظراتها إلى الطفل النـائم في حجرها..

- أعطه لأمه..!

من فوق الكنبة فشل أن يعثر على شيء يسـكتها، كأنمـا نسي لسانه. ظل صامتا لحظة قال الشيخ:

- ماذا قلت يا حاج؟
- قل لابنتك تتزوج..

في خشونة قال الشيخ :

- لن تتزوج..هي تنتظر زوجها..
- لن يعود؟
- سبحان الله..! أعطني الولد..
- أعطه الولد يا رجل..

أخرج ورقة مطوية من أسفل وسادة كـان متكئـا عليـها. ألهب المرأة بنظراته وصرخ فيما يدفع الورقة إلى الشيخ..

- اخرسي يا ولية..

- ما هذا؟!

- ورقة ومعها خطاب لا لزوم له..

رأى الشيخ أن الرجل يخفي الكثير وأمسك الورقة بعد أن قرأها. شرد لحظات لا يدري بالضبط أي كلام يصلح. هل يصر على أخذ الطفل؟ هل يذهب دون نطق كلمة؟ قرر أن يذهب. لم يعد القرار قراره.. حنان ماذا ستقول؟ أيعود بمصيبتين؟؟

كانت تتوقع وقالت إنها تعلم أن هذا سيحدث.. أمام أمها في الغرفة سأل:

- أنه سيطلقك..؟

- إنه لن يعود..!

سنحصل على الولد، أمامنا القضاء. حازم لم يتجاوز السادسة. رأت أمها وهي تتلقى اللطمة أثر اللطمة.. قالت: حياة كلها فشل في فشل. لا توجد في هذه الدنيا أخت حقيقية.. نهضت لتدخل غرفتها. التفتت إلى أبيها من عند العتبة..

- لا.. سأذهب إليه. لي حديث معه!!

لم تنم. فكرت: إنني دخلت هذا الظلام من قبل، لأنني أجهد نفسي في استعارة الأيام المؤلمة، هذا الشعور غرقت فيه منذ قابلتهن. جسدي يمنع الهواء الطاهر أن يحملني إلى عالمي الذي أحبه. البئر مظلم. قراره بعيد.. بعيد..!!

إلى الفراش وألقت الجسد، تناسته، تلهت عنه بسباحة حقيقية وسط ملكوت فيه رأت والدها، احتضنته رافضة أن يرى دموعا في العينين. لا تدري أنائمة أم أضغاث أحلام. أين قوتي؟ القلب كان بين قبضتي، لا ترعشني دموع الآخرين. هل اهتز يقيني؟ هل فقدت الثقة التي بنيتها منذ سنتين؟ في سبيلها صممت أذني عن أمي وأبي. إسلام.. رأته أمامها، مبتسما؛ لماذا يناديني؟ ماذا يبغي في هذه اللحظات "طريقي يتعرض لضباب كثيف أسود؟ كان واضحا وقد مشيت فيه؟ هذه ضحكاته، في عينيه حزن.. أنا أراه جيدا. من الممكن أن لا يرى الإنسان ما بداخله، نعم علموني هذا. طريقي أمامي.. تماما مثل الخطوات التي أمشيها ولا أفهمهما. لا أسمع صوت خطواتي.."! انتفضت؛ وجدت نفسها فوق حرف السرير، ارتطمت قدمها بشيء صلب، تطلعت، رأت بروازا مقلوبا فوق الأرض؛ رفعته وأطالت البحث. كيف نسيت؟ راحت تتساءل: هو إسلام أخي.. تذكرت متى ذهبت إلى طنطا مع أبيها وعادا بعد جولة في شارع البحر. استلما البرواز.. كان يرفض ارتداء العمة والكاكولا. وافق أبي وطلب أن يترفقوا في المعهد به.! هذه عائلتي.. كأنني حلمت، ويجب أن أفيق من هذا الحلم. دارت في الحجرة فقطعت مسافات وزمنا، تمددت بعد صلاة الفجر فوق الفراش. في حجرتها صلت؛ أنصتت إلى حركات أبيها وأمها.

يدعوان لها وللإسلام. في النهاية نامت متشبعة بوجهه، بصوته، بعباراته، أحست أنها أترعت بكل همسة وكلمة وأحست أن الدفء شيء لا مثيل له، اكتشاف عظيم وضعت يديها حول كتفها، ضمت نفسها، ونامت!!

أمام الرجل دخلت في صراع قادم من حيث لهثت وسألت ونامت؛ جلست فوق الكنبة أمامه وابنها في حضنها. اشتمت رائحته. جاء أسرع مما أرادت، ارتمى عليها، أغرقت وجهه الصغير الناعم المربع شاهق البياض بقبلاتها، تطلعت إلى خصلاته الذهبية مثل جده الشيخ. هدأت وقالت:

- سأبقى لأربيه..!

كان حموها قد نهض طاوياً سجادة صلاته؛ رغم كل شيء لم يدخل عليها بابتسامة.. طافت أيامها الأولى في أجواء الصباح الجديد. سمعها وهي تحادثه وتعلمه كيف يصليّ. يا أبي في الصلاة هبة. إنس كل ما يؤلمك، إنس أولادك، إنس هذه الدنيا، انظر حيث تسجد وتضع جبهتك.."وبهذا الزخم جلس أمامها هادئا وزوجه واقفة في انتظار ما يأمر به. على وجهها المغضن ظلال داكنة. قال:

- تعرفين أن هذا لن ينفع..

- طلاق إجباري.. لا نعرف ظروفه..

- لن يعود..

صمتت بعضا من الوقت، غرفتها كما هي لم يغلق بابها بمفتاح أو يضع قفـلا. رأت الرجـل وهـو يغـالب أشـجانه؛ شـعر جفنه الأشيب يرتعش وكلما نظرت حول وجهه بعيدا قال:

- أنا أبوه.. وأقول لك ما يجب عليك فعله..
- سأستسلم لقدري.. المهم ولدي..!
- تعال يا حازم..!

ذهب الولد إلـى جده. ضمـه ولـم يجـد حـائلا يمنعـه أن يغطي وجهـه بيـده، ولـم يـرد إخفـاء بكائـه. مـن أتـون الأحـزان المكظومة قال بصوت يشبه التوسل..

- لم يبق لي غيره..
- سآتي كل يوم لتراه..!

فجأة أبعد الولد وقال لامرأته..

- أحضري ملابسه.. هيا.. ماذا تنتظرين؟

.. ..

حين عادت بحازم قال أبوها..

- تأتون وتذهبون.. كل ما تتركونه أو تأخذونه يؤلمنا..!

تركت حازم يستكشف الجنينة.أحست أنـها مرحـة، وأن كـل هـذا يرجـع لإسـلام. صعـدت إلـى غرفتـه وفتحتـها وهنــاك جلست وراحت تبحث عنه في كل مكان.

إلى أن جاء حازم كانت تقف خلف أمها في المطبخ. تساعد، تحضر شيئا أو تحمل الأواني بعد غسلها ورصها نظيفة؛ تفعل ما تأمر به الأم. مع عودة أبيها من المدرسة.. تعد الطعام وتحمله إلى الصالة أو إلى غرفة أبويها. جاء الحفيد. دون أن تنطق الأم أو تطلب هي انسحبت كلتاهما إلى الموقع الحقيقي. الأم إلى ركن الجدة؛ حيث يلهو حازم وتراقبه في ملاحقة دائبة. صوتها رائق سلس قوي. وانسحبت حنان إلى الموقع الصحيح. هي التي تحدد كل شيء، مع الإبقاء على ملاحظة هنا أو هناك. أقلعت أيضا عن هذه الملاحظات في ظهيرة اليوم الثاني من عودة حازم. دق طارق البوابة فتحت هي؛ إذ حاول حازم لكنه لم يصل إلى القفل بيديه. نظرت لمن خلف البوابة. رأت جلبابين أسودين يغطيان اثنتين تقفان ولا يبين وجه أو يد، غير أربعة ثقوب في الوجهين. قالتا "السلام عليكم".. دخلتا وانتظرتا قدوم حنان. إحداهما قبلت حازم من وجنتيه والأخرى ضمته. لكنه انفلت وركض إلى الحديقة حيث الشمس. كانت ساعة طهو الغداء.. جاءتا وتحت إبطهن لفتان. دخلت الأم المطبخ تحبس كل خاطرة، تصارع أية فكرة. قطعت المطبخ الواسع مشياً، لم تضف شيئاً، لم تنظر إلى الشيء

الموضوع فوق النار "حاولت استجلاب التركيز؛ وخلعت جلبابها القطيفة الأسود؛ وقفت لحظات ثم ارتدته، فكرت في أن تتذوق ما فوق الموقد؛ شعرت أن حلقها مر، لن يعطيها المذاق الحقيقي؛ فتحت الراديو الموضوع فوق الرف والمثبت مؤشره على إذاعة القرآن. سمعت صوتا يتحدث عن الصيام وجهاد النفس، أغلقته.سمعت دبيب خطوات خلفها. نهرت القادم "إجر.. إلعب في الحديقة.. أتركني".. لم تسمع رداً. التفتت لتجد ابنتها. فوق وجهها نفس الهدوء والبريق يملأ عينيها تماما مثلما راقبته منذ عادت بولدها. أمسكت حنان يد أمها وقالت:

- اتركي كل شيء لي..!
- قدمي شيئا لصديقتيك..!
- ذهبتا..
- بهذه السرعة..!
- قلت لهما لا وقت لدي إلا للبيت وابني..

أخفت فرحتها وذهبت تبحث عن حفيدها..

أنهت حنان كل ما بدأته "طهت الغذاء. رتبت الغرف وخاصة غرفة أبويها. تركت حازم ينام مع جديه الليلة الأولى وجلبت له سريرا صغيرا في حجرتها..! صعدت إلى غرفة أخيها. أضحي هذا ديدنها.. بعد أن تنهي كل شيء ويتبقى قليل من الوقت على عودة أبيها. هناك تختلي بنفسها؛ تستعيد أياما

وتسترجع كلما سمعت.. في غرفة إسلام تشعر أن هذا المكان يزيدها هدوءا. تجلس فوق فراشه، تقلب في كتبه. ما هو عربي وما هو ألماني. كتب تاريخ وآثار. كتب في الديانات القديمة. كتب عن الفراعنة؛ وقعت على عالم لم تعرفه. أمام بحر هاديء السطح مخيف، له أغوار لا تدري عنها شيئا؛ ترسل نظرات فاحصة، يجتذبها كل ما ترى. كيف كل الأشياء، مرتبة؛ الكتب فوق بعضها. التاريخ في رصتين. الكتب الألمانية مغطاة بصفحات جرائد. ملابسه مطوية ونظيفة والحجرة - على صغرها - تدخلها كأنما هي داخل عالم لا حدود له.. لانهاية لمعالمه. أينما تنظر ترى جديدا. أدمنت المكوث، وحينما حاول حازم اللحاق بأمه هشته. أبعدته خوفا من أن يعبث بشيء..! سألت أمها..

- متي سيعود أخي..؟

- قريبا..! ربما غدا!

غدا.. راحت تنظف النوافذ، تزيل الغبار. والبلكونة فتحتها مستغلة اليوم المشمس! الفراش حركته ومسحت تحته؛ حتى دولابه نال منها لمسات حانية دافئة، إندهشت لكل هذا الحب داخلها.. لأهلها. خاصة لأخيها. فتحت الضلفة الأخيرة مغلقة بمفتاح. اصطدمت بالمفتاح قبل اكتشافها أن الضلفة الأخيرة خاصة مغلقة.. فتحتها لتجد أوراقا كثيرة، كلها داخل

دوسيه من البلاستيك مرصوصة بعناية ومكتوب فوق ورقة منفصلة "يوميات" قرأت من تحت البلاستيك الشفيف.. ولاحظت أن كلمة مرشد مشطوبة. قرأت مرة ثانية.. جلست وظلت جالسة، لا تفارق عينيها كلمة"يوميات"..

- ٣ -

تصفحت ورقة لم تصدق، راحت تقلب الثانية، ازدادت الحيرة وتعلقت هي في فرع جاف هكذا أحست، وازداد الأمر ابتلاء أنها تحس بريح شرسة باردة تضرب قدميها العاريتين تضرب جسدها كاملا؛ ترتطم برأسها. وقفت؛ ترددت لحظات. أتمضي أم تواصل القراءة. باغتها إحساس غريب؛ كأنما تقف وسط ميدان مرشوق برجال منتصبين كالأعمدة المضيئة في وضح النهار. أحست أنها عريانة. جسدها مباح للرؤية، للمشاهدة الطويلة؛ وضعت الأوراق، غطت وجهها بالنقاب وقفت لحظات. أمام حجرة أخيها رأت السطح واسعا، ممتلئا بالضوء الملون بالسحب والغروب؛ الحقول تحدق فيها.

وضعت الأوراق مكانها. في غرفتها نبشت طويلا. استعانت بصور وخطابات كتبتها أيام أزمتها مع البيت. قرأت سطرا هي حددته. كان الانفعال وقتئذ يضرب جدران حياتها

المجتمعة فيما اقتنعت به وخلفه سارت ".. لا تسيئي الحكم علي..لا يحق لإنسان مهما علم وعرف أن يتبنى حكما ويرمي به إنسانا. الأيام بيننا وأنا أخوك..!" أخي.. سأبعد عن هذا الأمر. أبي.. نعم من الآن سأفعل مثلما تفعل ابنة.. تسكن بيت أبيها وتأكل من عرقه؟..!!

الرجل قرأ!! قال لها إنه سيفكر في كل كلمة.

- احفظي سر أخيك..!
- من أجل هذا أخبرتك يا أبي..!

قبل رأسها، ترك لها عينين ملؤهما الامتنان. اقتنع بكلامها. "نعم.. أنا أبوه. لي الحق أن أحميه من نفسه.." لم يداخله الاقتناع مائة في المائة. سأل حنان للمرة الأخيرة..!

- ألنا الحق فعلا..؟
- ما قرأته لا يطمئن..
- لكنها أسراره..
- ساقها الله إلينا.. من يحميه غيرنا؟!

وصمتت برهة.كان ثقيلا ما تبغي قوله. قالت لنفسها إنها اللحظة الحقيقية. شيء يرغمنا أن نعترف. أضافت:

- لو حكيت لك عن حياتي كان ممكنا أن تساعدني.. أن تحميني.. اقرأ يا أبي كل كلمة بعناية وبنية الخير له.. وربنا يغفر لنا..

- ٤ -

بعد أن أنهى الاتصال بأبيه لحق بكريستينا، حيث تنتظر الليموزين أمام مدخل الفندق. وبدأ اليوم كما وعدها. مر وقت طويل.. إلى أن رأى في عيني الألمانية تساؤلات..

قالت كريستينا:

- أشعر بالجوع..
- قبل الأهرامات لدينا مطعم.
- وجبات مصرية..؟

أوقفه نفس الأمين، تذكره. إذن كان يلاحقه بنظراته، لم تلحظ كريستينا، قبل أن تمر من باب الخروج اكتشف أنها وحدها. إلى الخلف نظرت. رأته يحادث الأمين. عادت وراحت تنصت لاثنين يتحدثان بصوت مرتفع ورأت العرق يغشى وجه إسلام والانفعال يقطر إحمرارا خفيفا في عينيه. سألت مرة ولم يجب؛ صمتت منتظرة. قال الأمين بصوت مرتفع:

- أنا راقبتك.. كنت تشرح!
- ألا تفهم.. أنا مرشد..
- معك أمر شغل و"تصريح خارج المنطقة"..؟!

وأشار إلى كريستينا..

- ليست زبونة.. ضيفي..

تكلم الأمين مغتاظا، إسلام لا يفهم كيف يمنعونه من الشرح وهو مرشد. لم يتفهم مسألة "التصريح خارج المنطقة"*.. وربما هذا بالذات ما يجعل نبرته غير مقبولة لدى الأمين.

- أعطني كارنيه الوزارة..

بقرف أخرج الكارنية. كان داخل ورقة للزواج. ومشي خلف الأمين إلى مكتب الضابط. برهة قصيرة أمام المكتب حاول أن يلخص الموضوع لكريستينا، إلى أن عاد الأمين، لكن ليس بنفس الملامح المتجهمة. ابتسامة ذرعت داخل المكتب ونبتت والآن يراها إسلام مزهرة يانعة..

- اتفضل سعادة الباشا يريدك..

كريستينا بجواره صامدة الملامح.. وجهها الألماني بدا منحوتا من جلمود. كان السويتر الكحلي لإسلام منتفخا فلمّه وسحب السوستة. تطلع إلى الضابط صاحب الثلاث نجوم غارقا في أوراق فوقها الكارنية. قال دون أن يرفع عينيه إلى إسلام:

- صديقتك..؟

---

* يحصل المرشد السياحي على ترخيص من وزارة السياحة لممارسة العمل في منطقة هو يختارها ولتكن القاهرة، وكي يمارس الإرشاد في منطقة أخرى يحصل على ما يسمى "تصريح خارج المنطقة".

حدق إسلام صوب المكتب، غاطسه رأس الضابط ما تزال، استعاد إسلام رباطة جأشه وبادل كريستينا الاندهاش والترقب، الضابط صغير السن، ملوح البشرة كأنما أمضى حياته أسفل شمس حارقة؛ ويستشف إسلام بجانب ذلك هدوءا فوق بشرته وهذا ما جعله هادئا شاعرا أن الأمر غير ما يتوجس! نظر الضابط مباشرة في عين الشاب المصري الواقف أمامه في صحبة سائحة.. وأضاف بعد أن ملأت ابتسامة وجهه المربع..

- مالك منزعج هكذا..
- حضرتك طلبت رؤيتي..
- طبعا.

قلب الكارنيه أكثر من مرة في يده، يرى إسلام تدقيقه في الصورة، صورته فوق الكارنية، غير مريح، وأيضا لا تخبوا ابتسامة. بصوت منخفض مسموع.. قال:

- أنت رهن الاعتقال..!

ظن إسلام أن الكلمات خانته؛ أو أن أذنه لم تلتقط كلمة (اعتقال) جيدا.. وبنفس النبرة الخالية من أي رائحة عدائية..

- ولن تبيت الليلة في بيتك..!

كريستينا تتابع وجه إسلام؛ فتح سوستة السويتر؛ سحب منديلا من اللفة، مسح وجهه؛ لا تفهم ما يدور؛ حاولت سماع

ترجمة مختصرة لما يتم. يتقلص وجه إسلام وترف فوق حاجبيه ظلال الكاسكيتة؛ نزعتها من فوق رأسه. تهدّج صوت إســلام إذ أراد أن يتكلم.. حاول إخـراج الكلمـات وتوصيلـها إلـى الضـابط دون أن يشتم خوفاً.. قال:

- نعم! ماذا تعني سعادتك؟

- ما سمعت..!

دخل الأمين، ها هو يظهر بعد أن اختفـى.كانـا واقفيـن. أمامهما ثلاثة مقاعد مبطنة بالجلد الأسـود. لمـح إشـارة الضـابط للأميـن. لـم يفـهم معناهـا بـالضبط؛ مـع ذلـك حـاول أن يكـون متفائلا.."لم أفعل شيئا.. مؤكد هذا الضابط غير سوى.. أو هناك لبس.. لماذا صمت وكيف لا يقدر ما يقول؟. ابتسامة بلهاء فـوق سحنته المحمصة. هل يعتقلون من يتزوج بأجنبيـة؟. سـأعلن لـه أنها زوجتي؛ لم أخطيء إذ أحمل العقد في جيبي.. مـاذا يحـدث، هل أنا مطالب بتفسير لا ينتهي.. لكل إنسان.. إنني أسير في هذا البلد مثل مجرم مطلوب منه إبراز صحيفة سوابقه.. في الفندق.. حتـى أمـام الزمـلاء، مـاذا سـأفعل مـع أبـي وأمـــي.." وضعـت كريستينا يدها البيضاء رقيقة التكوين فوق كتفه. أجلس إسـلام؛ أجاب على نظرات التساؤل: هكذا قـال الضـابط. جلس وأمامـه كريسـتينا، ورأى وتـابع الضـابط حيـن وقـف؛ أحس أنـه رهـن الاعتقـال. شـعور طـاغ بالضيـاع سيطر عليـه، ضخمّـه سـير

الضابط جواره، حولهما. ورأى الأمين قادما بكوبين من الشاي. وضعهما أمام الاثنين حيث أشار الضابط. آه هذه هي البداية ماذا في نفسك من أمنية..!! قال إسلام:

- حضرتكم لم تقل لماذا أجلس هنا؟
- صديقتك..؟
- لا. ضيف لا أكثر..
- طيب كيف حال الأستاذ هارون؟

قبل أن يسترد إسلام شيئا من هدوءه لسماع اسم أبيه.. لاحقه الضابط.

- قل لها تشرب الشاي..
- حضرتك تعرف..

قال الضابط لكريستينا بإنجليزية مكسرّة..

- please شاي مصري..

نظرت صوب إسلام. رأت وجهاً متطلعاً إلى الحقيقة؛ لكنه هدأ قليلا. راحت ترتشف الشاي في نعومة..

- أنا طنطاوي كريم..
- طنطاوي..
- نسيت عمك سيد البطل..

لحظات مرت.. برقت في رأس إسلام ليال وأيام.. رأى رجلا فقيرا يجلس بجانب أبيه في المسجد. ناقم. لا يكف عن

الثرثرة في موضوع واحد "اليهود والنكسة.."

- عم سيد البطل؟ الشهيد..؟!
- حاتم.. أصغر أولاده..

وارتمي في حضن إسلام

سمع إسلام كريستينا تحدث نفسها غمغمة "مصريون مجانين،ن يتشاجرون، يقفون أمام بعضهما متحفزين كالأعداء، يتصارعون، في النهاية يتعانقون..مجانين!!".

تساءل إسلام..

- وكيف حال الست الوالدة؟
- بعد أن تزوجت أختاي خلت الشقة عليّ وعليها. تعيش دوما على ذكريات القرية..

وضعت كريستتينا كوب الشاي فارغا وتطلعت إلى الاثنين برهة؛ ثم قالت لإسلام:

- Alles ok.*
- (يا) كريستينا..(نعم)..
- طيب. أنا في مكتبة المتحف أو في الحديقة. وذهبت.

ظل الضابط معلقا بصره بالاثنين حتى ذهبت..

- ألم تتزوج؟

---

* كله تمام..؟

قال الضابط..

- أبحث عن ألمانية..!
- كنت صغيرا.. ثلاث أو أربع سنوات..!

استفسر منه عن حال القرية وعن عائلة إسلام وحكى له عن حياته في القاهرة بعد أن صممت أمه علي ترك القرية، خاصة بعدما انتظرت زوجها.."الباشمهندس سيد" سنين بعد الحرب؛ كان حاتم صغيرا، لم يدخل المدرسة، رآه إسلام كثيرا مع أبيه في المسجد؛ وفي البيت. الذي يذكره الآن هي الكتب الممتلئة بصور لبلاد كثيرة.. قال لحاتم..

- لأبيك فضل عليّ لا أنساه أبداً..
- لا.. دوما تقول أمي إن فضل الأستاذ هارون لا يقدر.. هو الذي ساعدنا في غياب أبي. لم يَعرف أحد من القرية هذا. هو الذي قرأ لأمي ما كتبوه عن بطولة أبي وأيضاً هو من حكى للناس على المنبر عمّا فعله. دوماً تعيد أمي عليّ هذا الكلام..
- ولماذا لم تزرنا..

عرفت أن أبي أسر وبعد السلام مع "الكلاب". لم يعد. انتظرته لياليا طويلة إلى أن جاءوا. ليلة سوداء. أعطوا لأمي بعض الأوراق وعرفنا أنهم قتلوه بعدها قررت أمي ترك القرية. عادت إلى أخوالي وباعت طبعا قطعة الأرض لأعمامي..

- أبوك بطل حقيقي.. دوّخ الإسرائيليين.. مهندس أيضا عبقري.. دوما كنت أسمع هذا من أبي..

- أعرف أنه كان يحبك..

- كنت متعلقا به.. عشقت التنقل عن طريق البلاد التي حكى عنها.. كان عنده صور لأبراج وكنائس وقلاع وبيوت جميلة. كان رجلا لا مثيل له. كان يقول إنك ستكون شاعراً.

- حقيقي..؟

بعد ذلك ودّع إسلام وأعطاه العنوان والتليفون.. ووقف معه في حديقة المتحف بعض الوقت.. ثم خرج إسلام.. وقبل أن يغادر المتحف همس: على فكرة كريستينا زوجتي..!

- ٥ -

ترك المتحف وركب الليموزين، تناولا الغداء في مطعم قريب من الأهرامات خاص بوجبات السمك؟ تقريبا لم يبادر بحديث، يرد بكلمات لا تفي باللهفة التي تسأل بها كريستينا؛ أحست أن تركيزه وأريحته فارقاه منذ غادرا المتحف؛ استشعرت إضافة إلى ردوده المبتسرة أن حديثه مع الضباط عكرّ صفو اليوم؛ لم يشر إلى المعالم البارزة والمهمة في الطريق؛ إن لم يكن يفعل ليضع عينيها على هذه الأشياء - من

مبان، مستشفيات، مدارس، أو حتى حديث عن المرور الأعجوبة - كان يفعل هذا مدفوعا بطبيعة غالبة من مهنته. شارد؛ نظرات غير مريحة للأفق أو السماء. هي التزمت الصمت بعد محاولتين؛ دخل في حديث مع ذاته. اللقاء مع الضباط رفعه في عنف، في شراسة لم تترك منفذا يتنفس منه مثلما كان يتنفس قبل اللقاء.. رفعه ووضعه داخل القرية كان وضع رأسه وجسده، وغاص إلى عمق بعيد. رأى محسنا يركض في الحقول، ما إن يخض في حقل أخضر يتحول إلى أرض سوداء. مع ذلك يركض. هو يركض خلفه، ينادي، يسمع صدى صوته في كل مكان.. ينظر خلفه لأن أباه في انتظاره.. لا يجد فقط أباه.. يجد أناسا كثيرين يقفون على رأس الحقل كلهم ينتظرون. أيعود بصديقه أم يفشل.. يظل ينادي، يصرخ، يتعجب. كيف لا يلحق به؟. محسن يمشي خطوات بطيئة.. تكاد تكون ترنحا.. يركض خلفه؛ عند مشارف الأفق يرى الماء. هنا المصرف الكبير، رغم كل شيء يواصل محسن سيره. لا يسير في خط مستقيم. المحير أن قدميه تتنقل من حقل إلى حقل لتحوله إلى أرض سوداء. كان من قبل بساطا أخضر..!

في الفندق لم تفهم كريستينا ماذا حدث له؟ كان برنامج المساء أن يصحبها لرؤية "القاهرة في الليل".. طلب أن تتركه لمدة ساعة. لم تفارقه صورة سيد البطل!!

تظن كريستينا أن الهذيان في الليل والحديث مع النفس في النهار مرض. يبحث عن إنسان ترك له عنوانه.. يدور في القاهرة مثل مخبول، يحمل رأسا فارغا. تتردد الكلمات مثل صدى لصوت يضرب في جدران معبد مغلق مهجور. قالوا له في المتحف إن حضرة الضابط حاتم نقل!

- عما تبحث شاتسي..؟
- سأجده..
- كان معك.. لماذا لم تسأله..؟
- أمه عندها الإجابة على أسئلتي..
- اسأل بصوت مرتفع. ربما أساعدك. إن ظللت تتحدث إلى نفسك والمرايا ستجن.

كانا جالسين في حجرة الفندق. انقضت ثلاثة أيام بعد مقابلته مع الضباط. أخَّر عليها البرنامج. تحاول أن تفهم كيف يصاب المصري بالجنون لمجرد مقابلة وقبضة من ذكريات..؟! هو يؤكد لها أنها بعيدة تماما عن هذه الذكريات. لما يئس من استجابتها، جاء وقت الصمت والتطلع إليها في انتظار أن تكف عن ملاحقته بالأسئلة..

- لن تستطيعي مساعدتي قط..!
- أنتم عنيدون..!
- كل هذا لأنني أتمسك ببعض ذكرياتي..

- دعنا من هرائك. أنت تفسد كل شيء. عش يومك..
- سأحاول..!

لم يفعل.هل تعمّد إعطاءه عنوانـا لا وجـود لـه.. كـثرت تساؤلاته أثناء طوافه بالحي الشعبي. يسير غير مصدق أنه قابل الضـابط، تؤلمه قدماه، يجلس على مقهى ليشرب كـوب شـاي أو فنجان قهوة، يحملق في السائرين؛ إن صـادف ومر ضـابط دفـع الحسـاب سـريعا ولحـق بـه. يعود خائبـا ويعـاود البحـث. إلـى كريستينا يعود منهكا، ياقة قميصـه تنثر ظلالـها الرماديـة فـوق عيونها المفتوحة في دهشة. لم ينل من الشركة مليما (وهو الذي قال لأبيه إنـه ذاهـب إلـى القـاهرة ليسـترد حقوقـه المتـأخرة فـي الشركة). فـي اليوم الأول خـرج بجنيـهات فـي جيبـه. تـرك مـا وضعـه فـوق التسـريحة مـن مـال. كـانت فـي الحمـام، ارتـدى ملابسه بسرعة وقال لها قبل أن يغلق الحجرة..
- لن أتأخر..

ردت من داخل الحمام قائلة..
- لا تنس.. فلوسي فوق التسريحة..

دون كلمة خرج. وهـي وجدت العشـرينات مطويـة لـم تمس، بجانبها النوتة الحمراء والقلم الخاص بها. ورقـة مكتـوب فيها بضع كلمات بالألمانية..(سـأعود وقت الغـذاء..آسـف لأننـا غيرنا البرنامج). وقتـها تطلعت إلـى وجهـها المـدور الممتلـيء

حمرة وهي تجفف شعرها.. ولفظت أحقر كلمة ينطقها ألماني.. (شايسه Scheisse) زفت!! شمس بداية النهار تنسكب فوق عينيها وتدخل فيها مثل موسيقى يعزفها مبتدأ، تصل إليها ممجوجة. لا تكف عن إخراج كوامنها الدافئة الماضية. تلج في عالم الحسرة وتصب تشنجات شفتيها فوق شبحه المتواجد في كل مكان، وضجيج يمسك بكل جزء فيها، ينتزعها من سكينتها. وارتدت الجيبة مغيبة في رائحة مخدرة، أحسّتْ للحظة أن الفك الأسفل لم يعد موجودا؛ اقتلعه طبيب ماهر. تدوم في بقايا الألم لحظة لا تحسب في عمر الزمن؛ لكنها حاسمة في حياتها. مع ارتداء البلوزة الربيعية فوق الجيب تبدت زهرة غارقة في الظلال الوردية، ترتعش رأسها ولها ساقان عاريتان صلبتان؛ تتنفس في ثقة من أخذ قرارا..! لن أدعه..! لن استسلم، لم أقطع آلاف الأميال وأنفق ماركاتي ليوم أو ليلة..! جلست لحظات. الفراش عريض ناعم فارغ، المرآة مصقولة صادقة كسطح بحر بلا أمواج. النافذة، الستارة البيضاء المحدقة فيها والشمس بيضاء تنقل لجسدها ذرات الشبق. وقمصان النوم مدلاة مثل جوار مصلوبات؛ حقائب وأحذية وموسيقى لها زحف الثعابين الذهبية الراقدة خلف الجدران. تتأمل دون هدف وتبدأ من حيث انتهت. لما خرجت ذابت في شوارع وسط البلد..! تبتسم. تضحك إذ ترفض الابتسامة. دون سبب تتحدث

بالألمانيـة ويحادثونـها بالعربيـة، ويضحـك الجميـع وتضحـك، أرادت خلع الحذاء الأسـود والسـير حافيـة.. شـوارع عدوانيـة.. وفاترينات تمتص المتبقي من تركيزها..! كل الأشياء منتصبـة، مسنونة، متحفزة، حتى الأشياء النائمة.

- ٦ -

مع مطلـع نـهار اليوم الرابـع أوقفتـه، روحـها المنهكـة سبحت في عينيها الخضروايـن، رأى سطح بحيرتين غـارقتين في ظلال كابية حزينة، تغلفهما ضبابية مـن جـراء ليـال مـرت، حيث جلست تتأمل مصريا نائما، يأتيها بأحزان غامضة، الوجه الأبيض تغضن جلده واكتسى بملمس شمعي شاحب، فكرت أن هذا الإنسان مسكين، لو لم تعرفه جيدا لصدقت أفكارها.. وتقول لنفسها: هذه أفكار أوروبية عدوانية، أحاسيس نبتت فوق صخـر مثلما تنمو الطحالب في مكان غاض ماؤه. هـذه أنانيـة. تتكفئيـن على ذاتك مثلما تتكفيء الثلوج فوق ذرى الغابات، تكللـه بطبقـة الموت.. إلى أن تتفجـر الحيـاة بعـودة الشـمس، وهلـول الربيـع! التقطـت سـماعة التليفـون بيدهـا وجسـدها وقلبـها. فـي الفطــور الحل، لـن أدعـه يخـرج منسـاقا لسـحر الغيبوبـة. أطاعـها. كـان اليأس صــاحب الصـوت المرتفـع؛ لـم يعـد يرغـب فـي الحديـث الطويل مع نفسه، شبع من رؤيـة الشـوارع والحـارات، زهـد

الجلسات على المقاهي وقرف من أخذ الطرق المضللة، لماذا أبحث عنه؟ لماذا أنا مدفوع اندفاع المذنب، اندفاع القاتل إلى هذا البحث..؟ شرد في أشياء عديدة وهي تسحب "عربة محملة بإفطار خمس نجوم" بيض، مربى، ثلاث أنواع من الخبز، عسل نحل في مربعات صغيرة، توست، كوبان من عصير البرتقال الطازج" وشمس فبراير في ملمس كريستينا.

تناول إفطاره وقرر أن لا يخرج.. يذهب الضابط إلى العدم. الآن لا يريده، ظهرت في وجوده المرآة والدولاب والفراش، في رفقة طيبة لهذا اليوم. الحياة رائعة. ماذا فعلت بنفسي؟! كانت كريستينا تعيد كوب العصير نصف ممتليء من فمها إلى الترابيزة، رأى قدمين دقيقتين في لون أوراق الصفصاف المصبوغة بالشمس الغاربة.. واندفع دون تأن يفتش عن إسلام في عينها.. ووجد الابتسامة تستقبله والشفتين خاليتين من الطلاء.. حبتان فهما نضوج الثمر وانتظار القطاف..!!

قال :

- ستصفحين عني..؟!

خلعت روبا من الحرير الأزرق، تبقى أن تفك الوشاح الأزرق عن رقبتها لتغزو شعاعات الصباح الواثبة جسدها في تجرده؛ تذكر محسن في هذه اللحظة، ظلت في تجردها واقفة

منتظرة أن يقول شيئا، كان صديقه يربط بين لون الخمر والجسد الأنثوي في تعرضه لشلالات الشمس. لم ير ابن الربيعي أنثى متجردة إلا من قطعتين. رأى وترك هذه المعاني تتدفق داخله، يستكين لتنفث اللذة.. وهذه اللذة تضحي عالما حقيقيا. لا يحكي عنه لإنسان. يعشقه ويتعشق وجهه والحياة كلها يمتلكها لهذا السبب..لا غير.! قال:

- معك طوال اليوم. لن نخرج..!

ضحكت. صوتها ممتزج بتاريخه معها. لا يقل الصوت في انسيابه عن الحرارة الهامية من أطرافها. رأت أن تزحف في نعومة..

- لا..احتفالنا له شرطان..
- الأول..؟!
- نمضي اليوم بعيدا عن الفندق.. وفي مكان لا يذكرك بالضابط..
- والثاني من فضلك شاتسي (حبيبتي..)؟
- كل شيء - نعم - احك وسأفهم وأقدر..!
- أليس الأفضل أن ننسى؟!
- هذان شرطان..!

كـانت ترتـدي أمـام مـرآة الـدولاب البنطلـون..خلعـت السوتيان ووقفت تعبث في شعرها، تدعك صدرها وتدندن في ألمانية أشبه بالغنج قال..

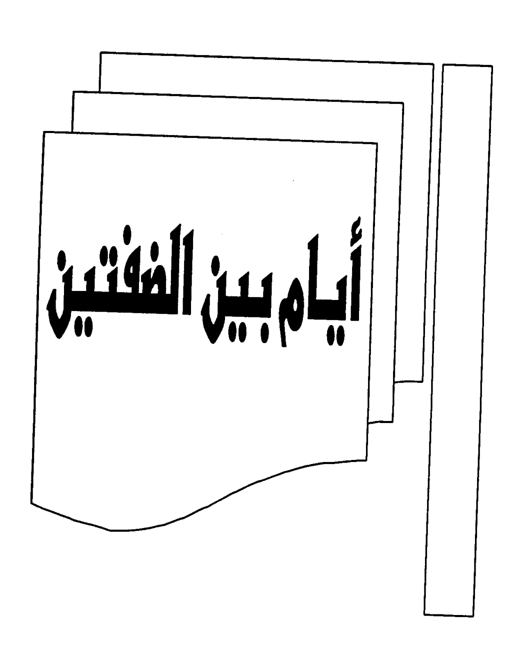
- كريستينا..!

صوته خال من بقايا الانهزام. مما جعلـها تـدور إليـه.. وثبتان وكـانت بين ذراعيـه وفقـد صوتـه؛ بـل أنفاسـه؛ إلـى أن ابتلعت رضابها، وقفت تحدق في النتيجة.. وخنعت قائلة :

- هذا رجاء .. أوكيه؟!

* * * *




أيام بين الضفتين



أيام بين الضفتين

- ١ -

ومع الصفحة الرابعة راح يقرأ. كان قد أعد الحجرة يأس من أم حازم، الكتمان والوجهان الضاحكان في حضـرة أم إسلام دوما هناك. لا تسأل حنان وتغذيه بإحساس رائـع أن مهمته تتم في سرية لا سبيل لاختراقها. وأغلق حجرة إسلام عليه وراح يقرأ :

أول أكتوبر ٩٦.. عصرا..
لذيذة الحياة.. لذيذة.. رائعة!

مستلق كنت منذ لحظات، كابينتي في الطابق التحتي.. أفتح النافذة بعيني، بيدي ممنوع، والممنوع هو الذي لا أستطيعه..! جاءت فراو شفارتس، وعدت كريستينا أن تصحب أمها، ماذا سأقول، لديها مؤكد أسئلة. أكتب الآن غير متأكد من

شيء.. إلا شيئا واحدا.. الحياة لذيذة.. رائعة دافئة، طبيعية مثل كريستينا. ربي وفقني في هذا اللقاء..!

نفس اليوم.. ليلا..

سأقاوم! قالت فراو * شفارتس: يجب أن تحدد ماذا تريد من كريستنا، يمكنك الاكتفاء برؤيتها مرة أو اثنتين في العام. إنها تصحو كل يوم في السادسة، تذهب إلى العمل في السادسة والنصف تقود السيارة ساعة، تعود في السابعة، تنتظر من عام إلى عام لتحصل على أسبوعين، كانت تصطحبني معها، كنت أدفع نصف تكلفة الرحلة، زرنا أسبانيا، تركيا، الدومانيك، لم تنس أبدا مصر.. عشقت بلدك بسبب زيارة قامت بها وهي في العاشرة، ورثت عشق الشرق من أبيها.. السماء لا تمطر المال.. السماء عندنا صفحة من النحاس، قطعة من الجحيم.. الشتاء يعشش داخل المرأة الألمانية، أعرف عما تبحث، يجب أن تعرف وتحدد.. لماذا ابنتي..؟!

تدخلت كريستينا.. قائلة..

- موتي** .. دفعت لك لتسمعيه؛ لا تكوني قاسية..!

سألت فراو شفارتس..

- ماذا يغضبك؟

---

* مدام شفارتس.

** Muti موتي – أمي.

رنت إلى، تمهلت قبل أن تترك وجهها بتجعداته وشحوبه يدخل في دوائر الضوء القادم من اللمبات المرشوقة في جوانب"الصن ديك" وضعت يدين عجوزين، خاليتين من رعشة الوهن.. قالت:

- لست غاضبة..جئت لأتعرف بك!

تناست قطرة الخبث المسكوبة في نهر حبنا الهادئ. شرحت محاولا الحديث بألمانية واضحة.

- لا تنزعجي فراو شفارتس من اسمي..! أنا نشأت في أسرة صغيرة، أحب أبي وأمي ولي أخت متزوجة، درست اللغة الألمانية في القاهرة، أحب بلدي.. مثلما تحب كريستينا ألمانيا. ماذا تريدين غير هذا؟!

- لماذا لم تتزوج إلى الآن..!

تدخلت كريستينا..

- Genug Mutti.. يكفى هذا ماما..

كأنما لم تسمع..

- أنت متدين إسلام؟

- أيهمك هذا أمي..؟

- دعيها شاتس*.. فراو شفارتس.. حضرتك ترغبين في قول

* شاتس Schatzi كلمة ألمانية بمعني حبيبي، وهي للتدليل مثل Dearling في الإنجليزية.

شيء.. ما هو؟

- ألديك تصور لشكل العلاقة بابنتي..؟
- سنتزوج..
- موافقة كريستينا..؟
- هذا لا يخصك موتي..

جاء الجرسون مرتبكا، دماثة خلق يحملها فوق وجهه مثلما يحمل الطلبات كرهت هذا العمل؛ إذ أفعل مثله. الشاطيء يكفل رؤية للهوة الشاسعة، الأفق بعيد وراقد في ظلمة صامتة. رفضت عزومة فراو شفارتس، أنال فنجان القهوة من المركب مجانا.. عدت إلى حجرتي وشرعت في قراءة أسماء المجموعة..!

ديسمبر ٩٦.. ليلة رأس السنة..

منذ أن اجتمعنا في بار المركب وأنا أضرب في متاهة هيرودوت؛ مئات الأبواب أمامي، أخفق مثل فرخ صغير، وأيضا لا أصدق أن للحيرة أبوابا. تناقشنا في كل شيء، قلوب باردة، نعم الآن يمكنني رؤية الوجوه المنكفئة، تسترجع كل شيء، لكنها تغترف من آلامها، وأحزانها، لم أجد واحدا يتحدث عن السبب الحقيقي؛ ما هو السبب..؟ أنا إلى الآن لا أعرف؛ أنا شيخ يتطوح خلف الدفوف، متشبع بالسكينة التي لا وجود لها.

قالت كريستينا بعد الحادث بليلة:

- إنه اغتصبها.

غضبت غضب من قوضوا بنيانه.. والذي يضمه ويحميه من تقلبات السماء والأرض..

- أنت لا تفهمين.
- ألنت راض.. وزملاؤك راضين..؟!
- ما زلنا نناقش الأمر.

لم أكن أعرف أنني لها سأستسلم.. لرؤيتها، لتفسيرها، بل سأضع أسلحتي أمامها وخلفها أسير. أبحث في الصحراء معها عن أسطورتي الذاتية..

- لن تصلوا لشيء. مع كل هذا قال أحد زملائك أن الخطأ خطؤها. تحدث عن البيت والتربية، صبَّ أهواله على الأب والأم. كل ما أرعده هو الفضيحة.. لا أفهم هذه الأشياء..
- لما خرجت الفتاة..
- سوري إسلام.. لم تعد فتاة.
- أقصد.. الفراو خرجت شبه عارية تصرخ، صحا المصريون ورأى المنظر بعض النزلاء..!
- كنت موجودا..؟
- نعم كانت منهارة. مهما حدث فقد أوقعته في فضيحة. لا نعرف أي خلفية وأي أسباب..

- حاول اغتصابها..
- هي امرأته..!
- سمعت أنه عسكري..
- ضابط في الجيش. يكبرها بخمسة عشر عاما..
- هي طفلة إسلام..!

قال أحد الزملاء..

- رجل متخلف.. جلب لنا الصداع.. كل سائح جاء يسأل.. كيف تخرج امرأة في الفجر.. صارخة مرتعدة، يلاحقها رجل مثلما يلاحق ذئب فريسته..؟!

رد آخر ..

- لم يستوعبوا تبريراتنا..

ماذا فعل معهاالضابط؟. لوي مدير الباخرة عنقه قائلا..

- ركزوا في زبائنكم.. لديكم الاحتفال برأس السنة..!

الأول من يناير ٩٧..

مرت ليلة رأس السنة! في ليلة مثل هذه جاءت كريستينا. طلبت أن تختلي بالمرشد الخاص بها.. منذ شهور لم أحظ بمجموعة يقل عددها عن العشرين. كان أسبوعا مقتطعا من دفتر القدر. سبعة عشر فردا.. فيهم امرأة بدينة ترافق أخرى

متوسطة الطول، قصيرة الشعر، واسعة العينين، فيهما خضرة طازجة ساحقة، تتحدث بصوت مشدوخ من أثر احتساء شيء دافيء.. في صباح اليوم الثالث صحونا على المفاجأة، تدخل الباخرة في مثلث الحيرة والشك والاستسلام. لم نعرف عن العروسين شيئا، لم يخبرنا مدير الباخرة أن الطابق التحتي به مصري سكر وترنح ونصحو على هذه الكارثة.. إنه يطارد فتاة في السابعة عشر، وتطاردني كريستينا. وقفت ظهر هذا اليوم أمام المجموعة، أمسكت بوجهي، سحبت يدها البيضاء الصغيرة من فوق فخذيها في الأتوبيس.. وتركت السؤال يفدغ رأسي..

- ماذا حدث للمصرية..؟

- أي مصرية؟

- العروس!! اغتصبها..؟!

العيون تلتقطني حيث أكون، في المعبد، في اليوم التالي حاولت تغيير مجرى الحديث، قلت: المصريون بنوا، شيدوا، أصحاب هذه العبقرية. كنا في معبد ادفو. قارنت بين تماثيل عارية وأخرى متدثرة بالمئزر الفرعوني.. فجأة انطلقت ضحكة كفرقعة تأتي من السماء.. سبعة عشر رأسا اهتزت في ارتعاشة مفهومة لها. العيون انسحبت لتنام تحت جلد المرشد.

- ماذا يضحكك..؟

- هذه المقارنة..! أي عري..؟! مؤكد لا علاقة لكم بهذه الأشياء..

- ماذا تقصدين..!؟

- المصري القديم، العبقري مثلما تقول، مات. المصري الحالي إنسان بدائي يفترس الأنثى. لو سمحتم بالعري لما حدث ما حدث..

- دعينا من هذا الأمر..!

- كيف؟ تتشدق بكلام فارغ من مضمون..!؟

طلبت لقاء خاصا مع المجموعة. في البار شرحت وأفضت عن الحياة المصرية القديمة.. حاولت الربط بينها وبين المصري الحديث؛ إلى أن أغرقني العرق ولمعت العيون..عدت حزينا إلى حجرتي.. أسب وألعن هذا الضابط وتمنيت ألا أكمل الرحلة مع هذه المجموعة!

الثاني من يناير ١٩٩٧..
ليلة عودة الباخرة إلى الأقصر قادمة من أسوان..

انتهت "الجلابية بارتي". المركب ممتلئة بالنزلاء. من المدير إلى المراكبية. لا تختفي الابتسامة المصرية، وهي مدفوعة مقدما، وامتلاء المركب هو الثمن الفعلي، هكذا

اكتشفت. عبرت معهم نفق الصيف؛ الآن تحلق عصافير ملونة وتنتشر الكلمات ورودا فوق الترابيزات..

بعد لعبة "التحنيط" تركنا الموسيقى تصدح في البار. جاءت واحدة من مجموعتي. دعتني إلى رقصة. تحولت الموسيقى إلى سلووو، وجدتني أتمايل، أتشبث بوجه كريستينا..

يفعلن نفس الشيء. الهمس في الأذن. لم أتحقق من وجهها. كانت تترك رأسها فوق كتفي. همست أن: أفيقي. همست: كلما نظرت في عينيك لم أصدق أن جاذبيتك تشبه الحلم الذي يلاحقه الإنسان ليعاود ظهوره. أفيقي. همست: ألم تقل لك واحدة هذا الكلام بعد هذه الليلة جلست معي، شطرا من حكايتي مع كريستينا سمعت. فقط لتفهم أن الطريق مغلق، قالت: لا يهم. من حقك. هو أسبوع ويختفي معي!! قلت: لا، إنني أحببتها.. فعلا أنا كنت لها.. والآن.. قاطعتني..

- ماذا الآن..!

مع المحاولات والوقوف لالتقاط الأنفاس، ومع البحث غير المجدي عن لحظة ضعف قالت:

- قل.. ماذا فعلت لك؟
- لاشيء. قابلتها في مجموعة. وثبت فوق قلبي من داخل حادثة صغيرة.. وكفى..
- إما تحكي أو تستسلم لي..!

لا أرغب في الاحتفاظ حتى باسمها. اسميتها "الثرثارة". اسم كريستينا يلملم ذرات الشوق من زوايا الأوردة، يدعو الدم إلى التدفق.. سرت مع هذه الثرثارة، تسأل وتحصل على ما تريد ويتفتق ذهنها عن أسئلة شيطانية، تستلب تركيزي وفي نفس الوقت تضعني في عالمي اللذيذ. صوت كريستينا يهمس، أحيانا يتحول إلى طيف؛ مؤكد حكيت للثرثارة عن طريقة كريستينا في الحديث.. عن أسلوبها الفريد في انتقاء الألوان. وأخذت يدها.. كأنما السوق السياحي في أسوان والأقصر لن يستقبلاها إلا ويدها في يد المرشد. على المقهى صمتت لحظة متطلعة إلى محطة أسوان. سألتني..

- ماذا يعني "الكا"..؟
- "الكا" عند المصريين هو القرين..!
- أيحمل صفات الأصل؟
- أعتقد ذلك..!
- لا..! قرأت أيضا عن العقيدة القديمة، عن الرموز.لا تظنني غبية..
- عفوا..أنت..
- الكا هو القرين. نعم.. لكن هذا القرين يسعى دوما ليظل ملاصقا للأصل. من الممكن أن يتغلب بصفاته على الأصل ويتحول في زمن قصير إلى الكائن الأول و..

قاطعتها.

- نظرية حديثة من امرأة ذكية..!

- نحن نعيش في عالم واحد.. مكتمل.. جئنا لنذوب فيه ونتخلص من نقصنا..

- ماذا تقصدين؟!

- يجب أن نتغلب على ما يعترض الذوبان في الكمال..

- كيف؟

- هناك من يحول بينك وبين الوصول إلى النور، نورك الخاص.. نورك القادم من ذوبانك في العالم الكامل. دوما يقف دونك شخص.. وهذا شيء محزن..!

- هيا.. كفى..!

وتركت داخلي البحث عن لحظة الاكتمال (كما تدعي).. دخلت في نوبة حزن.. أغوص إلى عمق بارد، تشربت نفسي بأسى طفح على وجهي..

بعد ليلتين معها.. قالت..

- حاولت إدخالك عالم الكمال الحقيقي.. أنت الآن على أعتابه.. للأسف لا يمكنني الأخذ بيدك..

- لماذا؟

- قرينك يرفض.. (الكا) التي تصاحبك لم تستسلم مثلما فعلت أنت!

- أنا لم أفعل؟

- طبعا.. سأعتبر هذا كلامك..!

في غرفتها كنت سعيدا وحزينا في آن، راضيا ومنتظرا لحظة الخروج، أذوقها وأرمي بالمتبقي داخلي في ركن سأعود إليه. هكذا كنت أدخل مدركاً كل شيء. تركتها تمسك كل قطعة من ملابسي، تفك الأزرار، تعري كل أجزائي. تركتها تضعني أمام عيني الكامنة داخلي، التي تشاهد وتتأمل. حسبت في كلامها الصدق، تفعل هي ولا تستحث أنفاسي أو ترتقي لحظة الشبق قبل الأوان. إنها لا تلتقط روحي الحزينة؛ بل تعيدني إلى أيام ظننتها دُفنتْ وبُليت. لا أدري لماذا تصهل الأيام البعيدة؟ تركتها ترسم فوق جسدي المعالم التي جاءت تبحث عنها وتبنيها لتهدمها وتحفظها في رأسها. آه أيامُ الجامعة، البداية. تحتنا شقة مسكونة من فتيات في معهد التمريض. يعدن بعد العصر في أرديتهن البيضاء، مع الليل يبدأ البحث عن الطالب الطامح في جسد إحداهن.. كيف قاومت؟ كيف كنت أقف رافضاً تلك العروض؟. لماذا أنا مع هذه الألمانية؟. صمت لسانها. الثرثرة تخرج عن يديها وفمها وتتحول كلها إلى كلام غير ذي نبرات..!

كان في حجرة إسلام؛ دقت حنان الباب ودخلت. مثلما فعلت من قبل شعر هو كذلك أن جسده عار. كانت طاقية الرأس البيضاء المخرمة بجانب بعض الصفحات المقروءة، قالت: ابن الربيعي على الباب: نظر إليها ويداه تغطي الأوراق قائلا: ماذا يريد في هذا الوقت..؟ وكيف عرف أنني هنا؟ ردت في اقتضاب: سأل عنك في المدرسة وعرف أنك في راحة..!

- قولي له إنني مشغول..

لم تتحرك.. حدق طويلا دون البحث عن رد. أضافت:

- يقول إن الأمر مهم..

- يأتي غدا..!

انصرفت هابطة، رأت حازم يبكي. لم تلتفت إلى أمها وهي تصرخ في الصغير، سألتها الأم:

- من على الباب؟

- محسن ابن الربيعي!

- وماذا يفعل أبوك في غرفة إسلام..؟

ترددت لحظة ثم اتجهت إلى حازم بالكلام.

- ماذا كسرت اليوم..؟

قالت الأم :

- العفريت هشم كوب إسلام الذي يشرب فيه الشاي..!

انصرفت حنان بعد أن أفهمت ابنها ما يقول لمن يقف أمام الباب.

كان أمام الحجرة؛ يراقب السماء ويطيل التأمل في السحب الداكنة الثابتة، تغطي القرية بأكملها.. وعاد إلى اليوميات :

أول مارس ١٩٩٧..

كنت سائرا في أسوان، فرحاً بالحياة، بتدفقها أمام محطة القطار، بلونها الذي ولد في ساعة الغروب. بمحاذاة سور الحديقة سرت، نفسي نائمة في دفء مترع بالنشوة، استشعر ابتهالاً ورضاء أنني هنا..أنني دخلت هذا العمل وقابلت بشرا، يفكرون وهم جالسون أمامك، أرى الأفكار وهي أجنة ثم تتوالد بين يدي، أحتوي البهجة وتحتويني، أغوص في ذواتهم فأمسك ذاتي، وأكتشف أن كريستينا هي من وراء كل هذا. وقفت فجأة مستطلعا سطح النهر. الماء يدغدغ عيني، يدخل الصدر، يلمس شغاف النفس، هي برودة لذيذة، إنها كريستينا.. كيف وقف الفؤاد ضد كل الكتل التي جاءوا بها.. ما لها شكل وما ليست غير عبث، كيف صد الإحساس كل البقايا المتلبثة عن عمر طويل. كيف تقتحمك ألمانية؟!. هل نظرتها المثقلة بالمهادنة،

بالصبر، بالانتظار أن أعبّر عما يعتلج، أن أقبض على الكلمة، وأضع الجملة دون لعثمة، وتنصت، هل لهذا سمعت صوت الرذاذ، ورأيت قرصا ملتهبا؟ أم لأنها حين تنصت ترسل بريق العينين الخضراوين، ويأتيك البريق مغلفا في دفء.. وأنت المحروم، أم لأنها لم تنطق كلمة وسمعت منها الأشياء؟ في دقة، في منطق محبوك. رأيت فجأة عربة بوليس، بعيدا واقفة، الانتظار يلفها وله وجود ثقيل، ثم رأيتهم يسحبون شاباً، موثقاً من الخلف. أوقفت أسوانيا: قال يقبضون عليه: سألته عن السبب فقال دون أدنى اهتمام: وهل يحتاجون إلى سبب ليقبضوا على الشباب..! عدت إلى المركب. قالت كريستينا: سأتخلف عن العودة، وعليك أن تصحب "موتي" إلى المطار..! وأخبرتني أن شرطها ما يزال قائما. انحنيت أمام خوفي، مكثت أسبوعاً وظللت برفقتها ولم أدفع مليماً. كان عليّ تزويدها بإحساس يكفيها ويشبعها أنني معها، موجود حقيقي وليس مجرد رفيق غرفة، يشارك في الطعام، وبدأت أتعامل مع الأمر بذكاء مصري خالص. كلما انتهت ليلة أحاول تبديل الخطط وتغيير ألوان الخطوط، واجتهدت أن يكون وجودي المادي أقوى طالما هي تبحث عن هذا دون إخفاء الشوق، ووصلت إلى قناعة مؤداها: الإنسان في موقف، لا يهم أن يأتي الحكم في صالحه أو ضده بقدر ما ينتهي الموقف بالشكل المطلوب.. وكريستينا لها

اكتشافاتها، ولـها الأسلوب الذي يـهيىء مصريتـي ورجولتـي، ويمنحني الأوراق التي سقطت عن العورة.

الخامس والعشرون من مارس ١٩٩٧

أقول بعد أن غادرت كريستينا مصـر.. هل كـان مـن الحتم أن ينتظر مصري، ولد في الدلتـا، وجـاءا وعمـل مرشـداً، أن ينتظر ألمانية، ابنة مسـيحي ومسـيحية، تـأخذه إلـى الأمـاكن التي تطل على بلده، يري النيل بشرته البيضاء أو السمراء، ينام المساء على أصواته الخافتة مــع أنثـى ألمانيـة، النجـوم ترتعـش قريبا من رأسه، وحين لا يستجيب لسباحاتها تخترق سطح الماء في سكون وخلسة وتظل تتراقص هناك. هل هذا قانون الطبيعـة أم قانون البشر؟. تحقق ألمانية أمنيةً مصري، أن يسكن ليلة فـي فندق "كاتركت" يجلس في التراس، بعد أن شدته آلهة نائمــة مـا تزال تحت قـدم النـهر. تطـل جزيـرة "ألفنتيـن" علـى التراس، تحاوره وهو غارق في عطر كريستينا، تهمس بجانبه أن عندنـا هذا الغروب، ألا تشم الرائحـة وهـي تسـحب تحـت ليلـك بسـاط الخلود. هل كان يمكنك يا ابن هارون أن ترفض هـذه الليلـة؟ أن تنصت إلى ما سمعت أصوات انهياره، مـاذا لـدي مـن ضمـان، من حقيقة، وأي حقيقة، أنها معـي..أنـا مـع هـذا المصري الـذي

غرق حين جاءه الموج، من إيطاليا، من النمسا، من أسبانيا، كنت أقف وأقول أنتم خونة، أنتم تركتم أجسادكم وأنعي وأتعب، إلى أن فهمت معني الابتسامة التي يتركونها بديلا عن كلامهم. إنها فوق شفتي.. لأهلي وأصدقائي، لماذا تحكمون، وماذا لديكم لتقيموا؟ هل عشتم لحظة ولا أقول ليلة، أو أسبوعا مع أنثي؟ تعلمت وفهمت وتدربت ثم مارست كل التجارب لو عشتم تعالوا إليّ.. اسمعوا..! هكذا كنت أحاور نفسي من أمام جزيرة "الفنتين" ماذا يريد الإنسان..؟ سعادة وأجدني فوق ظهرها، امتطي السماء، أتعلق بالنجوم.. تتسرب في أذني كلمات وليس فقط ثرثرة، إنها الحضارة والتاريخ، وتفسيرات جاءت بها، إليّ، تدور رأسي أتماسك أمامها، تحدثني عن حضارتي، كيف بدأت وكيف انتهت، نعم أسمعكم.. إنها جاءت بكامل العتاد.. ربما ليس من أجلي.. لكن من أجل المصري.. ومن أنا..؟ ومن أجل ما أقول لا؟! أقول انتظري؟. أسأل مدرستي أولا، عائلتي، أساتذتي، ورنوت إليها وهي ترتشف شعاعات الغروب، عيناها تلتهم طبيعتي، أجاءت لتفتح عيني على الحياة؟. هل تعلمت طقسه فتحة الفم؟ أنا الذي شرح الطقسة في مقبرة توت عنخ آمون: قلت الكاهن يفتح فم الملك ليستعيد القدرة على الكلام، والأذن ليستعيد القدرة على السمع، والعين، والقلب، رغم ذلك كنت أوصدت كل شيء أمام هذه الحياة.. إنها

جاءت من وراء البحار لتفتح هذه الجوارح.. هل أظل هنا.. بجواركم أيها العباقرة.. لا أظن!!

نهاية مارس ١٩٩٧..

كتبت كرستينا إليّ، أمضيت أسبوعا في القرية. قريتي أهدتني لفافة ومجموعة من الخطابات..اللفافة من الثرثارة الباحثة عن الذوبان في "الكا..".

خطابات كريستينا مثلها ناعمة. كلماتها تنسحب لتظهر في أحلامي. يجب أن أجهز نفسي للسفر. ترى هل يستحق سيد البطل أن أكافح من أجل مسيرته؟. قرأت خطابا مكتوبا على الكمبيوتر. لم تقل كثيرا. طلبت أن أقرأ الكلام بعناية. لم تنس أن تذكرني بنفس الليلة؛ إذ تخاصمنا وبُدلا من أن نتذاوب تلاصقن. ترجمت الخطاب. استعنت بابن الربيعي. أعاد ترتيب الكلمات. كانت أمامي مثل بناء من الصدف. قال: يجب أن نعيد كل جزء إلى مكانه ونجعل لهذا الكيان ما حظي بهم من صاحبه. هذه ترجمتي بعد إعادة نظمها.. ربما برؤيته الخاصة..

بينما كنت أمشي فوق الرمال

قررت أن أهجرك..

كنت أخطو فوق طين غامق.

يرتجف.
وبينما كنت أغوص فيه ثم أخرج منه
قررت أن تخرجي مني..
وأنك كنت تتقلين عليّ كالحجر القاطع
وبلورت فقدانك خطوة خطوة..
استئصالك من الجذور
واطلاقك وحيدة في الهواء وفي تلك اللحظة
يا حبيبة قلبي
كان ثمة حلم مزعج
يغطيك بأجنحته المرعبة..
كنت تشعرين أن الطين يبتلعك
وتناديني فلا أهرع إليك
وكنت تغوصين، دونما حراك، دونما مقاومة
إلى أن غرقت في الرمال الناعمة..
وبعد ذلك.. تلاقي قراري مع حلمك
وخرجنا مرة ثانية.. من الصدع
الذي كان يحطم روحينا..
خرجنا مرة ثانية
ناصعين.. عاريين..
غارقين في حب أحدنا الآخر..

دونما حلم.. دونما رمال
مكتملين.. متوهجين*

ليلة الثامن من إبريل ١٩٩٧

لاحظ النوبي الواقف داخل البار أنني لا أنصت، لم يكن يتحدث عن النوبيين كعادته، رغم شرودي كنت أرى ملامح وجهه الأسود المستطيل على عهده، منحوتا مثل الوجوه المتناثرة بحديقة المتحف النوبي. أخرجني من التجوال ووضعني على دربه. داعبته قائلا:

- ماذا يوجد عندكم لأراه.

قال..

- لدي الكثير وأنا جاد..

بعد العشاء خلع البيبونة وجاءني في جلباب أبيض؛ ولكني أجلت لخوفي من زيارة قريته ليلا.. ذهبت في اليوم التالي قبيل الغروب بساعة أو أكثر..! أجلسني مع والدته، سوداء كقطعة من الليل الناعم الدافيء، وتركني أجول بعيني في جنبات الدار الواسعة، عنده كل الحق، رأيت دورا نوبية، لم يفهم أنني أرى فعلا بعين السائح. هنا قفز، تركني في صحبة

* القصيدة من ديوان لبابلونيرودا..

أمه المنكفئة على طفل ابنتها ثم عاد..!

لم أعد أثق في شيء بعد ذلك اللقاء. كلما تذكرت رميت ببصري فوق سطح الماء متذكرا القول المأثور: "أنت لا تنزل النهر مرتين.." لاحقت الماء أو تركته يلاحقني. النيل أمامي. هل هو هو وأنا إسلام حقيقة؟ أم ما يدور في عقل النوبي؟! ملامحه لا تمحي من رأسي، وجهه مركب من ابتسامة لا تختفي، لدرجة ظننت أن هذا الإنسان ولد بثغر يشبه تفتح الزهرة، ومركب فوق جسد بدين، لم أر بدينا بين النوبيين بهذا الشكل.. واطمأن إلى صداقتي بالجرسون.ومرت دقائق كان قد ولجني في هدوء. وقال فجأة:

- أنا كاتب..!

على الفور تذكرت ابن الربيعي..

- شاعر..؟

- كاتب قصة..

قلت مداعبا..

- مرحبا بك في الربع الضائع..!

لكنه حدق في قريبه النوبي صديقي، ثم أطال التحديق في، كان جالسا ممسكا كوبا صغيرا به شاي خفيف، همس إلي رغم أننا في مكان مفتوح للسماء الزرقاء، وقريبا منا لا يوجد

غير النهر وخلفنا الجبال..

- أكتب رواية عن مرشد سياحي..
- لماذا المرشد..؟
- العلاقة..

وصمت.. لكنني دفعت للتساؤل بسبب الغموض..

- ماذا تقصد..؟
- العلاقة بينه وبين النساء. هذا هو الفصل الرابع..!
- طبعا المرشد نوبي؟

يتحدث من داخل جلباب أبيض فضفاض، بدا حجرا من الجرانيت الأسود غارقاً في ماء النهر، تطل قمته ليقف فوقها طائر الأبيس، عيناه واسعتان شأن عيون النوبيين وصافيتان، تتكسر شمس الغروب فوق أسنانه البيضاء المنضدة. لا يمكن تحديد عمره. تبحث عيناه عن شيء في السماء الرائقة، غير ملتفت لقولي. قال:

- بدأت قصتي فعلا بنوبي يختلط بالسياح..!
- وتوقفت!؟ كل الكتاب يفعلون هذا.
- انتهيت منها.. لكنه الرجل العجيب..

كان صديقي النوبي الجرسون قد عاد. لا يتكلم في هدوء مثل هذا البدين. ألاحقه فقط لأرد أو أتجنب نظرات الاتهام؛ إذ يداخله إحساس إنني لا أعتبره صديقا حقيقيا. تدخل..

- الرجل العجيب.. هناك ساكن العشة..!

واصل البدين الكاتب..

- قرأت الرواية له. لما سألته أأعجبتك؟ قال "لن يصدقك أحد؟". ظل يردد على مدى يومين "لن يصدقك أحد!" أنا لا أفعل شيئا دون مشورته، إن الكلمات التي يقولها لا يمكن الهروب منها..؟

قال الجرسون صديقي..

- رجل مبروك.

أضاف البدين الكاتب..

- الرجل يعيش مثل نخلة في الصحراء. نخلة وحيدة، تعلمت كيف تقلد صوت الريح وكيف تحتمل هجير الصحراء، كيف تتوافق مع الأيام والسنين، لا ينطق إلا بما يرى، تماما مثل طفل..

أتعرف ماذا قال..؟

- قل وسأصدق..

قال إنني سلكت الطريق الخطأ.. المرشد يجب أن لا أعرفه. لو سألته ما اسمه لخبرني. أمسكت لأنني أرتعب من نبوءاته. مرة قال لرجل إنه لن يتزوج حبيبته.. تدخل الجرسون ضاحكا شاعرا أنني سأصدق لو عزز كلام البدين..

- اشترى العفش، ونقله إلى بيت أمه "يسمون أم العروس أما وينتقل الزوج إلى دار العروس".. تبقى أن يكتب المأذون..
- وبعدين..؟
- تشاجروا.. ولم يتزوجها..!

أضاف البدين..

- سألته وأين أعثر على المرشد..أخبرني أنه موجود في مصر.. بعد يوم وليلة أعدت عليه السؤال بعد إغراءه ورقة معسّل. قال يجب أن يكون من بحري ويعشق امرأة جميلة..

قال البدين..

- لا أعرف.. لكنني فعلت.اكتشفت أنه إنسان مدهش، من بحري وله وجه مثل وجهك. تقريبا في عمرك. أنت مرشد؟
- نعم..!
- أي لغة..
- الألمانية..
- هو أيضا.. وحبيبته ألمانية..
- لكن مرشدي إنسان متدين ومن أسرة مستنيرة..

بدأ الظلام يهبط، هبطت معه رطوبة ثقيلة، أحسست أنني أجلس أمام شبحين وأنني أسمع أصواتا تصعد من النهر تتجاوب معها أصوات تنطلق من خلف الجبال، لا يزال يتحدث

البدين، طلبت أن أعود إلى القارب، وقفت أمام البيت رغم إنارة القرية. تبدت الحارات متداخلة، لا يمكن أن يكون هذا حقيقة، إنها تتداخل لتنغلق، لو كنت بمفردي ما أمكنني الخروج من هنا.. عدت إلى الباخرة..!

الثامن من أبريل ١٩٩٧!!

لدينا يوم في أسوان، في فجر اليوم التالي يفك المراكبية حبال الباخرة، تنطلق عائدة للأقصر، أكون نائما.. لم تفارقني فكرة رؤية العجوز النوبي ساكن العشة.

الخامس عشر من أبريل ١٩٩٧!!

ليتها كانت معي. من داخل كابينتي أضع وجهي على زجاج النافذة المغلقة، ماء النهر يضرب الزجاج السميك ضربات متتالية كأنها بفعل عشرات الحيتان، تتقهقر الجبال وتبدو الأرض الخضراء في امتدادها بساطا تحت قدم كائن هائل ساكن. درت في الكابينة أكتب لكريستينا ما سمعت. يمكنني الاحتفاظ لنفسي بهذا الهذيان. سأتابع وانتظر! وقف البدين الكاتب أمام عشة من البوص مطلية بطمي النيل. أمامها قطعتان من جرانيت وردي، الجلسة الطويلة للعجوز النوبي، متجها صوب المشرق. قال للبدين: "كل يوم تخرج الشمس من

هناك، أنتظرها في نفس الميعاد وهي تعرف أنني هنا.. ! سأله البدين: "ماذا سأفعل مع صاحبي..؟" فرد العجوز جسده مثلما يفعل طائر الأبيس حين ينتصب في الشمس، جرم طويل يملأ الناظر بالاكتمال، قال البدين: إن عمره جاوز السبعين.. عيناه تتمتع برفقة طيبة من جبين بارز، وجفون ثقيلة بيضاء وجلد متغضن خفيف. صوته قوي مثل صوت قائد اعتاد الكلام في وضوح، الجلباب رمادي خفيف قصير.. يمزج اللغة العربية بالنوبية.أحيانا أفهم كل ما يقول؛ رغم أنني أشك فيما أسمعه. قال للبدين:

- لا تجعله يتمرد. ضعه في الطريق الذي أردته وأبعده عما يريده.. !
- لا تستجيب لعناده..
- كيف؟!
- هو يبحث عنك. يبحث عن خلاصة تفكيرك ولن تمسك به إلا في حالة واحدة
- ما هي؟
- لو شعر أنك تنتظره ولا تحتقره.. !

سألت البدين..

- ماذا يعني إنه يعرف..؟!

لم يلتفت مطلقا لوجودي. رحّب بي حين رآني، كأنما مررت من أمامه واختفيت. حاول البدين مجاملتي. أمسك يده السوداء المزخرفة بعروق واضحة في تداخلها بارزة مثل رسومات المعابد..

- صديقي..!

تركني أسقط في عينيه كشعاع يلاحقه. قال..

- مثلا هذا صديقك. من بحري. أحدكما أقوى من الآخر. لو حدث احتكاك ظهرت قوة الضعيف..

عاد إلى جلسته فوق أحد الحجرين. ظهره إلى العشة. لم ألحظ داخلها شيئا ملفتا. ملابس متناثرة، وجوزة صغيرة مركونة إلى مقطف به فحم.. تركناه شاردا في الشمس، حسب قوله، رغم أن غمامة عريضة غطت سماء أسوان، ونادرا ما يحدث، عدت أفكر جديا في العودة إلى طنطا ولو لمدة قصيرة. أعددت كل شيء للسفر.. بعد يومين تعود المجموعة إلى الغردقة..

التاسع عشر من أبريل

قبل السفر بيومين

قال الجرسون النوبي: إن الكاتب ما إن يراني ويسأل عنك. لم يحاول أن ينقل كل ما قاله النوبي البدين؟ أعد هذا

اكتشافا، قال إن البدناء في القرية النوبية يعتبرون حالات نادرة وأن هذا البدين لهذا السبب لا يجالس غير هذا العجوز المبروك. واندهش لكلام البدين عني؛ إذ يعتبر مقابلتي معه شيئا خارجا عن تخطيطه وأن وجهي - حسب حكايات الجرسون عنه - مألوف له. يدعي أنه رآه في حلم أو عبر يوما مجال رؤيته!!

قال البدين في اللقاء الثاني: لا تستبعد شيئا في الحياة. مؤكد تقابلنا قبل اليوم، ثم دون الخروج من الغيبوبة التي يستعذ بها قال: ما الزمان وما المكان نحن هنا في قرية نوبية. والأرض تدور، والزمان شيء اعتباري، ربما تقف في "كلن" أوفي "لندن" لا أنكر أن إحساسا يسيطر علي، يتكاثر كل يوم داخلي تماما مثل تكاثر الفطريات حول قطعة من الخبز شاردة في هذا الكون الشاسع..

٣١ أبريل ١٩٩٧
ليلة السفر

ودعت الأصدقاء. أمضيت ليلة في فندق متواضع بالأقصر. ذهبت إلى المركب لأودع صديقي النوبي..! قال: لك رسالة.. من صديق! سألته إذ نسيت تماما. قال: البدين يبلغك سلام العجوز النوبي، وقال إن صديقه سيسافر معك.. !

إندهشت لهذا الهذيان، ضحكت طويلا والجرسون يطالعني بوجه جاد سألته من هذا الصديق.. قال: أنسيت بطل الرواية..؟!

- أنتم معتوهون!

- فعلا.. هكذا قلت للبدين..!

نمت هادئا أو هكذا تصورت، لأن كريستينا في مكالمة طويلة.. سألت:

- أما زلت تدون كما علمتك..

- أفعل شاتس..

ردت :

- لو نمت جيدا سترى جيدا..

الثاني والعشرون من أبريل لعام ١٩٩٧..
الثانية عشر ظهرا

لم أفعل حين انتقلت من التدريس إلى السياحة، لم أدون التحولات. تمت في غفلة مني وانتقلت من القرية إلى الصعيد ومضت شهور وأنا مندفع لقارب فوق الماء.. يغطي سطحه الرذاذ ولا يهتم قائده بالملاحظة، خضت تجاربي ولم انتبه، ولماذا أبدأ بتحولي من مدرس إلى مرشد؟ لو لم استمع

لكريستينا ما دونت كلمة. قرأت علي ما تكتبه نهايـة اليـوم. إنـها تتدخل في المجرى، تضع هنا سدا، تحول التيـار حيث ترغب، فتنتقل معي من غدير إلى أخـر، تدخـل عـالم المشـاهدة. أطعتـها لقناعتي بما تفعل. ما تبقي في الذاكرة قليل.. عـن طفولتـي، عن أيام الدراسة في المعهد الأحمـدي. تبقـي عن الجامعـة السـكن.. عام واحد كان حافلا، طعاما دسما لروحي. قاومت فتيات معـهد التمريض؛ لكنـهن أشـرقن علـى سـطح متشـبع بمـاء راكـد. لـم أتصـور أن شمسـهن اللاهبـة سـتجفف ميـاهي الراكـدة، سـتغزو نسيجي. لم استسلم. لكنهن تركننـي تربـة خصبـة. عامـان وسـط زملاء غريبي الأطوار. قلدت وفلت مـن إغـواء مدرسـة الرسـم "مدرسة الفنون الحديثة"..

كنت قاب ذراع أو أقل. حبسَـتني فـي الحجـرة. رسـمت فوق وجهي خطوط الشبق. أمام تماسك مفتعل كبتت مستسلمة لأخلاقياتي، وحزنت أن صدقـت لتـهجرني. الآن.. يجب تنويـن هذه الملاحظة" أنني تركـت التدريـس قبل هجره فعليـا.."حين تزوجت هجرت طموحاتي أعشاشها. كنت أعود لعش فارغ. مـا إن سـمعت أن عريسـها يعمـل فـي السـياحة وطلبـت مقابلـة. لـم ألتفت لما يحكي. اختطفت الجزء المهمل من ثرثرة عن المرشـد السياحي. هناك فـي القـاهرة انتـهى كـل شـيء. لـم أكـن بـالجرأة لأعترف. بعد أن دخلت العالم المضبب تحولت من مبتديء إلـى

مرشد محترف، بعيد في أوقات بعيدة عـن الغروب والشروق، تبرق في رأسه صورة الممرضة الداخلة في برواز الطلبـة. كل ليلـة تدخل بـروازا جديدا. جاءتني بليل. لـم تقدر أنني أيضـا سأكون بمفردي. وقفت في قميص النوم، وحين حاولت الدخـول في بروازي، وجدت غبيا يكشر عن أنياب هشـة. بدلت ألفاظا معبئة بالهسيس والفحيح إلى إعيـاء فـي عينين فقيرتين!! نعم.. سبت ولعنت واختفت..! نفس الفعل فـي المرحلـة الأولـي علـى باخرة تتسع لخمسة وثلاثين نزيلا. عشرة أيام راقبتني، كـانت إيرانية تعيش فـي ألمانيـا. تفيق نـهارا وتدخل زق الخمر ليـلا. تسبح وتمديدها لمن يبحث معها عن القاع. مسلمة. وأردد طوال العشرة أيام (لن أقربها!!) ركلتني بشكوى للمسئول عـن العمـل. أنزلتني مهزوما، تركتني أبكي لأنني لم أقف في ساحة الاقتتال من الأصل..!

بعد مرور عامين كنت قد تدحرجت بعيدا عن قوقعتي. اجتذبني الـدفء، خرجـت مـن أسـفل الرمـل الخـالد. كنـت الجعران.. خيبر* رب الأربـاب. رب الخلـود، أموت فـي الليـل وأبعث في النهار..! وأعتدت هذه الدحرجة، أحدد المنطقـة التـي يتم انبعاثي فوق صدرها وأنفث سائلي الخاص بالخلود...!.

---

* اسم إله مصري قديم.

تناولت غدائي. شطيرة محشوة جبنا. جناح دجاجة مجفف، وكوب بلاستيكي داخله سلاطة خضروات. دون شهية أكلت كل شيء..!

يلح العجوز النوبي علي. ببساطة أستسلم لما يغزوني. هؤلاء النوبيون طالما نالوا قسطا من تفكيري. أذكياء.. نعم. بعض الزملاء يرون فيهم خيانة لا أراها. ماذا يفعل نوبي في وجود سائح؟. إنها الاستفادة. يفتح بيته ليشاهده سائح ويترك له الماركات والدولارات والفرنكات والليرة! من حقهم الاستمتاع بما هو موجود..! النوبي البدين ثار في وجهي.. "لو لم يقبل صاحب الدار ما فعلت" لم يفهم.. هو نفسه يفتح داره للسائح.. هاج قائلا: أبوه يقلد الآخرين. إن الحياة النوبية تتلوث مثلما لوثتم ماء النهر!! المضيفة ألمانية فارعة العود قدها ممشوق شعرها كستنائي، تبتسم نفس الابتسامة التي دون هدف ودون طلب؛ لأنها تشيع في طرقة الطائرة إحساسا لم يتبدد؛ إذ يدخلني في الجليد الألماني ونحن في الصيف. سألتها: هل سنرى الشنيه*؟ قالت: الشنية في يناير وأعطتني قدحا من النسكافيه؛

* الشنية معناها الثلج وهي النتف البيضاء التي تسقط من السماء.

لأنها رأتني أكتب! أخذت معي كل الملابس الثقيلة "القرآن" لا يفارقني..!

- ٣ -

حين دقت حنان على أبيها فرد ظهره، قال بصوت مرتفع "الحمد لله أن جاءت. مرت ساعات. حتى صلاة العشاء في المسجد فاتتني." أعاد الأوراق إلى الدولاب. دون ترتيب. فكر أن الوقت قصير، في أي وقت يصل إسلام. سألته حنان..

- ألم تخرج من وقت المغرب..!؟

لم يرد. أضافت والأب يرى وجهها أسفل لمبة معلقة فوق الباب.

- ابن الربيعي علي الباب.. !

- أين حازم..؟

لم تدخل الحجرة، كانت ملتفة في عباءة من الصوف..

- يشكو من جدته وهي تشكوه..

دعى محسن للدخول. اختفت أم حازم داخل حجرة أمها..

سأله عن صحة أبيه وعن أخته العاملة في السوبر ماركت، كلما انتقل الشيخ من سؤال إلى آخر انكمش محسن في

مكانـه يلـف كوفيـة مـن الصـوف حـول عنقـه، أحـس الشـيخ أن الشاب لديه ما يقوله، وأيضا ما يمسك لسانه.

سأله :

- وكيف أمورك أنت..؟

تشجع محسن..

- متى يعود إسلام؟

- ربما غدا أو بعد يومين..

- أبي..!

لم يقدر أن يزد، رأى محسن أن عمه هارون فعلا غـير مستعد لسماعه. كان قد ترك داره مصمما مقابلة الأسـتاذ؛ إذ لـم يجد في القرية بديلا عنه، يفرمل أبـاه، يتفـهم وضعـه، مـع ذلـك نطق الكلمة وتركها تدور برأسها في قلب الشيخ..

- قل يا بني.. أنا أعرف وأفهم ما يمكن فعله..

- إسلام هـو الوحيد الذي يفـهمني لكنـه ليـس موجـودا، ثـم إن أبي أخذ خطوة أكبر.. تحتاجك يا أستاذ..

- ماذا فعل الربيعي..؟

- سيزوجني..!

- وأنت لا ترغب في زواج؟!

- أرملة..!

- كنت أقنعته أن يفكر في الأمر..

- يقول إنها صغيرة. مات زوجها كما تعرف في حادثة..

- فكر أنت في الأمر.. أنت أحق بها..

- أرملة..!؟

- ولديها محل عصير..!

فكر.. لحظات فيما يمكن أن يخفيه هذا الشاب. من أدراه أنه لا يتكتم على أسرار مثلما يتكتم ولده. سأله فجأة..

- أتكتب مذكرات..؟

- ماذا تقصد يا عمي..؟

- أردت فقط إبعادك عن صورة سيئة لأبيك..

- أتساعدني..!؟

انتبه إلى ملامح وجهه المصفر، والتقلصات التي جاء بها، وصوته المضطرب بل دفعه هذا أن يعتنق أفكارا جديدة وتصورات عن كل من يعرفهم.. حنان.. صديقة مدير المدرسة، أصدقاء المدرسين..! وعندما طافت بعض الأحداث الخاصة بحنان في سماء فكره توقف "نعم" لديها من الأسرار ما يجعلني أهدأ أكف عن ملاحقتها بأفكاري، بصمتي، مؤكد رأت وسمعت ما لا أعرف، يجب احترام ما انتهت إليه نتيجة خبرتها..

- ٤ -

منذ يومين دخلت حنان على أمها الحجرة كانت ساعة الظهيرة، يوم صحو مشمس استغلته لزيارة حميها. عادت بعد ساعة، لتمضي نصف النهار هناك حسب وعدها.. تركت حازم وجلست أمام أمها..

قالت والدموع تملأ عينيها..

- الرجل سيجن..

- ذهابك بحازم يزيد من عذابه..

فوق هذا تأكد أن همام لن يعود. جاء من أخبره أن بعضا منهم هربوا. تركوا مصر كلها. جاءه برسالة شفوية أنه لن يعود إلى مصر وأبلغه أن الوضع الخاص بابنه وامرأته يحيله للأستاذ هارون.. وأنني لم أعُد زوجه..

- نهاية وانتظرتها من البداية..

بعد أن مر يومان لجأت حنان إلى العمل والابن لتنسى، كانت جادة في التخلص من كل شيء.. حين دخل أبوها بعد اليوم الدراسي وفي نهايته البقاء يومين نظر إليها وهي خارجة من حجرة أمها غير مصدق.. سمع صوت التليفزيون. رأى حازم جالسا محدقا في الشاشة وعيناه لا تتحولان ولم يلحظ عودة جده. تأكد أن حنان في طريق رآها فيها من قبل حيث

ولدت وتربت، وقبيل الغروب طلبت أمها الذهاب إلى بيت المتر عبدالصمد. كان الشيخ جالسا وحازم في حجره. فتح النافذة وتطلع إليها وهي تسير في القرية دون نقاب، ابتسمت الأم ونادت على حازم لتضمه، وتطلع إلى السماء المورقة خارج النافذة.

- ٥ -

الشيخ واليوميات
السابع من أبريل

لم أخرج الأوراق من حقيبتي اليوم. مر أربعة أيام في "كلن" مدينة صغيرة لا يمكن أن تقارن بمدينة في مصر. ربما أقارنها بمدينتي الحبيبة.. طنطا! ما إن وضعت قدمي في "البانهوف"* وتمنيت لو أنني أقف في مدينة الأحمدي. محطة القطار العتيقة في طنطا تمدني برائحة الأعشاب الطبيعية. كل شيء هنا يلمع، يتوهج، يبتعد عن كل ما أعرفه أو أحسه، ينقلك لمسافات بعيدة لتفصلك عن نفسك. وجدت كريستينا في انتظاري. لم تأت بمفردها؛ ارتمت في أحضان المصري أمام "ليزا". صديقتها ذات العروق التركية.. قبلتني لتنسى أن

* محطة القطار.

الأرض ألمانية والمحطة ألمانية، وأننا نأخذ السيارة إلى كلن استرقت هذه الدقائق لأكتب ما لا أريد نسيانه. وهو "أليست كريستينا التي جاءتني.. ولست إسلام الذي أتى إليها.. "تشاجرنا. بمعني أنها سألت وسألت ولم أرد الإجابة. تذرعت بأشياء انبثقت في رأسي؛ لست متقلا بالرغبة والاشتهاء. هي متوحشة إذا ما غاصت في عيني. تركتني أنام في غرفة بمفردي. تركتها في غرفتها شبه عارية، منثنية على أعضائها.. تشاهد برامج سخيفة (حسبما قالت). في الغد (ثاني يوم وصولي) خططت لزيارة ليزا. آخر النهار سيكون اللقاء مع أبيها.

التاسع من مياو ١٩٩٧" ... كلن"

ملأت كريستينا يوم أمس ببرنامج وصفته "بالمهم". اليوم يبدأ بعد عودتها من العمل. تقود السيارة لمدة ساعة. تماما مثلما قالت أمها من قبل. تعود في الساعة الخامسة عشر ظهرا بالدقيقة. تكون تعبة مشوشة. نصف الساعة تمر بعد الدش الدافيء وشرب كوب من العصير احتراما لوجودي.. بدلا من كأس روزيه. بعد النصف ساعة تعود "فرش"حسب البرنامج. ذهبنا إلى بيت صديقتها لتناول الغذاء. توقفت عن إخفاء إحباطاتي، الابتسامة أو الضحكة لم أعد أحتفظ بكلتيهما فوق

وجهي أكثر من دقائق أغوص داخل نفسي، دب بيننا خلاف منذ أول ليلة، لم تتمكن من الحصول على أكثر من يومين لي، وادعت احتياجنا للنقود، لم تفهم أن المصري له اهتمامات أخرى، ليست للنقود ولا الفسح. هجت قائلا: أنت، جئت من أجلك أنت. كففت عن التقليل من أهمية ذلك. وهي لم تصدق كلمة؛ إذ لا تخطيء نبرات صوتي. وتحدد إن كنت أثناء حديثي معها أم..! في السيارة سألتني:

- لماذا لم تخرج في غيابي..!؟

قلت لأتخلص من مخزون الضيق والحنق..

- لم آت لأجلس في البيت..

- أمامك المدينة.

- لا جديد.. يمكن رؤية مدينة كاملة في ألمانيا في ساعة ولمرة واحدة. كل الأشياء تتكرر..

كنت أتحدث وبقايا الليلة هي الخلفية؛ إذ رأتني واقفا فوق أرض غريبة. شعرت أنني أقف أمامها جسدا، العقل مكتظ بكل شيء عداها..

- ماذا بوسعي..؟

- ماذا بوسعي أنا..؟

صمتت لحظات ثم قالت..

- التفت لتعليمات المرور. أنت تقود في رعونة..!

دست على الفرامل جنحت إلى الرصيف. أوقفت السيارة تقريبا كدت أصرخ في وجهها.

- تعالي سوقي

حملقت في وجهي. وجهها كذلك بدا مضغوطا أسفل كف غليظة خشنة.قالت..

- أنا ذاهبة من أجلك..

- هيا نعود..

واصلنا لأنها أجبرت نفسها على الهدوء كاظمة انفعالاتها. إن تلتزم الصمت وتسدد حملقة في الفراغ، تفعل في حالات الاستسلام لي. كانت تنظر إلى في أسى، حاولت الخروج من هذا المأزق؛ غير أنني احتفظت داخلي بالحل البديل. وفكرت أن هذا بالذات أساس مكين لعدم استسلامي لرغباتها، أيضا لا أنكر أن هذه الصداقة المتناثرة مع السائحات في مدن مختلفة ربما تدفعنا للإجهاز على علاقتنا. وهي تعرف أن صديقات وأصدقاء المرشد في كل بلد. لم ألوح بأي شيء. في ليلة تالية ربما أفعل. ذهبت معها إلى ليزا. شقتها صغيرة لا تتسع إلا لشخصين، حجرة نوم وطرقة صغيرة هي المطبخ والصالة، دورة المياه مشتركة في طرقة طويلة. مسكن فقير. السمة الغالبة هي التوهج والتخلص مما لا لزوم له بالفعل. لو لم تستخدم مثلا مقعدا لتجلس عليه يوميا لذهبت وألقته في

"الزبالة" أكلنا وسط غابة كثيفة من صمت وترقب. رغم محاولات ليزا الدائبة أن تنظر إلى العصافير المحلقة وتنصت إلى الموسيقى السارحة. لم أدقق فيما طعمت، لأن الأمر لم يزد عن شطائر بالسمك والجبن.

مساء ذهبنا إلى أبيها. قالت إن أمها ربما تمر علينا، لكنها تنتظر نتيجة اللقاء مع أبيها..!

نفس اليوم (والحديث المنفرد مع ليزا)

قالت ليزا "أثناء احتساء الشاي نزولا على طلبي"..

- أنت مسلم..؟

ضحكت كريستينا بصوت مجلجل وأسندت ظهرها لأريكة مريحة، متأهبة للانسحاق أمام التعب، تاركة جفونها تسقط لتواري خضرة عينيها الناعستين.

- اسمه إسلام..!
- فعلا أبي كان تركيا مسلما يقال إنه قتل. لم أره. أمي تزوجت تركيا آخر.. تركتني لجدتي الألمانية.. إلى اليوم تعيش في تركيا..
- تعيشين في هذا العالم بمفردك؟

- تتصل بي أحيانا. تقول دوما: لن تعود أبدا لمثل هذه الحياة..

- أي حياة..؟!

نظرت إلى صديقتها وقد انفصلت عنا مستجيبة لنوم غالب..

- أيمكن إسلام أن تعيش هنا..؟

لم أجب في الحال.. لكن صوتا أقوى من إرادتي خرج..

- لا أظن..!

بدأت أدقق في ملامحها الطفولية؛ إذ تمتلك وجها صغيرا. أنفها.. فمها، يداها كل عضو فيها دقيق رقيق، أيضا صوتها خافت، عيناها سوداوان. شعرت للحظات بالانجذاب إلى كل ما يصدر عنها. قالت:

- ستقابل رجلا ألمانيا. اسمعه جيدا. ربما يقبل أن تتزوجك ابنته، لكنه لن يقبلك أبدا كزوج..!

- أنا لست طامعا فيه أو فيها..!

- الأمر لا يتعلق بك..

- بمن إذا..؟

- أشياء كثيرة. المهم.. لماذا تصر على الزواج؟ هنا لا يطلب أحد زواجا يمكنك..

قاطعتها.

- هذا ما قالته فراو شفارتس..
- طبعا كمسلم ترفض..! أتمنى ألا تتنازل عن شيء..
- تركتني صامتة حاملة زجاجة نبيذ وكأسين.اعتذرت بعينها وعبت كأسا. بدأت تتكلم وهي مطرقة؛ إلى أن نظرت تماما في عيني وأعلنت:
- تعرف كريستينا.. وهي نائمة الآن.. أن امرأة غيري كانت تسمح لنفسها بالذهاب إلى الفراش معك وتعد هذه فرصة أو حظا طيبا.
- لماذا لا تفعلين..؟
- هي متأكدة أن جذوري التركية ستمنعني..

استبد بي الفضول وسألتها..

- ألديك هذه الرغبة..
- مؤكد.. فأنا الآن أتمتع بنصف ألماني.. أو نسيت؟!

هذا الإحساس البغيض يسيطر على ويربكني؛ كلما تحدثت إلى ألماني، امرأة أو رجل، تملكني إحساس بالأسى؛ إذ أرى بشرا معذبا مسحوقا.. في العيون حزن عميق ودفين ومهول وفوق الوجوه رغبات لا حدود لها. رغم كل هذا ينظرون متسائلين.. لماذا أنت هنا!!؟

الحادي عشر من مايو

بعد اللقاء مع "هر شفارتس"*..

غادرت القصر أو الفيلا تاركا هر شفارتس مع أصدقائه. لحقت بي كريستينا. كانت تمطر كأنما أصيبت السماء بمرض هستيري، تنهمر الأمطار في شراسة. في عدوانية، في شكل مرضي، أمطار تلاحق البشر، أمطار تحجب الرؤية فقط ألوان فوسفورية تتذبذب خلف المطر، خلف الكثافة. إضاءة منتشرة فوق أو خلف سطح سميك من الأمطار. فتحت السيارة. جلست لا أرى شيئا. أشعلت التدفئة، فعلت هذا بشكل حانق وخارج سيطرتي على نفسي. صامتة، مهمومة، أيضا تبذل محاولات الرجوع إلى حالتنا الأولى. انطلقت هي.. رفضت أن أقود السيارة. بعد دقائق ضاجة برقصة بدائية من الطبيعة قلت:

- أريد رؤية ليزا..!

لم تنظر إلي، لكأنما توقعت هذا. بعد عشر دقائق قالت:

- Virgiss إسلام.. (إنس إسلام).

حاولت نفث الدفء في جسدي، لم تفكر ساعتئذ إلا ببرد الطبيعة. كنت مثل المحموم، الحلق جاف، والساقان ترتعشان، بعيدا عن ملاحظتها.. وبهدوء سحبت رأسي من فوق كتفها..!

---

* هر.. بمعنى السيد.

قالت..

- ألماني فركت Verruckt*

تطلعت إليها مندهشا: أضافت لتوضح..

- إذا نصفي مصرية..

ضحكت وابتسمت.. ثم سألت..

- ما زلت ترغب في رؤية ليزا..؟

- من فضلك كريستينا.

صباح الثاني عشر من مايو ١٩٧٧

(كلن .. غرفة نوم كريستينا..)

لا أعرف إلى الآن ماذا فعلت من الثامنة إلى العاشرة مساء. يقيني يجزم أنها عادت إلى نفس المنطقة الهادئة، إلى البوابة الإلكترونية التي في عرض بوابة المتحف المصري. هناك حيث تركت أباها ومعه الزمرة الألمانية، طأطأوا رؤوسهم جميعا - عدا أبوها - حيث تحدثت عن مصر، عن التاريخ.. لم أزد عن تقديم إجابات لأسئلة. كان يتطلع رافعا رأسه شأن من يتفادى الضربات. عيناه نظرتا صوبي في انتشاء الحاقد المهزوم ساعة انتصاره. أذكر كل كلمة، كيف سأل،

---

* ألماني مجنون.

حركات جسده، جاهد أن يظل كما كان قبل دخولي. قدم كأسا.قلت لا أشرب. حاول أن يدلف من البداية إلى الخرافة، إذ رسم لنفسه كل خطوة سيأخذها صوب معماري القائم في حضرة ابنته. تنازلت، قبلت أن أنازله في ذروة الوعي.. تناولت كأسا. قال بعد أن عبث فسادا داخلي:

- من أي مدينة أنت؟

سألت ووجهي إلى الصحبة. ثلاثة رجال، تجمعهم زجاجة شمبانيا، تتوسط مائدة صغيرة كلها من الزجاج الوردي..

- أو تعرف حضرتك مدننا..؟
- والشوارع.
- كيف..؟!
- أنا أستاذ الجغرافيا، دارس تاريخ، شاركت في مسح شامل لبعض مدن مصر، ومدن أخرى، مثل بيروت، دمشق، عشت في يافا خمسة أعوام.. لي أصدقاء عرب،أتراك، مصريون..
- ورجل أعمال.. ثري..!

عدت إلى السؤال لأتخلص من فحصهم الدقيق لي ولكريستينا..

- أنا ولدت في مدينة صغيرة.. في الدلتا..

صاح هر شفارتس..

- (روزتا شتاين)*..
- الدلتا هي برعم لزهرة اللوتس المعروفة ساقها هي النيل الممتد والباديء من أسوان.. وتتفتح الزهرة في الدلتا..

وهذا قول لجغرافي مشهور عندنا..

- ما اسمه إسلام..؟
- جمال حمدان..!
- Wunderbar*.. لماذا جئت إسلام..؟

أنقذتني كريستينا..

- فاتي**.. طلبت رؤيته. ها هو..
- وها أنا أسأل..؟
- لأنني أحببت كريستينا.
- ولماذا يحب مصري ألمانية..؟

لم أجد إجابة أقدمها ترضيه أو ترضيني ظننت أنني أسبح في هدوء فوق السطح. إنني أغوص داخل قوة تكفل العودة. تذكرت أبي. انبثق وجهه داخل الهول؛ حيث ننزوي في ركن دافيء..

---

* حجر رشيد

* رائع..

** أبـي.

- لماذا الحب أصلا..؟

- لا يوجد حب إسلام..!

سأل الكهل مرة أخرى والسيجار يعوق ألمانيته ولا يخفيها.

- ماذا درست هر إسلام؟

- العلوم الدينية.. ثم علم المصريات..

- وهذه اللغة التي تتحدثها بشكل جيد..؟

- أيضا درستها.. لدينا كلية للغات..

- هر شفارتس رجل غير رديء.. فقد يؤمن بما يمتلك..

- يخشى الفقد..!

- وأنت إسلام.. ألا تتوقع أن تفقد ابنتي..

- الامتلاك والفقد للأشياء..

- ماذا تريد أن..

قاطعته إذ شعرت أنني فعلا أخرج من الحلبة..

- يمكنك أن تفسد العلاقة. هذا يتوقف على قوتها وإصرارك.

تنفست كريستينا كأنما تخرج من رئتيها دخانا لزجا مثقلا بالسناج؛ ثم نظرت إلى الجموع وصرخت..

- إسلام هذا جاء ولم يتوقع أن يقابل أصناما..

ثم نظرت إلى بصوت مسموع وواضح - وكانت قد شحذت لسانها حسب تصوري - صرخت مرة ثانية في

وجهي..

- صدق أننا نتنفس بعيدا عن آبائنا لنعيش..

قال أبوها..

- المال سيد العالم. هو يعرف هذا.

- أنت لم تسألني عن أسرتي.. عن بيتي.. عن طموحاتنا.

- هذه أشياء تشبه الفتات السابح حول الأسماك الكثيرة. تضفي على القاع منظرا يشبه الحياة الطبيعية.

- ماذا تريد؟

سألت وفي ظني أن هذا سيكون القول الفصل، لكنه حملق في صحبته ثم تجرع كأسا وقال:

- إنني هنا أتنازل عن حلمي، خبرتي، مالي، عن هبة القوة أن أزجك بعيدا عن ابنتي.. كل هذا أتركه لسبب لا أعرفه. قوة تمنعني؛ ربما تعرف أنت لكنني مع كل هذا أترك لها الأمر دون تدخل، ولا أبغي رؤيتك معها..

- كفى فاتي..

كانت جملتها تطن في أذني وقد أخذت طريقي إلى الباب.

ذهبت وقالت إنها عائدة بعد ساعة.

هل العالم يغرقني بغرابته، يخرج عن إطاره ليشوه كل رؤياي. هذه الأحلام عبث ولها قوة التدمير، مع ذلك داخلها

بذور البعث، إنها دورة ملعونة تتشبث بلحظات وهن، لحظات اختفت ولمعت في أفق النسيان.

الواحدة بعد منتصف ليل الثاني عشر من مايو

اعترفت أمام ليزا؛ نعم كريستينا لا تتركني للتقلبات الجوية، اليوم هنا غير اليوم في مصر. في يوم أعيش الشتاء والصيف والربيع، ولا ترى الشمس في الأفق إلا ويهجم خريف حقيقي. تمطر صباحا.ظهرا.. دقائق.. ساعات، ثم تظهر شمس للإضاءة وليس للدفء، والغريب أن البشر هنا مثل هذه الطبيعية. بت أقارن كل شيء ببلدي، قلت لليزا. البشر هنا لا ينظرون إلا إلى الأمام. نادرا ما تحين التفاتة يمينا ويسارا. حتى صوت السماء لا يخرجهم من الانكفاء على ذواتهم. قالت ليزا: هذا لا علاقة له بأي انكفاء ذاتي؛ إنما الأشياء التي تتحدث عنها غير موجودة.. ماذا عن اليمين أو اليسار؟ لاشيء. أشياء معروفة مسبقا، ولا يفعل هذا سوى المشتغلين بتأمل الحياة.. وتكون مهنتهم التأمل.. لأن العامل أو الموظف أو أي كائن يمشي منشغلا بما في رأسه. هذا عالمه. بعد العمل يخرج قليلا إلى الأخر.. إنه لا يطيق أي مزاحمة من شيء أو كائن. ربما يفعل هذا العجائز. في الحديقة العامة قلت: لا.. ليزا أنا راقبت هؤلاء الكهول. نساء أو رجالا، لا يلتفتون للورود والزهور،

إنهم شاخصون إلى منظـر بعينـه، كأنما يمتصـون المتبقـي مـن العالم، يدخلونه ذواتهم من ثم هـم منشغلون بهضمه. كـل شـيء جميل، لامع، نظيـف، كـل الأشياء رائعـة، لكن لمـن؟! للحيـاة. للأشـياء، وحيث هـم تحولـوا أشـياء؛ بـدأوا ينفـرون مـن التمتـع بأنفسهم المتشيئة. عندك حق إسلام..! قلـت لليزا محدثـا نفسـي: الآن أفـهم لمـاذا يشـعرون بالحيـاة عندنـا. لا يكـف السـائح عـن اتهامنا؛ إذ يلحظ القذارة، يلحظ الشـوارع التـي يشـبهها ببقايـا أو أطلال مدن بعد الحرب. عندنـا تعـود لـه إنسـانيته، يخـرج مـن مربع الأشياء السميك، يرى الإنسان..! سألتني ليزا..

- ماذا ستفعل..؟

- جئت لتقولي لي..

طلبت أن أتعشى معها. وافقـت.كـانت مفرطـة للنعومـة؛ كـانت تحدثنـي بصـوت المـلاك الـذي خـرج مـن بسـتان الـثرى هاربا. صوتها مغلف بحزن وتعاطف. شربت كأسا وتركـت لـي قدح القهوة.. قالت..

- لدي مصري.. زوج صديقة ألمانية..!

- مصري..؟

- مصري يدرس..

وأشارت إلى ذقنها الدقيق المسحوب..

- بلحية..

- لا.. إلا هؤلاء..!

قـالت لـيزا والدهشـة تطفـو مـن فـوق الشـاطئين السوداوين..

- قابله. له قصة جديرة بالسماع. خاصة لك..!

ذهبت بي إلى كشك صغير للزهور. داخله شـاب بلحيـة سـوداء. لأول رؤيتـه فقدت تحمسـي لكـلام ليزا، لكنـها حدثتـه بالألمانية، سألت عـن زوجتـه؛ ممـا جعلنـي أنصـت لكـل كلمـة. وجلس. سألني.. (خمري البشرة، طويل العود، جفونـه سـوداء خفيفة، جدية تغشي وجهه).

- تركي؟

- مصري مثلك..

أول سؤال كان نفس سؤال هر شفارتس.. أجبت..

- سؤلت اليوم هذا السؤال أكثر من مرة..؟

قال المصري..

- وهل عرفت فعلا لماذا جئت؟!

أمام صمتي أكمل..

تعيد قصتي: أنا جئت وراء ألمانية. مؤكد تحدثك نفسـه: لماذا أطلق لحيتي؟ أنا بدأت بالغردقة، اشتغلت في فنادق، هناك لا يعرف كثير من المصريين أن أوروبا جاءت إلينا الجزء المعبأ بالسم من جسد الثعبان عندنا. يزحف في نعومة. تأملت

هذا الأمر لأنني امتلكت الوقت. عملت وفقدت العمل، تزدهر السياحة أثب إلى أحد الفنادق، أكسب في شهر ما أفقده في شهرين. وفي أيام أنفق كأنني أخلع ملابسي، نمت في الشوارع، في خيام السياح في الصحراء. اشتغلت أيضا في المقاهي.. ترى ماذا درست..؟ لا تخمن.. لن تصل إلى شيء.يمكنك تخمين عملي في قريتي، أنا قادم يا أخ إسلام من نجع لا يزيد عن قطرة حبر جفت فوق ورقة قذرة. تعرف أبو طشت؟. جئت من هناك. عملت مدرسا للرياضة في مدرسة الصنايع.. ثلاث سنوات، أولاد الحلال دلوني علي طريق يعوض دراستي السابقة. تعلمت اللغة؛ لغة الفنادق والنساء والمقاهي. أجدت الألمانية مع الإنجليزية، وهنا بدأت الطريق الآخر. ترى ماذا بعد الفشل؟ فشل رائع يحملك إلى صهوة جواد جامح. تعارك هناك كل شيء وتحولت إلى إنسان راصد لكل شيء؛ عدا النجاح.يتخلص الإنسان من النجاح، من الأهل، من حب المال، من حب الحياة، من كل شيء ليمسك بشيء وحيد وهو أنه لا يوجد شيء حقيقي يتم. لا شيء.. وهنا حدث التحول الرهيب.

قاطعته..

- سامحني.. ماذا درست أصلا؟
- هندسة.. قسم ذرة..!

لكنه واصل..

- وجدت ذاتي في "اللا شيء.. اللا حقيقة".. طالما أنني بدأت بالقمة، فهذا بتحريض من الكون، من الحياة، وأنني أيضا فوق القمة، بداية من التدريس، انتهاء بالغردقة ولا يهم ماذا بعد ذلك. نساء.. خمر.. كل هذا تسلسل غير مرهق، وغير مميت لترى الأرض والسماء، لتراقب اتفاق كل شيء بشأنك، تآمر الزمن ليحيلك إلى ما تريد..؟ وجاءت سائحة ألمانية. امرأة متزوجة، بيضاء في كل شيء من الأظافر إلى الشعر. هل للشيء لون..؟ مؤكد كان هذا لونها، وهنا وجدت العناد. شهور وزهدت في الإنسان داخلي. كيف جاء معي؟ كان هناك محنطا ملفوفا في الكتان الفرعوني - حسب طريقة الفراعين - لفظتني.. خرجت ليلا من بيتها، ملفوظا مثلما لفظ الحوت سيدنا يونس. سيطر على هذا التصور. ليالي أياما؛ حتى بعد أن أحضروني إلى السجن. اقصد الحبس. لم تفارقني تلك الأمواج التي حملتني خارج جزيرة الحوت. بعد أيام قالوا إنهم يخرجونني، معي أخ من المركز الإسلامي.. أجبرني أن أتزوج كي أجد شيئا آكله. أطلقت لحيتي هذه في السجن. أتعرف من تزوجت..

- من..؟

- ألمانية غنية. أصرت أن أحكي لها كل يوم عن النبي..!

- رسولنا.. صلى الله عليه وسلم..

- نعم.
- سلختني.. جعلتني أؤجل التخلص من لحيتي، وأجبرتني أن أواصل دراستي، وابتاعت لي هذا الكشك.
- ثم.. أعلنت إسلامها؟!
- وهذا الجزء هو ما يهمك ويهمني. ما بعد ذلك تعرفه..

- ٦ -

الخامس من يونية ١٩٧٧..

وافق هذا انتكاستي.. مرت ثلاثة أسابيع على عودتي من ألمانيا.. أسبوعان أمضيتهما في فندق "نوبلز" بمدينة الأقصر. غير مراقبة بائع الطماطم لم أفعل، رجل بارع في تطفيف الميزان. السماء ترسل فوق رأسه تماما شواظا من نار، لا يأبه.يدخل كل يوم في كيس من لحم،يأتي به. توقفت عند "الصفر" أحدق فيه ولا أراه. الغرفة ترتج فوق مرجل الصيف الكئيب..! لم أصدق أن الألمان سيعاودون المجيء؛ مع ذلك حظيت بأسبوع، انتقلت إلى باخرتي المكيفة. في هذا الأسبوع استعدت الليالي والأيام ووجه كريستينا، أيضا ترافقني ليزا؛ إذا كيف الهروب من "هر شفارتس..؟!

يقولون إن الموسم القادم سيماثل موسم١٩٩٢ الفريـد..!
مـن كـابينتي خرجــت، ثـم عـدت إذ اكتشـفت أننــي بمفـردي ومجموعتي. عشرون فردا. تضرب المركب بطن النيل. يصبر وينتظر مثلي.. عدت لأكتب، شجن فـي ثقل إيمـان المتصـوف، لماذا لا أندفع حيث تقودني الرؤيـا والصـور..؟! أي صـور وأي رؤى أيها المرشد.. أيها الهارب من أهلـه..؟ ممن تـهرب؟ درت في الكابينة مثل الفراشة لها هاجس وحيد.. الاحتراق، في الليلـة الأخيرة سـردت أمـام كريسـتينا كلمـا سـمعت مــن المصــري.. سألتني:

- أنت معجب بـه..؟
- رغم كل شيء انتهى إلى الصحيح..
- ماذا بالضبط؟
- حين يتزوج المصري، تكون المرأة من تكون. المهم تـزوج مسلمة..

نظرت إلي دون تشكك.. غبار اللقاء مع أبيها كان كثيفـا في الحجرة..

- أعدك أن أقرأ عن الإسلام، لو اقتنعت سأعتنقه.

مـع ذلك فشلت، هـكذا أسمى دخولي معبدها الدافيء،

رغم أنها لم تكن المرة الأولى، تسللت إلى وأنا انتظرتـها. أردت أن أبصق على الخيـالات الزاحفـة صـوب البوابـة الإلكترونيـة، وأفعل لتفكك تماسكي غـير المجـدي بيدهـا. وقفت - أذكـر هـذا جيدا - أمام نفسها، جسدها انتشـر فـي مربعـات الفـراغ، تـرى أكنت أرفـض، أسـاوم، أدب فـي الليـل بخطـى المـهزوم، وأمـام جسد ألماني في غلالـة صفـراء، صـدر يـهبط مـن الأفـق يحيـل الألغاز إلى عبث والوهم إلى مشاهدة، صدر فوقـه رأس صـرت أراه - ربما كنت مغيبا - أسطورتي. الشـعر القصـير والعينـان الخضـروان والعطـر الكاسـح. أيقبـل إنسـان أن يظـل ركامـا، أم ينتحب متماسكا..؟!

إنه الكون إذ يتآمر عليك مثلما قال الأخ دارس الذرة؛ إذ يأتيك ليقاسمك النشوة، إذ يبتهل أن كن لي أكن لك أن أدخل فـي أترعك باللهيب. أمام الثورة العارمة الهادرة فـي دمـي.. تخليت عن "الواقي الذكري".. معها دون غطاء أو ضباب فكري، دون انفصال لحظة الانصهار. لمحت قطتي تبتلع "الوسائل". قالت :

- تعال نركل الغلطة معا. أنا لست فقيرة..
- ماذا تقصدين؟
- لدي المال.. أنسيت أنني "مهندسة برمجة".
- المال.. المال..

أوقفتني لندخل عشا لا يطوله مال.. لذا رضيت..

ظللنا نهتز فوق ظـهر الليل، حيث خب وصـهل ودار هابطا صاعدا. في الصباح أقلتني إلى المطار.

الثامن من يوليـو ١٩٩٧

أجلت كريستينا حضورها إلى نوفمبر. إما أعود إلى قريتي أو أواصل هذا التحمل لصيف كئيب.

التاسع عشر من نـوفمبـر ١٩٩٧

انغمست فـي الشـغل وأهملـت تدويـن يوميـاتي. جـاءت الأفواج في شكل متلاحق، لم ترحمني كريستي مـن اتصالاتـها، وأخيرا وصلت الغردقة. أنا معها في قرية تنام - مثلي ومثلها - على صدر البحر. قلت للمكتب إنني عائد إلـى أبـي وأمـي. مـر يومان منذ أن جاءت وجئت لأتفتت..!

ليلة العشرين من نـوفمبـر ١٩٩٧

إنـها تسلية! كأنمـا أمضيت عامـا فـي الفنـدق، تـتركني كريستي وتجلس في البار، بعـد ذلـك الحق بـها. تلاحقنـي أيـام العمل ويلاحقني وجه النوبي العجوز.

كنت أتردد على النوبـي كلمـا وصلنـا أسـوان. منـذ أسبوعين وجدتـه يضـاجع شـمس الظـهيرة بـترك جسده البديـن

يطفو فوق سطح النهر. بدا فرسا حزينا يلهث في الماء. أرشدني إلى مكانه صديقي الجرسون.. قال لرؤيتي..

- في الشتاء تعمل تروسي..

- وأنا أعاني الموت..

- مثله.. نال ضربة وفلت منها..

- والعجوز..؟

- سأل عنك. قال إنك أقوى مني..

سألته وكنا خرجنا إلى شجرة بجانب صخرة بالقرب من خزان أسوان..

- أتعرف الكا..؟

- مؤكد يعرفها العجوز.

- لا أظن؛ لأنها كلمة فرعونية تعني القرين.. !

- لا تخدع نفسك وتبحث عن وهم..

- وهم؟

- أنت تأثرت بما ألاحقه في خيالي.. أو ربما يلاحقني.. !.

- تفهم جيدا ماذا فعلت بي!.

- صاحبي لم يستسلم، بل يفكر في الابتعاد عن السياحة. إنني دخلت غابة. يصيبني الدوار كلما فتحت عيني، أظن أن كوني نوبيا غير مؤهل لكل هذا القبح..

- لكنكم منغمسون فيه حتى شعر الرأس..

- سأجعله يتوب، يفعل العكس..
- وما هو العكس..؟
- ألا يكون خلاقا..
- لا أفهم..
- إننا كنوبيين سريعوا العودة إلى الصواب، نستجيب للرادع الأخلاقي أو الديني بسرعة خوفا من الاستمرار، خوفا من الوقوف على الذروة، ورؤية كل شيء، ثم أخذ القرار. لذلك أشعر بالانهيار، وبطل روايتي ينهار داخلي، لكن العجوز يقول غير ذلك.
- العجوز دوما يلاحقك..
- يتصور أن انهياري سيكون بسبب ضرباته داخلي.. أنني القشرة التي ستتكسر ليخرج الفرخ..

لم أعد أطيق هذا التضعضع وشعرت أن الرمال تثب لتملأ عيني.. عدت إلى المركب زرته في اليوم التالي. قال إنه في انتظاري. أمام العجوز تنازل عن لذة الاستماع ورضخ لصمت الرجل.. قال:

- لدي أو لدي سيدي عدة أسئلة..
- اسأل..
- ما أهم حدث في حياتك..؟

وجدتني أجيب على كل كلمة؛ بل مستجيبا كأنما هربت

سنينا باحثا عن إنسان يسألني، واعترف أن داخلي ليس ملكي ولا يستقيم أمامي إلا حين يخلخل نفسي شخص آخر..

- الحديث المهم فيما أظن هو مقابلة..

وانتظرت ظانا أن صوتا معارضا سيخرج. لم يأت أي صوت. واصلت..

- مقابلة "سيد البطل". شخص في قريتي، شارك في حرب ٧٣. كتبت عنه الصحف، مهندسا عبقريا كان، وقائد كتيبة. صمد أسابيع في فترة ما قبل فض الاشتباك..

- وما الغريب في هذا؟..

- هو الذي أراني العالم قبل معرفته، الجبال، السهول الخضراء، القصور، الحدائق، الأسوار الأبراج. طفت معه العالم.

قال العجوز في اهتمام غريب..

- لن تستريح أبدا يا ولدي.. أنت مسكين..

- اسأله كيف؟

طلب أن أحكي. لم أجد جديدا لقوله. عاد العجوز ليهمس..

- جئتنا بالحيرة.. بالتعب.. شباب مسكين..

دخل كوخه. ومضيت مع البدين إلى القارب..

* * * *

لملم الأستاذ هارون الأوراق المفرودة أمامه. رتبها مثلما وجدها. كان قد اصطنع علامات للصفحات. عن طريق الموضوع وما يتناوله. ساعد هذا أن يضع كل ورقة مكانها. أغلق الدوسيه ووقف أمام حجرة ابنه. الظلام في البعيد فوق الحقول مصحوبا بصوت حشرات الليل، التداخل والتفاعل سمة الحياة،الليل والنهار،الظلمة والنور، الظمأ والري، الجوع والشبع. هذه المتضادات تكون الحياة يا هارون. ابنك دخل كل هذا. عرفت الآن أين كان ليلة الحادث؟! لن تفعل شيئا. عد إلى مدرستك بنفس الوجه والروح، سيأتيك القرار، ثم انتبه أن كلمة "القرار" تلبثت في رأسه مثلما تتلبث قطرة ضئيلة في كوب أفرغ ماؤه. "قرار؟". تساءل: ولماذا؟ وأي قرار..؟ وبشأن من؟.. معه كل الحق، لن يرتاح ابني أبدا، عجوز نوبي حكيم..! وجد أن هدوء البيت لا يحقق هدوءه. الانفعال المتبقي، المصاحب له دفعه إلى غرفة نومه! لم ينم. لم يكف عن طرد أية فكرة تدين ابنه، أو حتى امرأته.. أيضا مقتنع أنه فعل الصواب، وأن أبوته لم تغب، تسلل خارجا من الغرفة، حمى جسده بالعباءة. لجأ إلى غرفة الضيوف. فكر في كل شيء، في المدرسة، في الفصول، في الناس، في خطبة الجمعة، في محسن الربيعي. لم يتوقف عند صورة أو فكرة. أيضا لم يكف عن الغوص كلما سنحت الفرصة. لا يرى شيئا. يعود مثل من

غاص معصوب العينين، شعر بالبرودة، شعر بالعمق. لم ير شيئا..!

إلى أن سمع آذان الفجر. نهض. توضأ وصلى. وأغمض عينيه إلى أن أيقظته أم إسلام بعد عودته من المدرسة. قال أمام امرأته وابنته..

- سأسوي معاشي..!

قال هذا بشكل يوحي أن هذا قرار لا رجعة فيه. فقط تساءلت أم إسلام عن السبب فقال:

- أتفرغ لحفيدي.. ولن يمس معاشي..!

لم تجد حنان ما يقلق.. لقد نسيت تماما موضوع "اليوميات". جاء صوت الأم راضيا.

- وأمامك زواج إسلام..

- ٧ -

ما إن رأت حنان أخاها واقفا خلف البوابة وأحست أنها تضم رائحة أيام ليست التي تعيشها، إنها أيام تركض فيها منطلقة من الصالة إلى الحديقة- حسبما ظنت - يركض أخوها خلفها؛ إلى أن يلحقها ويقف محملقا. كانت تحس أن الطاقة المفترض خروجها ساعة التألق يهدرها بوقوفه محملقا فيها؛ من ثم يشرع في ملاحقة ما لا تراه، ينظر إلى السحب في السماء،

إلى الأرض المزروعة البعيدة، تضربه في صدره إلى أن يفيق.. ثم يواصل الجري. شعرت أنها ممتلئة بنفس الاحتياج. وما أن دخل إلى البيت ارتمت بين ذراعيه: هو نظر إليها غير مصدق. بعد ذلك حكت في جمل قصيرة ما آل إليه أمرها.. وأحضرت حازم ليقبل خاله..

مرت ثلاثة أيام على وصوله.عادت الحلقة السحرية لتنغلق على الأسرة. من داخلها تابع أحوال أسرته، تتخلق تماما لآمال مضت عليها سنون..

انفض اليوم الأول بتساؤلات أمه.. ألهبت فؤاده بنظرات مفعمة بالبهجة الموجودة، وأكثر منها المرتقبة، وهو الشخص الكفيل بوضع هذه الأسرة الصغيرة داخل بستان يضج بعطر الأيام الرائعة، الذي يحقق للأسرة تعويضا عن صمت الماضي وبرودته.. نظرات تميت داخله البذور التي أتى بها من
وبرودته.. نظرات تميت داخله البذور التي أتى بها من
القاهرة..

عادت كريستينا إلى بلدها. عادت يا ابن هارون حاملة نطفتك. وحين ينفرد بنفسه يواصل. لم تصدق. كانت صادقة. وجهها قال الحقيقة بصوت بعيد عن الغواية. نطقت في الفندق، في الغرفة التي تصالحا من داخلها. سألته..

- أتحبني إسلام؟

- أحببتك فعلا شاتس..
- والآن..؟
- لم ينقص الحب؛ غير أن الوقت تبـدل. أبـوك رأى بعقلـه مـا أخطأناه بقلبينا..
- أبي.. أبي.. يكفينا أمي.. هي موافقة..
- مرغمة. أو هادنت بعد أن رأت الحقيقة..
- فعـلا شـاتس. أمكنـك فـهم الاثنيـن. مـالت إليـك لأنـه أراد تحطيمك بنفس الأسلوب. منـع عنـها كـل شـيء. هجـم علـى حياتها كعدو..
- ستكون علاقة واهية..
- أنت لا تتمسك بي. يجب أن تحارب كبطل. أدخل ميدانه..
- شاتس هذه حياة لا حرب..
- أعلن عليك الحرب، وأنا أعرف أن المصري عنيد لو وجد الدافع..

كان ميعاد عودتها في الغد. اتفقا أن لا يذهب معـها إلـى المطار. وأحس إسلام أن الأمر لن يزيد عن ثرثرة قبـل ذهابـها. لن يبخل عليها بمواصلة حديث لا طائل وراءه. فقال دون انتبـاه للدعابة:

- وأنا افتقد الدافع لمنازلته..

انتصبت واقفـة. كانا فـي شرفـة الفنـدق، الثالثـة ظهرا.

سحبته إلى داخل الحجرة.. مستسلما طوقها من الخلف، سحبت كتابا من حقيبة صغيرة لم يره من قبل..

- انظر..

قرأ العنوان .. (Der Islam) الإسلام.. لحميد والله.. أوضحت.

- قرأت غيره.. نحن فعلا في معركة..

ضحك بصوت مرتفع. طفح الغيظ على صفحة وجهها وارتعش شعر رأسها..

- اسمع شاتس. هناك أمران يجب أن تعرفهما. بعد ذلك قرر ماذا تفعل. فكر في هدوء.

- أولهما..

تركها واتجه إلى دولاب الملابس، شرع يلتقط قمصانه وبناطيله، يطوي قطعة وراء قطعة ويغيبها في حقيبته. شعر أنها تريد التراجع، تهدج صوتها كلما تكلمت، دخلت في مقدمات. مثل أنها لا ذنب لها، وتقول هذا لأنها فعلا تحبه ومتعلقة به وعلى استعداد لترك ألمانيا.. الحياة نفسها من أجله. في الحقيقة لم يفهم كثيرا. كان حانقا..

- لأول مرة أسمعك تتخبطين. أنت ألمانية، تعرفين ما تقولين..

- لم أعد ألمانية إسلام..

- قولي مرة واحدة..
- أبي يهودي!!

شعر أن عرقا بجانب عينيه ضربة على شكل صعقة كهربائية لم تستغرق أكثر من ثانية.. واصل تجميع ملابسه..

- والأمر الثاني..؟
- أنا لم أخدعك إسلام؛ لأن هذا لا يعنيني. أنا نفسي أعاني هذا الأمر. تعرف أن أمي كاثولوكية..
- الأمر الثاني كريستي..؟
- أنا حامل..!
- فاس..؟*
- منذ شهرين..
- هذا هو الخداع. حامل.. كيف..؟
- اتفقنا على الزواج. وتزوجتك. زوجة المصري بائع الزهور ألمانية مسلمة.. قالت إن الاختيار لحبك هو "ولد من المصري"..
- لكننا اتفقنا. ماذا أقول لأبي.. لأمي..؟
- الحقيقية..!

* ماذا..

- عندنـا إن فعلـت الزوجـة دون رغبـة الـزوج يأمرهـا أن تتخلص منه..!

هيـاج، صـراغ، ولـم يعـد يفـهم كثـيرا ممـا تقـول. كـان مستحيلا أن تسعفه اللغة الألمانية. شعر أن اللغة هي العائق. لم يعد يملك أية رغبة أن يحافظ على اللغة المشتركة..

- لن أفعل.. ولا أريد منك شيئا..!

بعد دقائق من البكاء قالت:

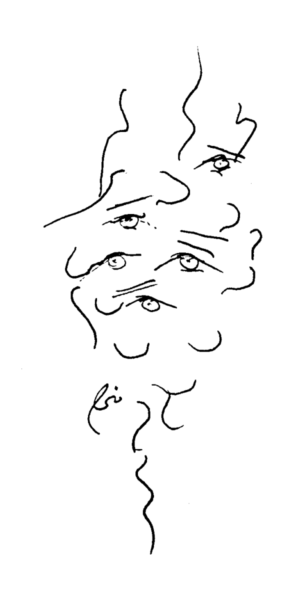
- ولا أريدك. لكنه ابني. أخرج..!

لم يجد كلمة واحـدة يمكـن أن تحمـل مـا يعتمـل داخلـه، أحس أن الأرض والسماء يدخلان في عتمة سميكة، أن الفنـدق ينهار، الفضاء يطن بطيور جارحة. حمـل حقيبتـه وخـرج.. فـي الطريق سأل نفسه: ماذا فعلت؟ انهارت السـياحة. مـن فعـل هـذا بي..؟ من يتآمر عليّ..؟ إنني ضحية لأبالسة، لا يمكـن أن تفعـل كريستينا هذا من نفسها.هل إلى هذا الحد يكرهني هر شفارتس*.

* * * *

* هر. سيد.. وشفارتس معناها. أسود. وهنا تستخدم الصفة كاسم.


أيام العائلة



أيام العائلة

- ١ -

دقائق مرت وهي واقفة بجوار السور، الفروع مغروسة على مسافات متباعدة، ثمة أوراق خضراء قليلة بزغت في جذوع فرع العنبر وداست القدمان فوق التراب المتصلب. ابتسمت وحين وجدت حازم يثب أمام جده لم تنهره، مستسلمة لإشارة أبيها صمتت وغابت داخل المطبخ.!

فكت المنديل وفردت شعرها فوق كتفيها، سحبت خصلات سوداء إلى الأمام، لحظات وهي تنصت إلى صياح حازم، يصلها من أول الصالة. نظرت في المرآة، فاصطدمت بعينين واسعتين، تحدقان في حرص، أبعدت المرآة فظهر - دون إرادتها - جسدها من أسفل الصدر، ظلال الجلباب المنزلي الخفيف، الظلال الخضراء الخفيفة تملأ سطح المرآة، لمت بأطراف أصابعها الثوب. بدا خصرها ناحلا، ملفوفا من عند الردفين مرتفعا عند الحافة المرتفعة للمرآة. جلست، شعرت

أنها ليست بمفردها، وقفت ومالت برأسها. كانت الصالة صامتة والغرف مفتوحة، لكن الطرقة خالية، مشت وهي توسع من خطواتها وتباعد بين الساقين، ثم تنفست في قوة وتسارعت أنفاسها. عادت تنظر إلى الأطباق البيضاء، النائمة على حوافها، وتداخلت الأشياء ما بين الأواني والملاعق، وبحثت عن سبب واحد يجعل المطبخ عابقا بأنفاسها وحدها، برائحتها.. رائحة عطر الياسمين.!

سمعت رنة الجرس، قفزت، بعد أن وقفت أمام المطبخ، يفصلها خطوتان عن الباب، ثبتت مكانها، ثم في ثبات وبطء عادت. لم تتأكد إن كان الجرس رن أم لم تعد تحدد، لم تعد متأكدة، أم هناك عبث، تكوينات أوكائنات، تقسم بروح العبث، وتعيش وتعشش، وارتاحت أن هذا ليس بالمرة الأولي..

ليست حزينة في سهومها، إنما هدوء وسكينة، والعينان مفتوحتان، ثابتتان، حين رن الجرس، كان حازم قد غفا بجانب سته. حملته وخرجت منتظرة إلى أن يصحو، أبوها عند المتر، وأخوها في القاهرة، جلست في الجنينة، لم تكن الشمس تملأ كل المساحة المربعة، تتابع الضوء الغارب فوق جدار الجيران. رن الجرس..؟! لم تتحمس، أولاد الجيران، أولئك الجدد الذين جاءوا وابتاعوا بيت الفلاح الغريب.. أولاد عفاريت، تخرج وتراهم في نهاية الشارع يركضون. رنين متقطع - عكس ما

يفعل الصغار - ومتواصل. أمام البوابة رأس أشقر، لمحت الشعر الناعم يلتمع، كان الغروب، ويكون الشارع وسط الشمس الوردية، بسرعة عادت وفوق رأسها الخمار (حاضر).. النظرة الأولى رأت عينيه الخضراوين وابتسامته. كانت تسبق كلماته القليلة، يحاول أن ينظر فوق سور الجنينة، لم يقل لماذا جاء وظلت تنتظر.. في النهاية سأل كارم عن إسلام. قالت إنه في القاهرة.."فعلا.." رد لكنه نقل إليها شيئا، وحين عات إلى الجنينة جلست، لم تقدر أنها ستقوم، وتنظر إلى الغروب، بل حاولت أن ترى الشمس من وراء السور، لأنها تعرف أن قرص الشمس يهبط عند حقول الغلة والبرسيم. حملت الكرسي، وقفت تشاهد قرص الشمس، ونسيت أنها كانت خلعت الحجاب؛ غير أن اندماجها في ساعة الغروب بدفئها، وديمومتها وشقاوتها.. جعلها تظل دقائقا، تراقب البهائم وهي عائدة، أمامها أولاد فلاحين..!

دخلت إلى المطبخ.. في هذا المساء مرات كانت تبحث عن شيء وتقول لأمها ..

- وضعته في مكان ما.

وردت الأم..

- ستجدينه.. لا شيء يضيع عندنا..!

ليست حزينة في سهومها، إنما هدوء وسكينة، والعينان مفتوحتان، ثابتتان، حين رن الجرس، كان حازم قد غفا بجانب سته. حملته وخرجت منتظرة إلى أن يصحو، أبوها عند المتر، وأخوها في القاهرة، جلست في الجنينة، لم تكن الشمس تملأ كل المساحة المربعة، تتابع الضوء الغارب فوق جدار الجيران. رن الجرس..؟! لم تتحمس، أولاد الجيران، أولئك الجدد الذين جاءوا وابتاعوا بيت الفلاح الغريب.. أولاد عفاريت، تخرج وتراهم في نهاية الشارع يركضون. رنين متقطع - عكس ما يفعل الصغار - ومتواصل. أمام البوابة رأس أشقر، لمحت الشعر الناعم يلتمع، كان الغروب، ويكون الشارع وسط الشمس الوردية، بسرعة عادت وفوق رأسها الخمار (حاضر).. النظرة الأولى رأت عينيه الخضراوين وابتسامته. كانت تسبق كلماته القليلة، يحاول أن ينظر فوق سور الجنينة، لم يقل لماذا جاء وظلت تنتظر.. في النهاية سأل كارم عن إسلام. قالت إنه في القاهرة.."فعلا.." رد لكنه نقل إليها شيئا، وحين عاد إلى الجنينة جلست، لم تقدر أنها ستقوم، وتنظر إلى الغروب، بل حاولت أن ترى الشمس من وراء السور، لأنها تعرف أن قرص الشمس يهبط عند حقول الغلة والبرسيم. حملت الكرسي، وقفت تشاهد قرص الشمس، ونسيت أنها كانت خلعت الحجاب؛ غير أن اندماجها في ساعة الغروب بدفئها، وديمومتها وشقاوتها..

جعلها تظل دقائقا، تراقب البهائم وهي عائدة، أمامها أولاد فلاحين..!

دخلت إلى المطبخ.. في هذا المساء مرات كانت تبحث عن شيء وتقول لأمها ..

- وضعته في مكان ما.

وردت الأم..

- ستجدينه.. لا شيء يضيع عندنا..!

- ٢ -

صدق هارون الأزهري كل كلمة، ووافق متذكرا أن الأولاد ينتظرون الكثير. كان الرقم يدور داخل رأسه كأنه "بريمة" تغوص في اللحم، يكرر ويهز المتر رأسه "نعم يتجاوز الرقم مائتين وخمسين ألفا"، ويدخل - بتحريض من الظلام الخفيف المنتشر هناك - الصمت لفترة. ينتظر المتر أن يسمعه الشيخ الموافقة، كانت الصلعة الخفيفة والتي تملأ مقدمة الرأس هي أول شيء قد تلاشى وظلت جدران البيوت خلف المتر مثل أشباح ساكنة هامدة، لها أصوات يتصور الشيخ أنها ستخرج.. ستنطلق من مكمن بعيد، قال:

- وصاحب الجمعية ما هي مطالبه..؟

جاء صوت المتر من المقعد المقابل لمقعد الشيخ.

- ليس صاحبها، هذه جمعيات أهلية.
- تعرف مثلي أن مدير أي مؤسسة عندنا لا يسمح بوجود خدمات حقيقية إلا في حالة واحدة، أن يتأكد أنها ملك خاص، مثل بيته أو أرضه.
- دعنا من هذا.. المهم أننا سنحصل على ترخيص باسم الجمعية.
- إنني أكره أن ..

قاطعه:

- لهذا أنا معك، أولا سيجد أولاد "فرنسا" فرصة طيبة، حقيقية وأنت تحقق حلمك..
- المشكلة تعرفها..

قاطعه :

- حاول مرة ثانية، لن تبخل أم إسلام بحديقة، حفيدها سيجد الفرصة كاملة، تصور أن هذا المكان يتحول إلى جدران، داخلها أجهزة كمبيوتر، يتحول إلى فصول، ويسمعون منك التاريخ الحقيقي، التاريخ الذي غرسته وبعدت بسببه عن مدرسة وإدارة وناظر مدرسة ومقررات، تجربة فريدة..

مارس المتر على الرجل فنون إغراء يعرف كيف تكون نتيجتها، تصور أن الحصاد بات قريبا، وأغمض عينيه،

مستغرقا في ارتشاف طعم النصر، بعيدا عن ملاحقة الرجل، وأصاخ إلى صدى واهن.

- طبعا يجب أن ننتهي من هذا الموضوع..

رد الشيخ مؤمنا..

- وبعد الزواج ننطلق..

قال المتر بعد أن وقف وتقدم في الظلام الكثيف خطوتين صوب الباب المؤدي إلى باب البيت.

- قل لإسلام إنني أظل في المكتب إلى الرابعة..

- لماذا لا تكلمه أمامي..

كانا قد وصلا إلى البوابة الحديدية، وتطلع المتر إلى وجه الشيخ المنفعل.

- المفترض أن يطلب يدها بنفسه..

- سيأتي ووقتها اسمع منه جيدا..

واختفى المتر بعيدا في الشارع المتجه إلى رأس البلد..

- ٣ -

الجدران لها ارتفاع حقيقي، يغرق المكان في شجن الزمن، للمكان صوت مضاعف مغلف بمراحل الأيام. ألوان الأبواب الباهتة، الأبواب تتلاشى عندما يحاول حصرها، تتلاشى لتتجمع وتتكتل وتتدرج في مجموعة تصيبه بالدوار،

الجدران المثقلة بنسيان متعمد من أناس لم يعرفهم ويتمنى إسلام لو يقابلهم. هل يحدثه عن سبب غير موجود، غير واقعي، دفعه أن يأتي، منذ متي وللثرثرة هذه القوة..؟!

في البنطلون المكوي، والقميص المكوي، وفي ألوان فاتحة، لها رنة البهجة وصهيل السعادة، يقف كارم، واضعاً نظارة صغيرة فوق وجهه، تتوهج العينان، ويغرق إسلام في تساؤلات. ينظر كارم، يدقق، يتحرك داخل الغرفة متباعدة الجدران، الغرفة التي تغط في ظهيرة ربيعية. خلف أو بعيدا عن جدرانها حقول خضراء، وشمس في سماء مزركشة بسحب تتمتع بإهمال أهل القرية. نصف دائرة ترتفع وتواجه البيوت الواطئة، نصف دائرة تطل بها السراي على الأسفلت، نصف دائرة تتآكل وتمعن في الحضور، حدثه عن مشروعاته، عن أحلامه، عن التغيرات التي قرر أن تكون منذ الآن.. وواصل كارم بيه قائلا: نعم، صدق أنني تغيرت. حدث إسلام عن رجال يراهم، لهم أعناق طويلة، حكى جده وهو طفل عن خيول عربية أصيلة، كان يمتلك منها العشرات، صحا يوما فوجد في الحظيرة بدلا من الخيول رجالا، موثقين في الحلقات الحديدية، لهم أعناق مثل أعناق الجمال. يأكلون في صمت، يلوكون الساعات النهارية في صمت، ليست لهم مطالب، ولما فشل جده أن يفهم لماذا جاءوا، ولما يقفون هكذا فكهم.. ورآهم محررين،

سيقانهم مبلولة، كان الصيف يضرب جدران القصر، وكان هو طفلا يلجأ إلى الظل، لا يسمحون له بالخروج لمشاهدة الرجال الذين تحولوا ولم يتركوا الحظيرة، وقال كارم في اختصار:

- وماذا كان سيحدث؟، ظل جدي يبكي على الخيول التي كانت، ولم ينس أن ثروته ضاعت، أعطوه بدلا عنها هؤلاء، ولم يصدق أبداً الشائعة لكنها كانت جديرة بالتصديق، تحتوي على منطق تلك الأيام.

كان يعي تماما قدر أعدائه، وكان قد فقد كل سلطة داخل الدولة، أقصد السلطة التي كان يظن أن أصله وتاريخ عائلته سيعملان على تثبيت دعائمها، وغير الدمار لم ير.. واستبعد أي مؤامرة، ولكن الحقيقة أنني أصدق الآن أنه خدع. سرقوا خيوله الأصيلة وتركوا قبضة من رجال ذوات أعناق طويلة لا نفع فيها..

انتهى كارم ولم يجد ما كان يشعر أنه سيكون، لم يتحرك إسلام، أخبره أن الأمر كله عرضة للتبديل، عرضة للاضمحلال ومع ذلك نحن لن ننسى، لا تتمسك بهذه الأوهام.

فجأة تذكر كارم أن إسلام لم ير القصر. لم يدخل كل الغرفات، فرصة مواتية، وهو يهرب من الشتاء، لأن الشتاء يحول الكون إلى نصف حقيقة، ويرى أن الأماكن تتعرض لاختزال، وتتسكب في نفوس المهمومين أحزان العزاء مثلما

تتسكب حبّات المطر في برك لا يتحرك سطح مائها.. قال في تساؤل ..

- كيف لم تر السراي.؟
- ها هي أمامي.
- من الداخل..

حين سار إسلام خلف كارم بدأت تتبثق في رأسه التصورات، وهي التي يتحدد كيف تنطلق، وأين كانت، وبدا له أن الصراع الذي نشب داخله، والآن بالذات، يملأ نفسه بالتقزز، إن اختصار مسافات زمنية معينة، وحتى أماكن، وولوج فراغات أو تفريغ جزئيات داخله ممتلئة وراضية ومكتفية، كلها يباغت، يحاول أن يكون قريبا من كارم، وأحس بالأفق، بالظلال الداكنة البعيدة، والسماء التي تقترب ويحس أن جلده يحتك بشيء ثلجي مدبب، كل هذا لا يزيد عن مراحل طويلة من انتزاع للروح، وتحطيم للأشياء التي عمل أن تكون متماسكة، إحساس جاء ليجده، ومع ذلك حاول أن يتابع. كان كارم يفعل فعل المرشد، الواعي، الدارس، وفوق ذلك كان يتابع إسلام بنبرة صوته، كلما تخلصت من برودة المغامرة وانصهرت في حقيقة التجربة، تأكد أن كارم ينتهز الفرصة ليتكلم عن جدوده،هل يصف هذا الكلام بالحمق، أم يترك لنفسه أن تخوض مثلما تريد، تتنقل مثل طائر يتغذى على الحرية وينادي

بضياعها، كان كارم يشير كلما دخل غرفة إلى أسماء، بعضهم معروف لأهل القرية.. وبعضهم غير معروف، كان يقول إنهم جدوده، في كل غرفة بعض مما تبقى من تلك الأيام. صور الرجال ذوات الأعناق الطويلة دوماً تمرق، وتقتحم الغرف، بجوار الحوائط تنتحب، ولمح كارم إسلام وهو يضع يده ليسد أذنه، لم يخبره عما يسمع، لكنه تململ في البداية، وكاد يكف عن الشرح. ورأى إسلام شيئا يرتسم فعرف وجهه المبرقش بالنقط الحمراء الداكنة فخشي أن تنسحب الابتسامة النبيلة وتكون النتيجة بتر الحديث وإهمال تاريخ جدوده.

هذه غرفة جدي فاضل، والتي رأيناها ممتلئة بالسيوف كانت لجدي صادق، والثالثة، ولو سرنا طوال اليوم لن نصل إلى الغرفة العظيمة، غرفة العمدة.. في الحقيقة لم يكن عمدة، هو نُصّب عمدة على رجال القصر، وحين خرجوا عن طاعته وهددوه أن يتوقفوا عن الكل مما يجود به، تركهم لحالهم وظل عمدة على النساء. عشر سنوات عمدة على نساء القصر، ويمكنني - لو تصدق - إحضار الكتاب المدون منذ عاش، فالتاريخ كله موجود، تماماً مثل هذه الغرف..

سأل إسلام..

- وطبعا ماتوا ميتات مشرفة..؟

- طبيعي.. تقصد؟

- ولكن الأسماء لم تتآكل؟
- لأننا نعيد طلاءها. وأنا وحدي مكلف بهذا العمل..!
- كم كان عددهم..؟
- لا أعرف بالضبط، لكن الجد الكبير كان عمدة على مائتين من النساء..

وبذلك فالعملية تقديرية..
- هل حقيقي ما أشيع عن جدك الكبير؟
- سمعت مثل الفلاحين، حتى لو حدث، أمن يبلغ عمره أكثر من مائة عام يتذكر الأسماء؟. كانوا يكتبون هذه الأسماء فوق الأبواب حتى يتذكرها، كان يكررها ولكنه كان يجتهد في الاحتفاظ بأسماء الحريم..
- وموته..؟
- غير مؤكد شيء، قيل إنه دخل إحدى الغرف ولم يعرف بعد ذلك أين غرفته ظل يدور ويلف من غرفة إلى أخرى، كانوا يقولون إنهم لم يخدعوه، هو الذي لم يصدق أن غرفته تلاشت من ملكه، وكل غرفة يظن أنها ملكه، أو كان يبحث عن أشياء داخلها، وتذكر كارم الأمر الذي أعده وجهزه. سحب إسلام إلى الجزء المسكون من القصر. أجل لقاء إسلام بأمه نزولاً على رغبة ابن الأزهري..

بعد أن تناولا الغداء انتقلا إلى التراس، جلسا ينصتان إلى صوت العصافير، كان إسلام يتطلع إلى الفنجان المدور الغارق في لون التركواز، وحين حمله إلى يديه أحس أن يديه تتكمش، ارتجف ولم يلحظ كارم أي شيء.بعد أن شرب الشاي رأى أصابع كارم تندس في شعره الناعم الغارق في شمس لا تزيد عن ضوء حان خال من الألوان، وتابع حديثه وتألق وجهه وأحس أن الشاب يتعرض للحظات غير مسبوقة من البهجة، لدرجة نسيان ابن الربيعي..

ثم تساءل كارم فجأة..

- ما رأيك في الحب؟

- حب؟ أي حب؟

- حب بين عصفورين، حب بين رجل وامرأة..؟

هل كان إسلام فعلا وضع كارم بعيدا عن إطار البشر، الرجال الطبيعيين، ربما ظن أن مكوث كارم داخل القصر يشبه سحبا مثقلة بالماء لكنها لن تمطر أبدا. وأحس إسلام أن الشاب فعلا مسكين، ها هو ينتظر، وينحني مبعدا ظهره عن مسند المقعد المقوس، وخلفه جدران بيته، وأمامه مساحات واسعة، تملأ عينيه بالحياة، بالزخم، ينتظر الدفء، ينتظر كلمة تجعل الحركة ممكنة، ولكن لماذا أنا؟ دقق في الكلمات التي تكونت في الرأس، أيسحبها، ثم ينطقها، وثبت كريستينا، حب..؟ أي حب؟

ووقفت أمل خلف ضباب أبيض، حب؟ هل هذا ممكن، وتتردد كلمات كانت عدما، أو حلقت وأجهضها في لحظة غضب، وقف ليتأمل الأشجار، ويحدق في تمايل الفروع.. إنها أشجار متناثرة، هناك تماسك لشكلها، لم يلمحه، تابعه كارم، ربما لصمت إسلام حاول أن يتساءل: هذا الشاب، ابن الشيخ، الواقف في أرضي، ببنطلون جينز، وقميص بياقة قصيرة وبلوفر ثقيل، وظهره إلى، هذا الشاب الطويل، المتصور أن جسده مثالي وعقله مثالي، هذا الشاب الآن، يعرف ما وراء السؤال أم مثل الآخرين، يجعل من مجرد سؤال تكئه إلي حذلقة، إلى تأمل مفتعل. استدار. تردد. فقال كارم ليشعره أنه مصر..

- نعم.. الحب؟
- كنت أظن أن الحب اختفى لظهور جيل غني أو لوجود رجال أغنياء..
- لا أفهم..
- أنت أطلقت رصاصة في هذا السكون الجميل..
- تكاد تبكي. صوتك ووجهك.. آسف..!
- أتحب؟
- إنني أرغب في الزواج. لا أريد أن أكفر بما في الطبيعة. أريد أن أقدم لروحي تعويضا مقبولا يرضيها ويجعلها تتواءم مع علاقة تكون في إطار رسمي أو شرعي..

- ولا ترغب في فعل هذا قبل أن تتأكد..
- فعلا..!

- ٤ -

قبل أن يمد يده ليرفع القفل الصغير المعلق في الجنزير الملفوف حول ضلفتي البوابة الحديدية لمح جسدين ملفوفين في ملابس فضفاضة داكنة. وبعد أن جذب الجنزير في يده ليتخلص من صلصلته المرتفعة رأى الوجوه مغطاة بالكامل. حول إسلام نظره إلى اللمبة المعلقة فوق رؤوس الواقفات. وجه أخته كان غارقا في الضوء البرتقالي، غير ساكن ويعاني تباريج انفعال لا يعرف عنه شيئا، لم يسمع ولم يفهم، لكنها كانت تتحدث إلى الثياب المعتمة، وبدت رأساهما صلبتين حادتي الحضور، انتظر بعيدا، ثم دخل بعد أن رأى المرأتين تأخذان طريقهما حيث الأسفلت.

رأى حازم بين ذراعيها، تحتضنه وتقبله من حين لآخر، كانت جالسة في غرفة الضيوف بجانب باب الشقة.الأكواب فارغة فوق المنضدة، وأمام أخته لفة، كلما بدأ حازم في النظر إليها شعرت أنه يريد فتحها؛ كانت تبعده محاولة صرفه بقُبَل متلاحقة كان إسلام منشغلا بما في داخل اللفة المربوطة بفتلة دوبارة بيضاء. ولمح فوق ورق الجرائد

المطوي صورة لرجل ذي لحية، قصير مدكوك جسده، يحدق في الفراغ. حين انصرف إلى حازم وما يثيره من ضجيج اكتشفت حنان أنه موجود ويلاحقها بنظرات متسائلة، أشعرتها أن المرأتين مازالتا معها، والحوار ما يزال دائرا، والصوتان يتبادلان الممارسة العدوانية غير المفهومة، ممارسة طويلة، أحستها كئيبة في غير أوانها. شعرت أنها تتأهب للدخول في بداية طقوس كانت نسيتها، وملأ أنفها شيء حارق يشبه بودرة من نشارة الحديد، لكنها لا تقل عن لهيب حقيقي، كانتا تتبادلان المواقع، قادرتين على سحبها من داخل المكان حيث يحويها. كلما اقترب حازم منها شعرت أن عيونهما تزجرانه، ولمحت دخانا أسود يشطر الغرفة نصفين وهي جالسة لا صوت لها ولا إرادة. ظنت أن الأيام التي مضت ملأتها قوة، وحين أحست أن الكلام يكتسب كل الرائحة الكريهة، كل الأرق القديم، أن النبرة التي تصلها لامرأتين لا تعرف عنهما غير غموض قديم، كانت تتوقع أن يوما يأتي ويستبين كل شيء.

التفتت إلى إسلام لتتخلص مما يطوق بدنها من قيود، تحسها ثقيلة تتشكل وتضغط على جسدها، قالت..

- إنهن لا يفهمن أن حازم كل حياتي.

في مساء كهذا، ربيعي يتدفق هواء مثقلا برائحة زهورالفواكه، تجلس هادئة، وجه أبيض تراجعت عظام

وجناته وسقطت في ظل الخدود، وشعر أسود حالك طويل، مستلق على ظهرها، ويدان لأم لا يتجاوز عمرها الخامسة والثلاثين، حياة ساكنة لتمتلىء حتى الحافة، لتدخل سعار اللحظة. لمح إسلام ما خلف هذه المعاناة، وكره أن تظل وحدها، تطلب العينان النظرة الفاهمة وتستقبل العطاء دون أن تتمزق من فرط الابتهال. قال:

- وماذا عنه؟

- من الكلام فهمت أنه في بلد عربي. أرسلهن ليطمئن على حازم..

رأى كيف تبرق العينان وتنهمر ظلال رموشها السوداء فوق البشرة المتحركة في أثير الضوء الساطع، وجلبابها البيتي السماوي يغطي قدميها، شعر إسلام أنها أخته الفاردة ذراعيها طلبا للخروج إلى الفضاء الأبيض الرائق، فرد روحه ثم مدها من مكانه، كان دوما يقدر أن سرا خاصا، خفيا، لا يصل إليه حتى أبوه، ولا تدري أمه عنه شيئا، هذا السر يصل أخته بفؤاده، يجعلها متملكة منطقة واسعة تشبه فضاء السماء المزركشة بنجوم فضية تهديها حيث تريد..

- إنس كل شيء. ما رأيك في كارم..؟

بنفس العفوية قالت :

- صديقك وتعرفه خيرا مني..

تعامل مع فؤادها متعلقا بهذه اللحظة من النقاء، ورأى جبالا من النفاق وعدم الفهم تتساقط بينهما..

- تعرفين أنني سأوافق، كنت لا أتوقع؛ لكنه فعل وطلب مني يدك. لديه حلول لكل أمورنا التي نطرحها على شكل تعقيدات، بداية من حازم إلى حياته، لكنه يجزم أن حياته المنتظرة هي التي ولد من أجلها..

قالت في تبصر غير مفتعل، وفي صوت هادىء منخفض، وحازم يسمع وقد بدأ يغفو بين إسلام وأمه، ممددا فوق الأريكة الخضراء ذات الوبرة المنحولة..

- أحيانا أجد أن واجبا ثقيلا يحول بيني وبين ما أريد، شيئا مثل بقايا لألم زال بعد عملية جراحية رهيبة. من حين إلى آخر يصحو الألم، فيه تذكير، ربما بالمكان، ربما يذكرني أنه كان داخلي، وليس لي سلطة حقيقية على نفسي..
- لدينا سلطة حقيقية، ولم يتبق لنا غيرها على أنفسنا!
- أحيانا أرى أنني اندفعت إلى ماء هائج.. أضع رأسي تحته، كي أنام أو فقط كي لا أرى..
- قرري..
- وماذا عن الشيخ..؟
- اليوم سيقابله كارم..
- وماذا عنك؟

- أنــا..؟!
- كفاك هروبا..
- أظن أن الزواج هو ملاذنا الوحيد..!

- ٥ -

لم تطلب من الله أكـثر مـن زواج إسـلام. جلسـت وسـط النساء غير مصدقة. في الغد تنتقل حنان إلـى سـراي الباشـوات. تبتسم للنساء وتترك صمتها ليغرقـوه بـالتصفيق والغنـاء واللغـط وتسبح مـع الـروح، تشـاكس الجسـد الـذي تعـافى وترضـى بمـا يقلن، ولو، بقايا سراي، بقايا عائلة عظيمـة، ولـو.. لكنـه رجـل، طول بعرض، وجه مثل فلقة القمـر، وتسـتعيد أول مـرة أدخلـوه عليها: ألف لا بأس عليك يا ماما..! لم تستقر فقط في أذنـها، بـل في قلبها وأحسن أنه يقولها لتقـف علـى قدميـها، لتنتبـه أن كـارم هذا كان أبوه باشا، ورغم تجرؤ الفلاحين والأطفال، بل والنساء أن يقـتربوا مـن سـور السـراي، وتعـرف أن السـور متـهالك، لا يصد أحدا، رغم هذا لا يجرؤن على نعته بغير (كارم بيـه). لمـا لثم ظهر يدها كانت تقول "العفو كارم بيـه". تذكـرت أن الشـاب اليانع الواقف أمامها في بدلة سوداء تلمـع لجدتـها سـيكون زوج ابنتها. انطلقت تدعو لـه، وكلمـة "يـا بنـي.." هـي طـوق النجـاة والطعم اللذيذ في فمها..!

ألوان الملابس حولها - رغم الألوان الفاقعة - باهتة وربما كالحة، لكنها تكتفي بما يغنين. حنان في غرفتها، ستخرج إلى السراي، وبعد أسبوع تأتي عروس إسلام. وتغلق العينين العجوزين!

حين ذهبوا بحنان، مع ظهيرة اليوم التالي، قررت أن تمكث بمفردها في البيت لكنها ظلت واقفة أمام البوابة المفتوحة، تتلهى بالأوراق التي تلمع في الشمس التي تضيء الجنينة والمدخل وتفترش مدخل البيت. أوراق متخلفة عن الأطفال، وقد حصلوا على ما يحلمون من الشيكولاته، وورق فضي هناك في الجنينة كان ساخنا بالسندوتشات التي رصت فوق منضدة صنعت من ترابيزات مصطفة جوار بعضها. قالوا لها إن كارم لا يملك شيئا، لكنها أثبتت أن ابن الباشوات يظل ابن باشوات، ولا يمكنهم فهم ما تحسبه، لأن - هكذا قالت ولم يصدقوا - النبل ميراث للعائلة مثل الأرض. السراي يمكن أن يعاد طلاؤها؛ غير أن النبل لا يختفي إلا بعد أجيال. أضاف هارون: أجيال من الصعلكة والتسول..

بعد يومين وضعت أم إسلام قدميها داخل السراي، عانقت الهانم أم كارم. ووقعت على كنز حقيقي تحدثت عنه أمام زوجها، لتشعره أن كل هذا من اكتشافها، على أن الرجل قال مصححا: لا.. ليس من اكتشافك فقط، إن وعيك بكل هذا النبل

في عائلة - ليست أكثر من فردين منسيين في قريتنا - هذا الوعي دليل على أن كل النبل داخلك.

ولم تصدق حنان حين قال كارم: حازم سيظل معي.. إنني لا أخ ولا ابن لي غيره..!

- ٦ -

حين أفاق بشكل كامل تيقن أن نقرا متقطعا حقيقيا هو ما أيقظه، انسلت من جلد الفراش ودفئه وألقى نظرة على حنان ثم تردد، غير أن النقرات كانت هذه المرة متتابعة، استشعر الحنق وإصرار الدقات، لم يفتح النافذة. لحظات وكان يستطلع الحديقة ويحمي صدره بيده من هواء الفجر البارد ويحاول إدخال محتويات الحديقة إلى وعيه، لم ير غير فروع الأشجار المستسلمة لنقرات ريح الفجر، وحين لمح البوابة القديمة نصف مفتوحة أرجع الأمر إلى الحارس الفلاح، الذي لم يعتد بعد على هذا النوع من العمل. دار مع جدار الغرفة. تناهى إلى سمعه ما يشبه الخشخشة، تبعها صوت لم يحدد أهو أنين أم شخير؛ لكنه صوت حقيقي. كومة في الظلام تشبه صخرة سوداء، بجوار الجدار واسفل النافذة،اقترب من هذا الشيء وقلبه يرتجف ولسانه ملتصق بحلقه، حاول السيطرة على قدميه، دفعهما إلى الأمام..

- أنـــا..

لم ينطق كارم ولم يبد استجابة. في هذا الوقت من الليـل رأى المكوم يستطيل وتعلو رأسـه، وبدأ يـأخذ خطـوات بطيئـة نحوه، ثم فجأة ترنح وسقط إلى الأرض، سـقط بشـكل لا إرادي. شاهده كارم وتحفزت كل حواسه للخطـوة التاليـة، ونسـى تمامـا "ما يمكن أن يكـون خطـرا" واستعاد المنظـر شـاعرا أن سـنينا مرت وتركت له الدهشـة وأترعتـه بحالـة مـن الاسـتنفار. مـالت الـرأس وانحنـى الجذع إلـى الأمـام، ثـم رأى يديـه تـدوران فـي الفراغ دورات متشنجة، وارتطم بالأرض..

- أنـا..

انحنى كارم فوق الجسد المتكوم، حـاول أن يلـم بـالقليل من معالم الوجه، الصوت يعرفه لكن.. انطلق إلى الداخـل، عـاد بكشاف صغير. سلطه على الوجه. كـانت الـرأس مزروعـة فـي حشيش الجنينة، والملابس ليست غـير الرثاثـة والقذارة، وحيـن اقترب منـه يتفحصـه هجمـت رائحـة كريهـة، ابتعد فـورا وهـو يصرخ..

- أنـت..

- أه .. أه..

غرس ساعده تحت إبطـه، رفعـه إلـى البيت، اسـتغرق الأمـر دقـائق، أجلسـه فـوق مقعـد خشـبي وجعـل ظـهره إلـى

"سبورة" بعرض الحائط. لما انتبه إلى كنه الرائحة تركه ثم عاد بدورق زجاجي وأفرغ ماءه فوقه. استعاد نصف إفاقة، ثم بدأ يحملق مثل إنسان دفنوه حيا والآن جاء غارقا في الطين والتراب وأفكار كلها عن الموت.

- أين كنت؟

لم يعر كارم الاهتمام ولم يلتفت إليه. كان مأخوذا بما يري. تمسح عيناه نصف الميتتين محتويات المكان..

- إنهم واهمون..

وانطلقت ضحكة، أحنقت كارم واكتشف أنه يقف في روب خفيف على اللحم، ومجرد أن طافت برأسه هذه الهواجس أحس برجفة، صرخ فيه كي يفيق..

- أين كنت..؟ وماذا فعلت في نفسك.؟

دون مبالاة ..

- بدأت تتهمني. أنا فعلت!.. فلماذا يفعلون؟ حولوا القصر إلى ملجأ!

- تعال..

نقله إلى غرفة تتصل بالجزء الذي يسكنه. قبل أن يحضر له شيئا يأكله كان مشغولا بحالته البدنية الزرية، يجب أن يضعه تحت الماء.. ولما كان الأمر معقدا في هذه الساعة بدأ

كـارم يـأخذ الاتجـاه المعـاكس، أحضـر خـبزا ومربـى وتركـهما أمامه.

كـان محسـن الربيعـي يـهذي، كلمـا سـأله كـارم سـؤالا انحرف مثل مسطول، يمزق خيط الحديث بضحكـة، ويصمـت، ثم يمسح عينيـه بكفـه. يـروح بعـد ذلـك يحـدق فـي النـافذة التـي فتحها. رأى القمر أمامه، حاول أن يكون بعيدا عـن النـافذة، بـدا طفلا يتأهب للانقضاض على عصفورة واقفة فوق حافة النافذة. تقهقر خطوة إلى الوراء، ثم رفع يديه وجاهد أن يكون القـرص الفضي في مدى رؤيته، ثم ركع وقبض على الفراغ. لـم ينصـت لكـارم، ولـم يلتفـت بعـد أن خـرج صـاحب الـدار وأغلـق البـاب بالمفتاح.

وجده مستلقيا على بطنه، الطعام بجانبـه، وهـو بثقلـه لا يزيد عن حجر رمي في منتصف الفراش.

ظل كارم جالسا قريبا فوق مقعـد، إلـى أن بـدأ يتحـرك. فتح عينيه. رأى كارم. قال..

- آسف.. نسيت أن أبارك الزواج..
- أتعرف كم الساعة؟
- بدأت تهتم بالوقت!؟

جز كارم على أسنانه، لم يفت محسن أن ينطـق الجملـة وحدقتاه تدوران صوب غرفة نوم كارم، ثم تدوران فـي الاتجـاه

الآخر حيث الصالة التي دخلها ساعة الفجر.. شعر كارم بالدهشة، كيف يعي الآن كل احتمالات تأتي بها الروح، وتدخل صاحبها في ضباب وعتمة وتدفعه إلى الجنون، مع ذلك يستعيد كل ما رأى وهو لم ير شيئا. وأضاف محسن لينقل كل خواطره..

- كنت لا تعبأ. أمضيت ثلاثة أرباع عمرك بين وفي الأطلال..

- اصمت..

- أنا..؟

- اصمت..

- أنا..؟!

استسلم محسن للدفء ورائحة زهر الليمون، وكان يعي تماما أن صمته سيحقق له فوزا مؤكدا. دفع كارم إليه ببعض ملابسه التي كان يستعملها قبل الزواج. وقال..

- اغتسل، وعد إلي كما كنت..!

لم يتورع محسن عن لدغه.

- تلبسني أطلالك القديمة..

ظل في الحجرة، منصتا إلى دفقات الدش، ومنتظرا لأن الحمام ملاصق للحجرة، فقد اندفع إلى حنان وعاد حاملا صينية فوقها الإفطار..

أثناء تناول ابن الربيعي الأكل أنصت كارم. ابتدأ محسن بسؤال..

- أين صديقك ونسيبك..؟
- إسلام..؟
- الهمام..
- نبرتك في الكلام لا تعجبني..

قال محسن :

- إنهم هناك هادئون، يلفهم الصمت، استضافوني ليلتين، معهم تحققت طموحاتي وقبضت على حياتي الحقيقية. هناك لا يهملك أحد وأيضا لا يتدخل في شئونك، لم أحتج أن أكتب قصيدة، من الغبي الذي يتجرأ ويكتب في حضورهم كلمة واحدة؟

نظر كارم إليه باحثا عن صديقه القديم، الوجه ضمر وبرزت العظام لتبدو خطوطا بارزة تشبه الخطوط الساكنة الراسخة على جدران المعابد، تشبع بالشفقة لدرجة تحولت إلى ابتزاز وابتذال. لم يطالبه بالتوقف..

- مساء أمس لم أصدق. كانوا قد ذهبوا وتركوني، لم يرني أحد لأنهم لم يتوقعوا أن يسمعهم إنسان أو يلتفت إلى أفعالهم.. إنهم حيوانات، بشر متآكل مثل جدران المقابر..
- أما زلت تهذي؟

ظللت راكعا غارقا في ضوءها الحاني، أنصت للغتها الدافئة، كانت تقترب من شواشي الأشجار، تنحني ليتوزع ضوئها. كان الغروب الذي ولدت فيه وجئت لأقول الكلمة الخيرة. جاء الصوت من عند الشجرة. أنت تعرفها..

- أي شجرة؟

- شجرة سيدي صالح*.

كانت تغمغم، واقتربت جاعلا في ظهري شاهد قبر جديد من الرخام، رأيتها ترفع رأسها، وانتصبت لدنة العود، سابحة في الغروب الدموي بجلباب زاه، لم أحدد لونه، ذابت الألوان وبدت الطبيعة لعيني رحيمة، تلتف حول الجسد المنتصب في عنفوانية والهارب من الأجلاف. دققت فيها، كانت ممسكة بشيء وتحاول ربطه في أحد الفروع، كانت تحدق في الأوراق، وكلما يصل إلى يديها تجذبه ليغطي رأسها، ثم باغتتني بسحب منديلها وتدفق الشعر الأسود، وتهت وسط هذه اللحظة، أعطت الشاهد صدرها، ومسحت الفضاء لتدخل في رقصة إيقاعها وعزفها سكون صافر. وجه مربع أبيض وتدلت عناقيد الظلال، بدأت طيور تحوم خلفها، وبدأت الدورة الأولى، والثانية، جمدت في مكاني، بعد الدورة الرابعة شهقت، تمددت

---

* هي شجرة من الجازورين، تقع وسط المقابر، ما تزال في قرية إسلام لليوم، تطوف حولها النساء تبركا وجلبا للخلفة!

لحظات في رأسي، ونهضت لترقص. عانقت جذع الشجرة، فردت ذراعيها حوله، تمدد جسدها في ليونة، التف حول الجذع، لم أعد أحدد أين رأسها، كانت تتأوه، وتتراخى اليدان، وتهبط مثل ورقة خضراء ظلت مشبوكة في الفراغ ونهضت ودارت، بدأت تناجي الشجرة، كلمات لم أسمع مثلها. حين تخلصت من كل الكلمات رأت أن تجلس، شرعت تتلقف هواء المساء وانسحبت الشمس بعيدا. و.. سمعت صرخة أخرجتني من تأملي الفاشل.

رأيت أذرعا كثيرة، ولمحت كعبيها الحافيين ينسحبان دون تشنجات فوق التراب. أحسست أنها فقدت الحياة، ولكنها تصرخ، انكمشت في مكاني. كانوا ثلاثة، تلبثت عيني على البدين الطويل. بدا عملاقا، لم يكن يشاركهم الضرب. التفت، رأيت لحيته السوداء الكثيفة، أحسست أنه رآني فتراجعت رعبا. كان يزجرهم ليدفعوها من المكان، سكنت تماما، أعني لم أسمع صوتها بعد ذلك. اكتشفت أنني أرتجف وما بين ساقي لزج ومبلل، تمنيت لو دخلت إلى جوف مقبرة. كانوا قد ابتعدوا وحين تأكدت أن المقابر حولي، وأنا كما تصورت، ذهبت إلى الشجرة، لم أخطأ اللفة الصغيرة. خرقة بيضاء. فككتها.. داخلها ورقة بالية مجعدة، وخط رديء يشبه كتابة طفل في الابتدائي.

"يا سيدي صالح.. إنني أحبه. كيف فعل بي هذا..؟ كيف

يرضى أن يتركني؟ كيف ترضي لي بالظلم..؟ ونصف سورة الفلق.."..

- متى حدث هذا؟
- أمس..
- كيف لم نسمع به..؟
- ولن تسمعوا..؟
- وأين كنت كل هذه المدة؟
- وأين كنتم..؟ آه أنت تحولت بقدرة الجبار. كيف لا أعرف، لكنك الآن زوج صالح، راضي عن نفسه، كيف ستعيش؟!
- عندي الآن الجمعية، ومعي اللغة..
- من غيرك..؟
- يكفيك أن أستاذك هو رئيسها، ومعنا المترء وإسلام وقريبا زوجه..
- من؟
- أمل..
- سيتزوج ابنة المتر..! إنني أشاطره الأفراح. بعدها ستكون القرية نموذجية..
- فعلا..
- أعدوا كل شيء.. وبعد أسبوع عقد القران...!
- ولم لا ..؟

- ماذا بك؟

- ماذا بي؟ يا سيدي صالح ساعدني، كيف تعلم بما أنه فيه وتتركني..؟

الذي حكاه محسن جعله يمسكه من يده ويظل سائرا معه وسط الحديقة، مستعرضا كل ما طرأ عليها، ثم أشار إلى الكلب الأسود الذي جاء به الغفير الفلاح. لم يصدق أن محسن خرج وتحرر من منظره وصوته، غير أن ما بقي كان مرعبا، لم يعرف كارم ماذا هو صانع. عاد إلى حنان مقررا الإبقاء على فمه مغلقا.

- ٧ -

لم يترك العمال ولا الصنايعية لحظة إلى أن انتهت الشقة، ورأى الغرف تتجاور فوق السطح وجلب الأثاث من دمياط في رفقة الشيخ هارون، أنهى كل هذا بعد أسابيع ورأته القرية في بدلته السوداء، يد أمل تحت إبطه وإسلام بجواره، وبعد أن اطمأن إلى كل شيء جلس في الحديقة، يتعجب لصمت الشيخ، فيما هو يناقش الأولاد في همة وحماس دون كلل، أمام إصراره وافق الشيخ أن تفتتح الجمعية بعد مرور أسبوع من اليوم.. ونال موافقة عدد لا بأس به من "أولاد فرنسا". أخرج كشفا بأسماء الأولاد الذين سيترددون على الجمعية، إما لدراسة

اللغة، أو للجلوس أمام الشيخ لفهم مبسط للتاريخ، كما وعد. لم يهتم المتر حين التحق إسلام بالمشروع ورفضت أمل؛ غير أن إسلام لم يرتح لهذا الأمر. ناقش كارم أكثر من مرة، وطالت الجلسات بعد انصراف الأولاد. لماذا لا تشارك..؟ لماذا هي صامتة دوما في البيت؟

تطرق إسلام إلى أحوالها، أو تصرفاتها غير المفهومة. بعد أن ناقشوا كل كبيرة وصغيرة تساءلوا: المتر يسيطر على كل شيء، كيف إذا لا يسيطر على ابنته..؟!

لم يستوعب كارم السؤال الاستنكاري. أعاد إسلام طرح السؤال بعد أن ظل صامتا لقدوم حنان المفاجيء، لم ينتبه إلى الحديث وأنقذه حازم، إذ وقف أمام خاله وراح يعبث في الساعة الموضوعة أمامه فوق المنضدة. أشار كارم إلى امرأته أن تخرج وتأخذ حازم..

- ماذا تعني بقولك أنه لا يسيطر عليها..؟ كيف تطلب هذا وهي الآن..

- امرأتي..؟

رأى كارم وجها مكتسيا بحزن ثقيل، ينقط في العينين شرودا ولم يكن مستعدا أن يترك صهره فريسة لألم يكاد يلتهمه، قال:

- تكلم..

- أتذكر الرسالة؟
- أي رسالة؟
- منذ شهرين جئتك بسببها، ليتني أخبرتك بكل شيء..

كانت ساعة الظهيرة، ليس فوق رأسهم غير ظل سقف التراس، والشمس بيضاء خالية من ليونة، وليس لنسائم الربيع أدني احتمال أن تعود، وكلما وقفت القرية بالبيوت والحقول والشوارع والبشر على أعتاب الصيف دخل الحنق من أبواب كثيرة وملأ كل المساحات التي يسكنها إسلام. الحديقة لا تجتذب نظراته؛ ربما لأن أشجارها ساكنة، عالق في أوراقها تراب ولون رمادي كئيب..

قال: حين فتحت الخطاب انتظرت بشرى، مشيت مع الصبر إلى منتهاه.. واحتملت الأيام دون عمل وبدأت مرحلة جديدة من التدريس على الاحتفاظ بكل شيء داخلي: أفراحي، أحزاني، حتى الأحلام أرسمها في النهار، وتضيع في الليل، تعودنا أن نبتلع كثيرا، لم نتعلم أبدا سرعة الهضم، ثم الحفاظ على معدتنا سليمة. جاءت البشرى.. قالت كريستينا إنها لم تنسني، ولن تفعل وحذرتني قائلة: يوما أصحو وأجدها أمامي.. إن حقها محفوظ كما نقول في مصر. وفي نهاية الخطاب زودتني بهذه المعلوم: "جاء المولود ذكرا، للأسف لم نحدد بعد نوع المرض.. ولد مشوها. أخبرت الأطباء أن أباه مصري..!

ضحكوا قائلين إن علاجه في بلده". تكتب الخطاب وعمره شهران. يتنفس بشكل جيد، يأخذ الثدي في نهم، غير أن جسده، أقصد شكل الجسد، غير طبيعي، وله ستة أصابع في اليد اليمني. أتعرف ماذا أسمته؟ في دهشة ودون أن يعي تماما إن كان ما سمع حقيقيا أم من قبيل الهذيان.

- ماذا أسمته؟
- مصري..!
- الآن فهمت..
- أحتاج مساعدتك..
- أنت تعرفت على امرأة ألمانية، اقتحمت الجليد الهاروني الأزهري، وثبت فوق الأسرة والبلد، وعشت، استمتعت، لم تتخلص - وقد ظننت - من كل ما أخذته عندما تركت التدريس، جميلة الحياة مع ألمانية، وهذا ما جعلك تطلب العون والمدد من المتر. لن تكون أذكي من الشيطان؛ غير أنك ضربته في مقتل، أيضا توهمت هذا، خائب، المتر لا يهمه من أمر أمل قليلا أو كثيرا. إنني أرصد تخطيطاته، إنه يرى فينا أطفالا، وبلهاء، ويرى القرية كلها نهرا من المال، لم يعنه ما يمكن أن يتورط فيه الصغار. وهو لا يدري أن للصغار قوانينهم وهم بها يتمسكون، وأحيانا تتمرد أشياء ضدنا أو تتآمر معنا..

- ماذا تقول؟ إني أكلمك عن مصيبة حقيقية. إن جاءت كريستينا ماذا أفعل مع أبي.. مع أمل..؟

- والمصري.. ابنك..!؟

- لم أصدق أنها حامل، في الفندق تشاجرنا.. وأصرت على الاحتفاظ به..

- أين كان لقاؤكما..؟

- تصور كل شيء حقير..

- أنت تحاول ابتزازي، تحاول تحميلي مسئولية وصفك بالحقارة.

الأمر الطبيعي. أنسيت حياة أهلي، أقاربي كلها في إنجلترا، منهم الدكتور والمهندس والعالم. يجب أن تتمسك بما تفعل ولا أقول تتنازل عنه، إنما تفرضه على غيرك.. أين هؤلاء الذين حلقوا بأجنحة أمامنا واخترقوا السماء. لك ابن وزوجة ألمانية وأخرى مصرية. تحمل فوق ظهرك جبال الكرة الأرضية، إنها جبال من وهم.. وتملأ رأسك بغبار الكوابيس، لو ظللت مستسلما ما تزوجت أختك، ومحسن..

وتوقف ..

- أكمل ..

- لن أفعل لأنك انغمست في ذاتك المحطمة وجئتني ببقايا إسلام..

- أفكر في الهروب..
- تطلق أمل وتذهب إلى المصري المشوه..؟!
- على الأقل اترك العلاقة طبيعية بين أبي والمتر..

كان واقفا في يده فنجان قهوة، يحتسيه ويتلذذ ويغمض عينيه حال من يغوص في تأملات لا فكاك منها. قال وهو يرنو إلى الطريق الأسفلتي:

- لم يعد شيء طبيعيا..

وحين جلس فتح يديه ومد أصابعه إلى ساقي إسلام. أطال الأخير النظرات إليه ثم حاول أن يطرح سؤالا؛ غير أن كارم قال..

- محسن عاد..
- كنت أعرف أن الشاعر سيعود.. هو الوحيد الذي فاز..
- عاد ليلة الدخلة..!
- أتظن أن ..

وتوقف. قال كارم..

- اذهب الآن أو أدخل إلى أختك، لدي مشوار مهم..

- ٨ -

بعد مرور ثلاثة أيام على زواجهما كان وجه إسلام يتغلغل داخل قلبهما مثلما يتغلغل سن السكين، يغوص في اللحم الأحمر وترى أن الأمر حقيقة، تجلس بعد أن يتناول إفطاره..

ولا يكون لديها شغل إلا طحن المتبقي من ليلة أمس وتترك للمرآة وجهها. وتتساءل: أشاحب؟ أحي؟ أراض؟ أم كل هذا موجود وغير موجود ولا معنى لشيء؟! أول صباح وجدته ملتصقا بظهرها، يطالع وجه عروس تخلصت من التاج الأبيض. الوجه الذي رآه مربعا بعينين تحددهما الخطوط السوداء وظلال البودرة وألوان خضراء باهتة؛ لكن في دفء وإثارة. العينان بدتا واسعتين لاهبتين، وحدّق في أنفها الدقيق، وحركة سريعة للرموش الطويلة، وتركته يمسك ذقنها المدببة المسحوب قليلا، برقت صورة كريستينا، فانخرط في رسم بقية الصورة التي تملأها هي بأنفاسها، طول كريستينا..ذقنها وأنوثتها ورائحتها.. رائحة النيل، وتقلب في زفيف الليلة التي تضرب بجانب ساقيها بصمتها. حين نطقت اسمه شعر أنه لم يأت القرية ولم يقابل أحدا، لم يكن هنا، أو كان في جب وينادي من في يده أن ينقذ. عانقها وقريبا من أذنها قال: أمل..! افتر ثغرها عن ابتسامة، مقدمة صغيرة يستحقها، تعويض عن الجوارح التائهة، الأعضاء المتذمرة، هناك بوابات ونوافذ وثقوب، حين خلعت ثوب الزفاف سمعت أصوات اصطكاك وصرير وأحسّت أنها تحولت إلى كتلة صماء؛ لكنها تسمع وتحس لمسات وقفزات لاهثة وعينين لشاب خرج من الحب..! همس في الصباح الأول بعد أن استحلب الابتسامة: طولك

مناسب، يقل عن طولي بسنتيمترين، عودك مثالي، لن تحرصي علي الامتلاء طبعا، أقدر وزنك بخمسة وستين كيلو، أناملك هذه لا تشبه أنامل المتر. زغدته في صدره، وضحك، وأكمل: شعرك أسود خفيف حالك طويل. شعر مصرية يشبه شعر حنان، عيناك سمراوان، أو حين يضربهما الضوء فاللون عسلي دافيء.

وانتظر أن ينجز الأمر في الليلة الثانية..

بعد الليلة الثالثة. بدأت زوايا الشقة تدخل الوجدان، كان وجودها هادئا ذا أضواء خافتة، تحول إلى صمت وعتمة وانحراف ينحدر إلى التشوه، وبعد الظهيرة يكون المكان قد خلص لها.. وانتقل إسلام إلى غرفته القديمة.

- لو فهمت أنا لقلت لك..

- ماذا يمنعك..؟

- وماذا يمنعك..؟

ويتقهقران. وضغط الإحساس، لم يعترف إسلام أنه إحساس إنما شيء يحول بينه وبينها..!

- احك..!

أومأت مستسلمة. واندست تحت البطانية ذات الوبرة الكثيفة المزركشة بألوان زاهية.. ورست فوق صدره، ترك الريح تعبث كيفما تشاء متذكرا أنه ما يزال موثوقا بالشاطيء..

- احك أي شيء..

لما بكت أمل لم تعرف السبب، هل تبكي من أجله؟ أم تبكي على الوضع؟ غير أنها تبكي دون أن تحقق ما جاءت لتفعله، احتشدت، احتشدت لكل البشر بأفكار عدوانية، تركتها متشربة بالهواجس والكوابيس، وتركت أيام الإعداد للزواج تتحول إلى مناخ جيد ومناسب وحقيقي لكل الحقد والكمد وأفرخت الأيام قبل أن تزف..

- ربما الحادثة..

- ربما المنظر..

وقال:

- إننا مطالبون بوضع تصور كامل..

- لماذا ضربوها؟ كانت..

وتوقفت..

جاراها، هو الذي أخطأ. وحكى ببراءة: تصوري القرية ثائرة. لو لم نتزوج لرأيت منظرا نادرا، لماذا أنا هنا؟ لأخبرك بكل شيء: ذهبت فتاة في السابعة عشر، تزوجت منذ ستة شهور، ذهبت إلى المقابر، لم تعرف ولم تتوقع أنهم يراقبون وأخذت معها أمنيتها، رأوها تلف حول شجرة "سيدي صالح" ويقال إنها كانت ترقص، كان الغروب، لم تخف، لم تهتم بالسكون والصمت وعالم الموت هناك. انقضوا عليها.

أخوها الملتحي وزوجها، حملوها فوق الحمار وهـي غائبـة عـن الوعي، كسروا عظامها بالعصي، وأوثقوها من أطرافـها وحين سألت أمل أجاب: ربما ذهبت لأن الحبل تأخر. لـم تتعلـم، هنـاك إشاعات كثيرة..

- مثل..
- علاقة ما.. أو حب فاشل..
- مسكينة..
- اتفق معك..

رأى أن الفرصـة حين تلـوح يكـون الإنجـاز فـي طعـم الشبق، واستعان بلذة الجنس التي تأكل فخذيـه ولا يعـرف لمـاذا يقع بصره بـدون إرادة أو تعمـد علـى أوراق الشـجرة المفلطحـة الناعمة، ويطيل النظر إلى الحديقة وإلـى الحقـول القريبـة. قـال: سأستغل ثقافتي المهنية. الجنس في مصر القديمة كان يتم ليدخل الشرعية على الطقوس، والكهنـة كـانوا أناسـا علـى علـم بـالقوة الكامنة في الغريزة، لو تصورنا المصريين - مثلما يحدث اليوم - كانوا قد تعرضوا لكبت جنسي من جراء حفنة من الجهلـة مـا أمكنهم تشييد هذه الروائع. يومـا مـا سـترين معـي المعـابد.. لـك عندي رحلة نيلية. قالت..

- أكمل ودعك من الأحلام..
- لا أعرف لماذا ينكرون اليوم هذا الاحتياج على البشر..؟

وصمت لحظة ثم قرر أن يأتي لها بكوب مثلج من الكركديه.وحين جاء قال..
إحك..

قالت:

- أحب أبي.أمي، وأخوي، أحب القرية، والناس، لي علاقات خاصة جدا مع أناس وأشجار وأحجار وفي النهاية أجد نفسي مهزومة..
- أحببت كل الموجودات إلا الموجود أمامك..!
- اعتبرني حالة تشبه "ضرب السياحة" وتتمنى أن تعود.. المرأة التي خرجت نالت العقاب، لم تسلك الطريق القويم، لكنها ستنسى ويتحول العقاب إلى جزاء وإرضاء من خلاله ستظل غارقة في الحالة التي لن تتغلب عليها. أبي ضرب حولي طوقا، ربما غير مرئي، يعرف أنني أقرأ، ويحرم القراءة، يمزق قصصي التي أقرأها ويستبيح حتى خواطري، ويتركني أفعل كل شيء. إنني أعرف كل شيء عن القرية ولا يعرف أحد منكم عني شيئا، منذ كنت طفلة في السادسة، منذ قالت أمي إن هذه القرية لا تليق بابنتها، وبشكل عملي كانت ترسلني إلى خالي في القاهرة، كل أجازة صيفية. أكان يعرف المحامي الماهر كيف تمضي ابنته الصيف في مدينة كبيرة، ومع من؟ وفي أي مكان؟

خالي كان عازفا ماهرا، كانوا ينحنون لأنامله حين تلمس أوتار العود. اصطحبني معه ليعوض اخفاقاته مع أولاده. رأيت الكازينوهات، جلست في الصالات المضيئة. كنت أحلم بقدوم الصيف، وكنت أفقد لذة الحلم كلما أكبر. ببساطة يتسع العالم في الصيف ويضيق في الشتاء. لم يعرف أحد أن أمل مسكونة بالنور والنار والنشوة والحلم، ولا حتى أبي.. كان في استطاعته إنهاء كل شيء مرة واحدة، لم يرد، لو فعل كان سيفقد الأب المثالي، كان عليه أن يرفع الصورة الكبيرة من الصالة ومن غرفتي، ويكسرها، أنت رأيتها.. يقف مشدودا، فوق كتفه الرول ويدافع عن.. عما في رأسه. علم ابنته من جيبه! قطار فوق شريط، له بداية ونهاية، لا يهم في أي عربة الحريق..! ثم تساءلت :

- أتؤمن بالقضاء والقدر..؟
- كما يرى أبي..
- لأبيك في القرية مريدون كثيرون..
- أخذ بيدهم إلى الطريق المستقيم..
- وهذا يدهشك..!

يمارس الجسدان عليهما (وقد تلاقحت الأفكار وملأت الحدقات) قهرا مفرطا في حرقته. السائل المتقاطر والمتدفق

وسط الأثير يكاد يغرق كل جسد على حده؛ غير أن البوابات مقفلة وراسخة في صمتها!

اعتادت أن تتأمل مقدم الليل حول البيت. حين أكملوا الشقة تعمد أبوها ترك مساحة خالية أمام الجدار الخلفي وقال إن ابنته تربت وهي طفلة على الوثب في الحديقة، ومن أمام السور يمكنها رؤية الحقول الممتدة السارحة تحت السماء إلى أن يوقفها الأفق الشرقي.. واندمج التأمل والضغط ليلاحق إسلام إن انسحب إلى الغرفة المحتوية على أشيائه. رأته جامدا يدخل، تسللت خلف عطرها وهبط الجسد في وعيه مثل طير يحمل رسائل الشوق من بلاد الواق واق. قال مداعبا :

- خذي سيجارة.

مدت يدها فوضع السيجارة بين شفتيها وأشعلها. كحت مرة وأثبتت لنفسها أن هذه أيام التعود والدخول في عالم الغرائب اللذيذ، لمحت انتصارا في عينين مهزومتين..

- هذا الكون الشاسع تقلص، تحول إلى نقطة صغيرة، لها مجرى؛ وسار التيار حاملا ورقة وفرعا. أتصدق..؟! كل هذا العالم والكائنات وأفكار العباقرة، وعطايا التاريخ، كل هذا من أجل أن يصطدم فرع بورقة، أين كنا ولماذا؟..

- كل هذا بسبب سيجارة..؟

- جميل أنك أشعلتها..!

- وما المانع؟
- لا أصدق أنك ابن الشيخ..!
- أنا أصدق أنك ابنة المتر..!

تركا للضمة أن تعبث قليلا، أحسا أن الأعضاء تصهل وتصطخب، مرت أيام أربعة وجدران الشقة تحتفظ برائحة الطلاء. لم تلج عالم البقع والدوائر، وللنسيج اشتياق إلى العودة حيث كان نبتة فزرعا، فحصادا، فأمنيته لم تستوف نهايتها..

فكر أن يضع نهاية..

وفكرت أن يسحب الستار، وأن تساعده..

- ٩ -

صدق إسلام كل شيء وآمن بأن في الحياة ما هو إيجابي. رآه مثل الهرم الذي زاره مئات المرات، كل مرة كان يحاول أن يكتشف بنفسه الفكرة العبقرية التي ولدت وعاشت منذ آلاف السنين بين أناس أقل تمدنا، وكانوا يروحون ويجيئون غير مبالين بما لديهم، وهو الآن ما يثير دهشته. اكتشف منظورا جديدا في هذه الحياة التي يعيشها مع أمل، إذ مر الشهر الأول وهو يشاهدها داخل بيته الخاص. كان يتصورها داخل بيت من الزجاج السميك، تصوره ذا شكل هرمي، وهي كذلك

أحست أن تبادل الارتياح والاقتناع هو الشيء الحقيقي الباقي والموجود.

قللت من جلوسها تحت، مع والدتها (أم إسلام) واقتصر على النهار وليس غير الساعات التي يمضيها في الجمعية عند كارم. دقائق قليلة تمر - بعد عودته - في ثرثرة غير ذي قيمة مع أمه، لأن أباه يكون معه طول هذه الفترة، ثم تسبقه إلى فوق، ولا يترك الشقة إلا حين يخرج إلى الجمعية في اليوم التالي.

تعلق بالتدخين بشكل ملحوظ، ولكنها لم تتمكن من الانفصال عن المكان الذي يوجد فيه، وأم إسلام هي أول من علقت - في ارتياح ورضا - على تحول ولدها إلى كائن بيتي، يتناول غداءه معها، أو مع أبيه وأمه، وبعد أسابيع من أول سيجارة معه اقتصر الأمر على الإفطار. ونجحت أمل أن يعتمد غذاء البيت على ما تطهو في شقتها وبعد العشاء - ويكون دوما فوق - يجالسها إسلام، يظلان أمام السفرة إلى أن يحتسي الشاي، ثم تنقل الجلسة الليلية إلى غرفتها (الغرفة التي سكنها قبل الزواج والتي ما تزال تحوى أشياءه) حيث يبعدان عن التليفزيون. كانت قد قلبت بما يكفي في كتبه القديمة ووصلت إلى كل شيء؛ عدا الدولاب المغلق على مذكراته. تأتي إليه في روب من الحرير في لون صدف البحر، وتجلس على أريكة قديمة جيدة التنجيد، بينهما منضدة صغيرة فوقها علبة السجائر،

يشعل لها سيجارة ثـم يشـرع فـي التدخين، ويحملق مـن حين لآخر في النافذة المفتوحة دوما.

تناولا كل شيء في القرية. كانت ليـالي صيفيـة طويلـة؛ حكت عن طفولتها، عن أبيها، عن أمـها، بالشـكل الـذي يريحـها وبالكم الذي رأته مناسبا. وجدت في إسلام مستمعا جيدا، يحلل وقتما ترغب أو يظل مطرقا بجفونه الثقيلة وابتسامة.

وحكى أشياء عن عمله وشيئا عن طفولته ودراسته فـي الأزهر. كان يعلق هو بنفسه وبـدأ يكتشـف لنفسـه دربـا خاصـا، وتناولا بعد ذلك أحـوال كـل بيـت علـى حدة، كـل أسـرة، ليـالي طويلة أمضياها على هذا المنوال.. ويعود مـن الجمعيـة بعلبتيـن أو ثلاثة مارلبورو، ومعه كل أنواع الفاكهة.

هـو يأكل فاكهة بشكل جيد، أما هي فأدمنت صنع القهوة ثم شربها، ويأتي إليها فرحا يحكي وهي تسمع، وحين يشعر أنـه تعب يتمدد فوق الأريكة، تاركا رأسه فوق فخذيها. بعد أن تعبث في شعره يغمض عينيه.. ثم يتحركان صامتين إلى غرفة النـوم. يكون قد غط في النوم حين تعـود مـن الحمـام. يلاصـق ظـهرها ظهره وتبدأ في الانتظار إلى أن تتبخر آثار القهوة التي شربتها.

وبعـد أن عـرف إسـلام مـاذا يغضبـها ومـاذا يرضيـها. ابتعد بفكره أن يكون نهبا لمراودة لا طائل من ورائها. فـي هـذه الليلة شربت أربعة فناجين من القهوة، وأتت على علبة سـجائر،

لحظ هذا غير أنه لم يرد إيذاءها بتلميحات سخيفة. ذهب إلى الفراش. لم يعرف متى نامت، غير أنه استيقظ على صراخها، قالت: إنها تريد رؤية ماء..! نظر في ساعة الحائط. كانت الرابعة صباحا. أحس بقهرها ورأى العينين السوداوين تستسلمان لحالة من النشوة.. المنظر المؤلم غير المتوقع. وقف حائرا للحظات، جرى وهو يتعثر في السجادة وبقايا النعاس إلى الحمام، ثم عاد ليجدها متقرفصة مثل تمثال الجرانيت جالس القرفصاء المنحوت من كتلة واحدة. فك أعضاءها المتصلبة، قادها إلى الطبق البلاستيك الكبير. ظل جالسا وهي تحدق في الماء أسفل لمبة ذات ضوء أحمر يثير الهيجان في النفس. مع أول ضوء خرج بها إلي "البحر" كما يسمونه. جلست أمام الماء صامتة لتكمل ست ساعات جامدة لا تأتي غير الأنفاس وإسلام صامت مترقب، بدأ الهدوء يكسو وجهها. كانت ملفوفة في بالطو ما لبثت أن أبعدته مجرد أن أشرقت الشمس. صحت كل الأشياء حولها، ملأت أنفها رائحة الندى والعشب والماء، كان يعرف وينتظر. حين تكلمت قال:

- يجب أن نتخلص من هذا الوضع..!

قالت :

- " لما وصلت إلى المكان واقتربت من الشقة علمت أنني لن أتراجع، كنت هادئة، أطرافي ساكنة، لن تصدق أنني وضعت

يدي على جبهتي، كنت أتخيل أن عرقا كثيرا سيكون العلامة والدليل على أنني طبيعية، غير متبلدة. وجدت جبهتي جافة وباردة، ووقفت أراقب يدي، أصابعي، ساقي، كل جوارحي ساكنة، تقدمت وحين وجدت المكان دخلت. ظللت جالسة في الصالة، تحدثت طويلا، تكلمت عن كل شيء، كان عقلي هو الإمبراطور، يفعل كل شيء بقناعة محارب ذي خبرة، أمضيت في الشقة ساعتين، تحدثت عن الأشياء التي ربطتني وجذبتني إلى محسن، ورغم أن المرات التي تم فيها لقاء أو مقابلة مع ابن الربيعي كانت قليلة إلا أنني وجدت فيها حياتي،الأصح أنني حاولت أن أحتفظ بحب أبي، أنت لا تعرف ماذا فعل؟"

قال إسلام وهو يتصور النهاية الطبيعية للحكاية غير المكتملة..

- أتصور كل شيء.

أكملت :

- "كنت في الثانوية العام، لا شغل لأمي غير توفير الهدوء لي، لا تنام في الليل غير ساعتين أو أكثر قليلا، في النهار تلازمني، وأبي حصان معلق في عربة تجر الأسرة (وهذا قوله وحجته دائما). كانت تقابل كل حنقه وغضبه بالصمت طالما أنني أستحوذ على اهتمامه، وتمنحه كل شيء، لمجرد

أن يحافظ على السؤال عني، تمنحه الابتسامة والاهتمام وكل ما تتصور. وفي ليلة عاد من العمل متأخرا؛ كانت تقول إنه يحاول إنهاء كل عمله في المكتب إلى أن ينتهي شهر الامتحان والمذاكرة. لكني كنت بعيدة عن نسيان أو إهمال التغيرات الطارئة على ملامحها. سمعت بأذني، ظننت الأمر شجارا عاديا.

كنت مخطئة. ظللت جامدة أمام الكتب أحدق في الأقلام وألعن كل شيء..! كانت تحدثه عن علاقة لم ينهها، وهو يصر أنه سيفعل وقتما يرغب، بدأت ألاحق أبي بغريزة الشك وجردته من ثقتي فيه، كنت أتصوره لا يستحق الطعام الذي تقدمه، ولا يستحق الابتسامة، بعد النتيجة رنا إلي، كان يفهم وأنا أفهم، لم يفعل ويطلب سببا (وكان يفعل دوما) يفسر حصولي على مجموع لا يليق بابنته التي يعرفها.

ترك منفذا واحدا لأنه لم يجد الحجر الذي يسده به..ابنة الربيعي، نصف متعلمة ولا خير منها. وحكت لي حكايات وقصص وإهانات، وأب لا يقل عنه ولا يزيد. كنا نتقابل، وأقدمت على الخطوة الأخيرة الآثمة لأكف عن كره أبي وأتوقف عن الانتقام منه. حتى قبل زواجي منك لا يزيد عن تصور طائش. يوما سيعرف. ستعلن أنت هذا وأبرأ من هذا المرض. للأسف ابن الربيعي مفلس في كل شيء، وأعرف هذا

وكي أكون واضحة لا يمكنني تحديد شعوري نحوه. كررنا هذا الأمر مرتين. وأكاد أجزم أن أشياء لا يمكن إغفالها تربط بينكما، لا أعرف بالضبط ما هي..

إنني وصلت إلى النهاية، وتماما مثلما تصورتها، ولن أقول إن الأمر بيديك.. لا. بعدما عشت معك فالأمر بيد كلينا..

- فعلا..!

- ١٠ -

مع قرب انتهاء فصل الصيف.. ازداد عدد الأطفال المترددين على (جمعية تنمية العقول والقلوب). وافق كارم أن تتوسع - بعد أن وافق أن تكون على أرضه - ويصل عدد الفصول إلى أربعة بدلا من ثلاثة. جاءه المتر بعشرة أولاد جدد، غير أن المشكلة الحقيقية لم تحل. من سيقوم بتدريس اللغة الألمانية؟ خاصة بعد تهديد إسلام بالعودة إلى الصعيد وقد جاءه أكثر من تليفون، وانصرف اثنان من مدرسي اللغة الإنجليزية والكمبيوتر. طاف المتر بالفصول الثلاثة، رأى بعضا من أطفال الابتدائي والإعدادي، ولم يرتح لنظرات الشباب، على أن وجود الأستاذ هارون أجل من قلقه، واستشعاره النذر المخيفة..!

بحثوا عن ابن الربيعي في كل مكان. الأستاذ هارون

أقنع المتر أنه أولى من أي إنسان ليدرس اللغة العربية. المتر قال في وضوح: نأتي عمدا بمن يفسد عقولهم..! مر شهران وتحول أمر اختفائه إلى حديث تآكلت بدايته ونهايته وتبقى فحواه..! ولما صارح كارم إسلام بالأمر نقل إسلام كل شيء إلى أمل. هدأ لأنها لم تعقب، ورأى في نظرتها تأنيبا وألما، غير أنه حافظ على عهده، خاصة بعد أن عرفت قصته مع كريستينا ووعدته أن يظل كل شيء مدفونا حيث هو، سواء ما يخصها أو ما يخصه. تعجب كارم حين جاءه إسلام وأفضى إليه بكل شيء، فرد إسلام قائلا: حولنا قوتنا إلى عكس ما ينتظر الجميع.. نحن أولا. وقالت أمل لزوجها إنها تنتظر معه قدوم كريستينا ويجب ألا يترك "مصري" ولو وكان مشوها مثلما تدعي. وهي تؤكد أنها تدعي وربما يكون الأمر خدعة كبيرة..

ثلاثة فصول كانت غرفا واسعة لباشوات أو أناس طيبين، طليت وملئت بدكك وكراسي ذات ألوان زاهية. في كل فصل سبورة وعلقت لمبات بيضاء مستطيلة، وشعر كارم أن أهله يمكنهم النوم في سلام. الميتون والأحياء. يظل ينظر إلى اللافتة الخضراء بعد أن ترك الحديقة للأولاد. الكبار والصغار. يكاد يعترف أن حنان هي أساس وصاحبة كل هذا الخير..

سمع عن الشائعات التي تتردد وتستفحل حول المتر.

رغم أنه وافق أن تكون الجمعية تحت إمرة هذا الرجل، إلا أنـها ما تزال ملك السراي، ولا يربطـه بـالرجل غير عقد بإيجار لا يحصـل عليـه. أفهمـه حمـوه منـذ البدايـة أن الأمـر كلــه يتعلــق بالتصريح، وبما أن القرية تستفيد من هــذا فعليـه أن يستبعد أي خطر من ناحية المتر، وذكـره أنـهم جميعـا عائلـة واحدة. حين اضطر كارم إلى ذكر شباب فرنسا كان يعمد أن يترك في عقل حميه ما يشبه الصوت الخافت عن الفلوس التـي حصـل عليـها، ولا يهم إن كان المبلغ مائة ألـف أو خمسـة وسبعين، هنـاك فـي الأمر شيء مريب!

منذ شهور اتضحت أمام الشيخ الحقيقة، وفعلـها محسـن بعد أن ظهر وقبيل اختفائه للمرة الثانية، ووضــع الشيخ كل مـا سمع أمام المتر. ندم أن صرح باسم محسن..!

أجمعت الفلوس فعلا من أجل السفر..؟

لم يجد المتر ما يمنع الآن من قول الحقيقة..

- الأولاد يتعرضون للنصب أو خطر المـوت. جزء من هذا المال للجمعية وجزء لمن يرغب في السفر.
- مرت شهور ولم يسافر أحد..
- هناك بعض التعقيدات، ثم إن الفلوس كلها في الجمعية..
- ماذا تقول؟. أتظن أن الأولاد بـهذا الغبـاء؟. بدأوا فعـلا فـي الانسحاب، وما يحصلون عليه شهريا لن ينسيهم حقوقهم..

- يحصلون على مرتبات لا يحلمون بها..
- أباؤهم فلاحون! أتعرف ماذا يعني هذا؟
- أنا محام..!

لم يطلب الأولاد الجلوس مع المتر، لم يناقشوه في أي شيء.. ظلوا ينتظرون..!.

وجاءت هذه العصرية.. بداية أكتوبر..

دخلت القرية إسعاف ترج سارينتها الجدران، وانطلقت تعبر الكوبري، ووقفت أمام منزل الربيعي. أعطي الرجل القادم مع الجثة الأوراق للحاج الربيعي. لم ينل أية إجابة عن أي سؤال. جلس أمام جثمان ابنه يردد (ضربته سيارة)..

دفن محسن ولم تدفن أي شائعة. وصلت أيضا إلى إسلام وكلها تحوم حول حميه. بعد أن وارى الشيخ تلميذه قال: الولد ولد ليموت. العوض عند الله يا حاج ربيعي. رغم الزمجرة التي ملأت الشارع القريب من منزل الحاج الربيعي، ورغم أنه يهجس سببها وربما نهايتها، لجأ الأستاذ هارون إلى صومعته وأغلق الباب..!

دخل إسلام بعد يومين عليه وقال: أولاد فرنسا اقتحموا الجمعية، لم يعترضهم كارم. نهبوا كل شيء، تركوا الفصول خاوية. عادت كما كانت. الحمد لله.. قال الشيخ: ليس هذا فقط، طاردوا المتر، وذهبوا إلى مكتبه، كسروا كل شيء، الغبي

حاول منعهم.. نقل إلى المستشفى بين الحياة والموت..!

قال الشيخ : لا فائدة يا إسلام..

وضع إسلام القرار الذي توصل أمام أبيه..

- سأعود إلى عملي..

- وأمل..؟ !

لم يفهم إسلام مغزى السؤال، على أن نظرات الشيخ تحمل عشرات الأسئلة الأخرى..

- لم يعد لها غيري..

أضاف الشيخ ليضع كل الأمور في مسارها، وكان لا يعرف هل من حقه أم لم يأت الوقت؟

- ولك غيرها..!

- ماذا تقصد يا أبي؟

- أبوك قرأ المذكرات. ماذا ستفعل مع كريستينا..؟ لا أعرف إن كان من حقي السؤال؟ لماذا فعلت كل هذا؟ ماذا عاد عليك؟ هل انتهى كل ما بينكما؟ أم تعود إلى العمل لتعود إليها..؟

كل حوادث هذا العام تجمعت أمام إسلام، وشعر أن الفرصة جاءت ليعرف أبوه كل شيء، ربما يجد تفسيرا أو إجابة، لماذا فعل ما فعل؟ غير أن الذي لا يشك فيه هو عدم إحساسه بالندم. كان قد انتهى بالفعل مع نفسه من تناول هذه

الأحاسيس، وبعد أن حكت أمل اكتشفت أن الخطأ شيء موجود، شيء حقيقي لا يمكن للإنسان أن يستهين به، رغم ذلك ليس الخطأ هو النهاية، بمعنى رفض الإنسان الوقوف أمام رذائله، أوأخطائه، ثم يكمد. سأل نفسه أمامها، من لم يخطأ؟! لكن كم من المخطئين وقف في صدق أمام أخطائه وصححها؟! ثم أي خطأ؟ ومن يحدده؟! لذلك قرر أن يواصل مع أمل، ثم يواصل - لو حدث - مع كريستينا، يسير إلى نهاية الشوط. ويشك أن أباه يعرف فعلا كل شيء. قال:

- الذي لم تعرفه كثير..!
- لا يوجد إنسان أكبر من الخطأ..
- أنا لي ابن من كريستينا..!
- إلي هذه الدرجة؟
- وابن شبه معاق..!
- العقاب..!
- عقاب لمن؟

رأى الابن عرقا غزيرا يغطي بشرة الشيخ الحمراء، وشعر أن الشياطين تخرج من مكمنها؛ على أنه لم يجد الآن شيئا يمنعه، سيطر عليه إحساس يؤكد أن الحياة والموت لهما نفس الثقل، ونفس قوة الجذب..

لـو اعتبرناه عقابـا لـن نتحرك؛ لأن ما هـو خفي كان أعظم. قال الأب وهو يلتقط أنفاسه:

- أعظم من حفيد مهجن ومشوه..؟

- أمل..؟

- إنسانة مسكينة..! لها أب متهم وزوج موحول..

- يا أبي أردت الحياة، رأيت الحياة الحقيقية، أنت تعرف حجم الكذب الذي يمنعنا أن نرى، تخطب كل أسبوع، تكرر نفـس الكلام، ويسمعون ولا يفعلون، نصحو لنسمع وننام ممتلئيـن بكل هذا الكذب. هل أذنبت حيـن اقتنصـت فرصـة فيـها كـل الصدق. لا يكذبون، يقولون مـا يمكنـهم تنفيذه، ويشـعرونك أن عقولهم أقل من عقلك، غير أن ما يفعلونـه يرعبـك، هـذا هـو الغرب!!

- من مذكراتك أرى أن حياتهم كلها للجنس..!

- غير صحيح. أنا كتبت مـا لفت نظـري، فـي البدايـة نلـهث وراء احتياجاتنا، لا نلحظ إلا ما هو مغلف، ملفوف، أو فوقه قفل، ولكن بعد ذلك نكتشف أننـا تركنـا أشـياء أجمـل وأهـم. فوق ذلك نمارس نحـن كـل شـيء مـن وراء أنفسنا. وأنـت تحدثت عن وحلي.. لكن وحل ابنة المتر أكبر..

- مسكينة.. لا ذنب لها فيما فعله أبوها..!

- ربما، اسمع يا أبي. ابنة المتر جاءتني غير سليمة، أنا احتفظت بها في بيتك وهي غير مؤهلة لتكون العروس التي اختارتها أمي. أكنت أقضي على ست انتظرتها وانتظرت ابنها، أمل تحمل نفس الجرم الذي أحمله، ووصلنا إلى اتفاق..

- ماذا تقول؟

- هذه هي الحقيقة!

- هذا كثير يا بني..

رأى أباه ينهار. سحبه من يده إلى غرفته، هناك تركه ولكن الرجل قبض على يد ابنه وشد كأنما سيلفظ أنفاسه.. وتساءل..

- مع من فعلت ابنة المتر..؟!

حاول إسلام ألا ينطق، ظل دقائق صامتا، غير أن عيني أبيه كانتا ممتلئين بالدموع..

- محسن..!

صمت الأب تماما. شعر الرجل أن أطرافه تتجمد. طافت حنان برأسه، سمع صوتا يهتف: أكانت حنان على حق..؟!!!

****

لم يصدق إسلام أن شهرين بعد هذا الحوار قد انقضيا، ندم أن تحدث مع أبيه بهذا الشكل المخزي، حيث ظل الرجل قرابة أسبوع يدخل صومعته، يشبه الطائر الذي اختطف نسر هائل فراخه أمام عينيه، وقبل أن يحملها في منقاره القدري افترس جزءا منها، ثم تركه يشاهد كيف تتم النهايات. قال إنهما - كارم وحنان - الأمل الوحيد ووجودهما معا يعني له الكثير. وحين علمت حنان بأمر الحمل حملت له البشرى، دخلت لترى أبا قد أهمل نفسه، ليل نهار مغلقة الصومعة، يخرج فقط ليطمئن على زوجه، ثم يصلي ساعات طوال ويقول إن فائدته في الحياة وتعلقه بها، فقط من أجل هذه المرأة، وقد سقط عليها خبر أمل مثل الصاعقة. أرادت أن تتخلص من التفكير في البقاء على الأرض بالارتماء بين أنياب مرض السكر. علم الرجل أنها لن تعيش، حرموا عليها الخوض في هذا الحديث انصياعا لطلب إسلام، وفهم الشيخ أن الأمر خرج - مثلما يقولون - من يديه. ماذا سيجني من وراء إذاعة فضيحة شارك فيها ابنه عن فشله وفشل ابنه، وفشل كل العائلة كان سيعلن. لم تقتنع أم إسلام بهذا الكلام. قالت إن ما تعرفه أن ابنة المتر ارتكبت جرما، أمرا لا يمكن أن يشارك فيه شيخ وخطيب في قرية، كيف سيتعامل مع هذا الأمر ويتعايش معه وبرفقة إنسانة أمامهما ليل نهار؟!. لم

يتبق لها غير اعتزال الناس، لدرجة لم تراع فيها حتى عشرة العمر، وانطلق في العائلة صوت جديد، ليس غير الصمت، الترقب، مشاهدة كل فرد للآخر وتأمل أخطائه على شكل اجترار. رضي كل بوضعه، وسقطت المرأة في شق خبيث يضيق عليها ويأكل من حياتها، وتتآكل أيامها بالذكريات الجميلة. علم زوجها أنها أيام، لذا انتظر إسلام، بجانبها يجلس، وأمل لا تجرؤ على دخول غرفتها.. وماتت المرأة.

لم يروا الشيخ إلا ليلة الجنازة. تحدث في السرادق الذي نصب أمام بيته عن الحياة وكيف تفر من أيدينا ولا نفهم لماذا، عن الموت المنتظر وراء ظهورنا ولا نلتفت له، وطالب أن يسمع الآباء لأولادهم، وأن يفهموا أنهم يمتلكون من حياة الأبناء، بقدر ما أعطوا، وأن التفكير ليس حكرا على اب او أخ كبير أو أم. ثم عاد إلى صومعته، يرى في الصلاة والاستغفار أملا، وترك كل شيء لإسلام وأمل، لم يعلن عن غضبه، وتقريبا فهمت أن سرها انكشف وتحولت - في البداية - عن عيني الرجل وقد انطفأ نورهما وقرأت فيهما التسامح.

قبل أن يعود إسلام إلى عمله شعر أن انتظاره لكريستينا سيطول. اتصلت وقالت إنها آتية. مر الشهران ولم تأت. اتصل بها ولم يجد أحدا، وشعر أن وجوده مربوط بأمل وكريستينا

وهو يتمزق بين هاتين الضفتين؛ رغم ذلك عاد وبدأ يشرح مثلما كان.. محاولا تأمل ما حدث.

عاد يشرح التاريخ الفرعوني. تنتهي المجموعة ليعود إلى قرية تصالحت مع أمل. لم تجد غيره، وقال لها إنه أيضا لم يعد يهتم إن اتصلت أم لم تتصل، لكنهما متأهبان لاستقبال "مصري" ولو كان مشوها. وأعلنت:

- إنني حامل. وأعلم أن مولودي لن يأتي مشوها..

وبعدها وقف أمام مجموعة ألمانية.. وشرع يشرح متناولا عصر إخناتون..

- لا نعرف عن هذا الموحد الكثير، غير أن الكهنة رفضوه، والفنانون رسموه مشوها. أراد نقل حقيقة ما إلينا. وأنا أرى.. لو هادن إخناتون الكهنة، لو تصالح معهم لأمكنه بث عقيدته في ربوع الوطن. ربما لهذا يعد عظيما. ورغم سخرية الفن منه فهو أول الموحدين من الفراعنة.

تمت

المحتوى

صدر من مطبوعات الفجر

١	تغريبة عبرزاق الهلالي	دراما شعرية	د يسري العزب
٢	الهاموش	قصص	حسن نور
٣	المبعدون	قصص	إدريس علي
٤	حكايات مصرية	قصص	د. نجدي إبراهيم
٥	الدائرة	رواية	د. نجدي إبراهيم
٦	شجرة مريم	شعر	د. يسرى العزب
٧	تأملات في الفن والثقافة	نقد	د. محمد حسن عبدالله
٨	أمسيات عائلية هادئة	قصص	منتصر ثابت
٩	شجر الليمون	شعر	خالد الشوقاتي
١٠	عصفور الحب	شعر	نجاة خليل
١١	حتى لا يطول الانتظار	قصص	محمد نور الدين
١٢	اكتب عمري	شعر	ليلى محمد علي
١٣	زائر بعد منتصف الليل	رواية	مديحة أبو زيد
١٤	خاطئة في الجنة	رواية	يحيي سليمان
١٥	النملة والحداية	شعر للأطفال	عزت زايد
١٦	واحد اتنين	شعر للأطفال	عزت زايد
١٧	المراهن	رواية	سيد أمين
١٨	فيكي إيه يتحب؟!	شعر	جلال صياد
١٩	فرس جامح	شعر	ليلى محمد علي
٢٠	حريم الملح والسكر	مسرحية	محمد الغيطي
٢١	قمر المغارب	شعر	د. يسرى العزب
٢٢	الدنيا جاية	شعر	د. فاطمة الحفني
٢٣	آه يا وطن	شعر	م. منى عوض
٢٤	تخاريف	شعر	نبيل أبو السعود
٢٥	ليلة دافئة	قصص	فرج محمود
٢٦	ضاع الطريق مننا	شعر	عبدالحميد فرج
٢٧	بشرة خير	شعر	مجدي حمودة
٢٨	بين الضفتين	روايـة	فرج محمود

رقم الإيداع ٢٠٠٥/٨٦٧٦

زرد للطباعة والكمبيوتر